

شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر
تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - الرباط - المغرب

موقف الموحدين من كتب الفروع وحمل الناس على المذهب الحزمي

مخطوطات التفسير والحديث في الخزانة الكتانية

مع الموريسكيين في بلاد الغربة

• دعوة الحق • العدد 249 • رمضان 1405 / يونيو 1985

• الثمن 4 دراهم •

فصل الخطاب في ترسيل الفقيه أبي بكر ابن خطاب

نداء إلى أساتذتنا وعلمائنا

مجلة دعوة الحق مقبلة على تطوير موضوعاتها وتجديد شكلها استجابة للدور المسؤول والهام الذي تضطلع به بلادنا نصرة لقضايا الأمة الاسلامية ودفاعا عن توجهاتها المصيرية.

وإذا كان الفكر الإسلامي الذي انشأ حضارة إنسانية أعطت للعالم ينابيع متدفقة لا ينضب معينها أرشدته إلى الطريق الضامن لتقدمه وتطوره في أجواء يهيمن عليها الهدوء النفسي، وتطبعها الفضيلة والأخلاق المثلى، فإن من آكاد الواجبات على مثقفينا ومفكرينا أن يوالوا الإسهام الجاد والمبدع في المسيرة التي تنهض بها أمتنا الإسلامية في مختلف أصقاع العالم لكي يبقى عالمنا الإسلامي عالما تظلله الحكمة والفضيلة والتعاون والوئام.

ودعوة الحق وهي توجه هذا النداء الفكري إلى أساتذتنا وعلمائنا لتنتظر منهم المشاركة المتواصلة على صفحاتها في مجال الفكر والثقافة الإسلاميتين.



شهرية تعنى بالدراسات الاسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية
الرباط - المملكة المغربية



أسسها،
جلالة المغفور لـه
محمد الخامس
قدس الله روحه
سنة
1376 هـ — 1957م

التحرير:
الهاتف: 623.60

الإدارة و التوزيع
636.93
627.03
627.04
608.10

*

الاشتراكات: في المملكة المغربية: 70 درهماً
في العـالـم: 80 درهماً

الحساب البريدي: رقم 55-485. الرباط
Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55
à Rabat

فهرس العدد 249

ذلك الدين القيم...

للدكتور محمد الحبيب ابن الخوجة

الحمد لله الذي جمعنا على الهدى، وألزمنا كلمة التقوى، وكنا أحق بها وأهلها، وشرفنا بالانتساب إلى الملة الحنيفية السمحة، تفضلا منه ومنا، ورزقنا اتباع دينه القيم الذي اختاره لنا، فكنا بذلك من ربنا على صراط مستقيم. فسبحان الله والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. والصلاة والسلام على الرحمة المهداه محمد بن عبد الله، ورسوله إلى الخلق كافة، هدى به أعينا عميا وقلوباً غلفا، فبين ما أنزل عليه من ربه، وأدى الأمانة، وبلغ الرسالة، وأخرج الناس من الحيرة إلى الإيمان، ومن الشك إلى اليقين، ومن الضلال إلى الهدى، ومن الظلمات إلى النور. فجزاه الله عن العالمين خير الجزاء، وآتاه الفضيلة والوسيلة والدرجة الرفيعة العالية من الجنة، وبعثه المقام المحمود الذي وعده يوم الدين.

وبعد

﴿أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون﴾[1].

﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم. إن الدين عند الله الإسلام﴾[2].

﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾[3].

كل هذه الآيات الكريمة تؤذن بأن الكائنات جميعها أسلمت لله. وأن الله بعث رسله لدعوة الناس إلى الإيمان به والإسلام له. وإسلام الوجه لله في قوله تعالى مخاطبا الصادق الأمين : **﴿فقل أسلمت وجهي لله﴾** بمعنى أسلمت نفسي لله ينطوي على معان جليلة وحقائق عظيمة، جماعها إسلام النفس لأجل الله وصيرورتها ملكا له بحيث تكون جميع أعمال النفس في مرضاة الله. وهذا المعنى العام الذي يتحقق به الإسلام كدين يتناول جوانب ثلاثة :

الجانب العقدي والجانب السلوكي والجانب العملي الشرعي.

أما الجانب الأول فهو يقتضي بدون شك أن يكون المسلم مصدقا بالغيبيات كلها مؤمنا بها، مقرا بالصفات القدسية لله تعالى، معترفا بالقضاء والقدر، موقنا بأن الله هو المتصرف المطلق لا يشاركه أحد في الخلق والإيجاد، ولا شيء في الإحياء والاماتة، فهو الذي بيده كل شيء وهو على كل شيء قدير.

1) آل عمران : 83.
2) آل عمران : 18، 19.
3) آل عمران : 85.

وأما الجانب السلوكي التابع للإيمان بالمغيبات والمتولد عن إسلام المرء وجهه لله فهو يتمثل في جملة من التصرفات والأعمال أو المواقف هي :

أولا : تمام العبودية لله، فلا يشرك بربه أحدا، ولا يسلم أي جزء من نفسه لشريك يدعوه مع الله، فتتمحض ملكيته في نفسه لخالقه، ويستسلم له الاستسلام كله بحيث لا يطمع ولا يرجو ولا يخشى ولا يخاف مع الله أحدا.

وثانيا : إخلاص عمله لله بأن يكون فيما يصدر عنه مراعيا حق الله فيما يفعله له لا لغيره، ويقصد به وجهه وحده. فلا يرائي ولا يصانع ولا يقدم أو يؤثر فيما يأتي أو يذر مرضاة غير الله على مرضاة الله سبحانه.

وثالثا : إخلاص القول لله بحيث لا يقول إلا ما يرضي الرب ولا يتكلم إلا فيما أذن فيه. فيكون صريحا في الحق يصدع به، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويدعو إلى الحق والخير بإذنه تعالى، متباعدا عن نفاق الناس وملقهم، مقيما بما يعلنه الحجة لله في الأرض.

ورابعا : أن يكون حريصا على التعرف على مراد الله بالإصغاء الكامل للدعوة، وحسن التلقي لها والتأمل لأغراضها ووجوه الصدق فيها، حتى يصوغ سلوكه العملي في الحياة على وفق ما في كتاب الله وسنة رسوله، من أمر ونهي وخلق وأدب ومنهج وهدي ديني.

وأما الجانب العملي الشرعي المتعلق باتباع شريعة الله ودينه فيما أمر به ربه ونهى عنه ودعا له وسنه، وبالخضوع لأحكام الله، وما قضى به في كتابه أو بينه رسوله وفصله، فهو الذي نادى به سبحانه بعد التحذير من نفسه، وميز به بين المسلم والكافر في قوله سبحانه :﴿**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين**﴾[4].

ذلك أن الإسلام ليس فقط كلمات وعبارات تجيش بها النفس وتتردد على اللسان، ولا هو مجرد شعائر تقام وقربات يزدلف بها، ثم يعرض الإنسان عن منهج الله فلا يرتبط به، وعن شرعه فلا يحكّمه. فإن من عمل عملا ليس عليه أمر هذه الأمة فهو رد.

وقد بين ابن القيم ذلك بقوله :

«ومن تأمل في السير والأخبار الثابتة من شهادة كثير من أهل الكتاب والمشركين له ﷺ بالرسالة، وأنه صادق، فلم تدخلهم هذه الشهادة في الإسلام، علم أن الإسلام أمر وراء ذلك، وأنه ليس مجرد المعرفة فقط، ولا المعرفة والإقرار فقط، بل المعرفة والإقرار والانقياد والتزام طاعته ودينه ظاهرا وباطنا»[4].

واقتضاء هذا الجانب الطاعة لشريعة الله والتحاكم إلى كتابه لازم من لوازم توحيد الألوهية في الإسلام. فالله المعبود وحده بحق، له الحاكمية المطلقة في تدبير الكون كله، وهو الذي شرع للناس دينهم، ووضع لهم القيم الثابتة والموازين. ومن ثم يكون على المسلم امتثال ما أمره الله به واجتناب ما نهاه عنه، والذود عن شريعته، والمحافظة على تطبيقها، والتمسك بها بلا تغيير ولا تحريف. فلا يجعل لنفسه حكما مع الله، ولا يرفض من أحكامه ما لا يرضيه، مثلما يفعل الملحدون في آياته ﴿**وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون وإن يكن لهم الحق ياتوا إليه مذعنين**﴾[5].

ولا يتردد في قبول ما قضى به الله أو رسوله فإن ذلك سمة الكافرين : ﴿**وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن تكون لهم الخيرة من أمرهم، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا**﴾[6].

---

4) آل عمران : 31، 32.
4) زاد المعاد.
5) النور : 49.
6) الأحزاب : 36.

ولا يستجيب للهوى كما تمليه عليه نفسه فيقول في دين الله بغير سلطان : **﴿ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله، إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾**[7].

ولكنه يصدق في كل الأحوال، ويلتزم القيم والموازين والعدل في معاملاته وفيما ينشأ بين الناس فرادى وجماعات وأمم من معاملات، فإن وجد لذلك في كتاب الله أو سنة رسوله نصا قضى به والتزمه، وإن أشكل عليه الأمر ولم يعرف حكم الله فيما عرض، ولم يتبين الحق والعدل الذي يجري على مراد الله فيه، تدبر واجتهد وألحق الأمر بنظائره، ليتوصل إلى ما يغلب على ظنه أنه يجاري حكم الله. ويتقي الله ما استطاع، فإن تعذر عليه الوصول إلى ذلك فليستجب لقوله عز وجل : **﴿ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطون منهم﴾**[8]. وليرد الأمر إلى سنة الرسول ﷺ وإلى أئمة الدين وفقهاء الملة يهدونه إلى أقوم السبيل.

ذلك هو الإسلام الدين القيم الذي شرع الله لعباده. وتلك هي المعاملة مع الله التي أرشد إليها سبحانه الخلق جميعا على ألسنة الأنبياء والرسل، وفيما أنزل من كتاب، وأوصى به من هدى.

والشريعة كما وصفها ابن القيم، عدل الله بين عباده، ورحمته بين خلقه، وظله في أرضه، وحكمته الدالة عليه وعلى صدق رسوله ﷺ أتم دلالة وأصدقها. وهي نوره الذي به أبصر المبصرون، وهداه الذي به اهتدى المهتدون، وشفاؤه التام الذي به دواء كل عليل، وطريقه المستقيم الذي من استقام عليه فقد استقام على سواء السبيل. فهي قرة العيون، وحياة القلوب، ولذة الأرواح. فهي بها الحياة والغذاء والدواء والنور والشفاء والعصمة، وكل خير في الوجود فإنما هو مستفاد منها وحاصل بها[9].

وبما ذكرناه من أنها وحي، وأنها من عند الله ارتفعت أولا عن التحيز إلى الهوى أو الرأي، وجلت عن التأثر بالمودة والشنآن، وخلصت من أن تقع تحت سلطان المصالح والأغراض، ونظمت ثانيا حياة الخليقة، وأرست الأسس لعلاقات الناس بعضهم ببعض، أفرادا وأزواجا وحكومات وشعوبا ودولا وأجناسا. فأشاعت الفضيلة بين أفراد المجتمع الإنساني، وشملت كل جوانب الحياة، بما أقامه العليم الخبير بخلقه العالم بما يصلح لهم في كل أرض وجيل من أصول ثابتة ومبادئ قارة لا حيدة عنها. فربط السياسة والحكم والتصرف في الشؤون العامة بين الناس بالرفق والعدل والوفاء بالعهود، وجعل الأسرة الصالحة المؤمنة أساس بناء المجتمع، كما جعل ركيزته التعاون والتشاور والتكافل والتراحم، وقضى على ألوان التمييز العنصري الجنسي والصراع الطبقي الاجتماعي، وقضى بأن لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى، وأقام النظام الاقتصادي على الإنتاج والعمل وتبادل المنافع دون شره أو بطر أو استغلال أو إجحاف.

ولا نتقول على الله في دينه وفيما شرعه لخلقه. فهذا الذكر الحكيم يشهد : **﴿إن هذا القرآن يهدي اللتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا﴾**[10].

ولفظ الآية كما قال السيد قطب : «على وجه الإطلاق فيمن يهديهم وفيما يهديهم، فيشمل الهدى أقواما وأجيالا بلا حدود من زمان أو مكان، ويشمل ما يهديهم إليه كل منهج وكل طريق وكل خير يهتدي إليه البشر في كل زمان ومكان»[11].

ولعل في هذا إيماء لطبيعة هذا الدين، وتميزه اللذين صرح بهما القرآن في مثل قوله عز وجل : **﴿وأرسلناك للناس رسولا، وكفى بالله شهيدا﴾**[12]

7) القصص : 50.
8) النساء : 83.
9) ابن القيم : أعلام الموقعين : 3، 3.

10) الإسراء : 9.
11) سيد قطب : في ظلال القرآن : 4، 2215.
12) النساء : 79.

﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا﴾[13]

﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾[14]

﴿وما كان محمد أبا أحد من رجالكم، ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾[15]

ثم في قوله عز وجل : **﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾**[16].

فقد صدعت الآيات الأولى بأن محمدا سيد المرسلين بعث للناس لا لقوم أو جماعة بعينها، وأنه أرسل للناس كافة وللعالمين وأنه خاتم الأنبياء. فرسالته عامة لجميع الخلق في عصره ومن بعد عصره لانقطاع الوحي من بعده ولكونه خاتم الأنبياء، وهذا يرتبط بالتأكيد مع مدلول آية المائدة التي تعلن عن الله أنه أكمل دينه، وأتم نعمته ورضي لخلقه الإسلام دينا. فشريعة الله هذه تتصف بالشمول والعالمية، جاءت حيث عطلت الأديان الإقليمية، وحرفت الرسالات المحلية، فكانت مهيمنة عليها وناسخة لها : **﴿تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم، فهو وليهم اليوم، ولهم عذاب أليم، وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾**[17]. وإذا كانت الديانات في الزمن الأول متفقة مع هذا الدين من حيث المصدر والدعوة إلى توحيد الله وعبادته وتمجيده، فإن شرائعها كانت مختلفة بحسب الأزمان والأماكن والظروف البيئية. ولما جاء الإسلام الدين الخاتم فارق بحكم طبيعته التي ذكرنا جميع الديانات التي واكبت أحوال المجتمعات وتطورات الإنسان، ولم يأت لفئة خاصة من الناس كما سبق، بل للإنسان أينما كان، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وإلى الله ترجع الأمور.

ولذلك قامت أسس الإسلام : هذا الدين الكامل، وهذه الشريعة الدائمة على عقيدة صحيحة ثابتة يلقنها، وشريعة كاملة يحتكم الناس إليها، ومنهج سلوكي عام في الحياة يلتزم لتحقيق الخير والحق والعدل. وكمل الدين، وتمت به النعمة، ورضي الله لعباده الإسلام دينا. وإذا هو من يوم عرفة في حجة الوداع يتدفق حكمة وثقافة، وهداية وفكرا وشريعة وفقها وبيانا وعدلا. تميز به أصحابه في الزمن المتقدم حين دعوا إليه وعاشوا به ولم يحكموا غيره، لأنه الدستور الجامع، والمنهج المعصوم الرشيد، فنشروا الفضل والخير والسعادة في أطراف المعمورة، وامتدت فتوحاتهم لجميع القارات، ودخل الناس في دين الله أفواجا على أيديهم. وكانوا على أمر الله مستقيمين فاستخلفهم الله في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وبنوا للعالمين حضارة زاهرة ومدنية باهرة، ظلت فخرهم وعزهم وعنوان مجدهم إلى أن انحرف الناس عن دين الله **﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات﴾**[18]، وطلبوا العزة في غيره، ولقوا غيا، وساءت العقبى، ونزل بهم الوعيد حين استبدلوا بدين الله مذاهب فكرية ونظما طاغوتية، ولم يسمعوا لتحذير الله لهم في قوله عز وجل : **﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم﴾**[19].

ولم يكن الدين ناقصا فيستدعي إكمالا، ولا قاصرا فيتطلب إضافة، ولا إقليميا محليا أو ظرفيا زمنيا فيقتضي التطوير والتحوير والتبديل والتغيير. ولكنه الضياع والتحول وظهور البدع والضلالات والغزو الفكري من كل جهة وصوب والحلول الهدامة المستوردة من الشرق والغرب تمارس وتطبق في عالمنا، تنسينا وتجعلنا دائما في غفلة عما أنقذ الله به العالمين من الجهالة، وأتم به نعمته عليهم.

---

13) سبأ : 28.
14) الأنبياء : 107.
15) الأحزاب : 40.
16) المائدة : 3.

17) النحل : 63، 64.
18) مريم : 59.
19) آل عمران : 105.

حتى إذا أراد الله لهذه الأمة الإسلامية أن تصحو من غفوتها، وتذكر ما نسيت من أمر ربها ومن مفاتيح الخير بين يديها، وتعمل على استرجاع أصول عزتها وأسس عظمتها، وجدت كتاب الله يهديها سبلها. ذلك أن الدين قد تضمنه وحفظه الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. وهو منقذ الأمة ومخرجها من المتاهات والأزمات والفتن. فقد روي عن علي كرم الله وجهه أن رسول الله ﷺ قال : إنها ستكون فتنة. قيل : فما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : كتاب الله فيه نبأ من قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله. وهو حبل الله المتين، ونوره المبين، والذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تتشعب معه الآراء، ولا يشبع منه العلماء، ولا يمله الأتقياء، من علم علمه سبق، ومن قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم[20].

ومن يتأمل هذه الأوصاف لكتاب الله، لفرقانه، لا يظن فيها بهرجة قول ولا زينة لفظ ولا تزوير أديب، لما نجده فيها من إبداع تشبيه أو استعارة أو مجاز، وإنما هي صدق كلها، وحق كلها، نطق بها المبلغ عن الله رسوله ومصطفاه ﷺ. وهو الذي أنزل عليه الكتاب، وهو أعلم الناس بما فيه وأعرفهم به، وهو المبين له بتكليف وأمر من ربه في قوله جل وعلا : **﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾**[21].

وهو الذي لا ينطق عن الهوى، وقد شهد له الحق سبحانه بذلك في قوله : **﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾**[22].

فإذا أضفنا إلى ذلك شواهد من الواقع والتاريخ ومن التجارب الإنسانية، أدركنا كيف أخرج هذا القرآن العرب من جاهليتهم في تصوراتهم واعتقاداتهم وفي أوضاعهم الاجتماعية وفي تقاليدهم وعاداتهم وأخلاقهم وصلاتهم بعضهم ببعض، مما جلب عليهم الجهالة والانقسام والفوضى والجور والحكم للأقوى والسيطرة الأجنبية للفرس والروم عليهم، حتى إذا آمنوا بربهم، واتبعوا الرسول النبي الأمي، وعملوا بما جاءهم به، واحتكموا إلى كتابه، صلح أمرهم، وساد العدل بينهم، واتحدت كلمتهم، وجمع شتاتهم، وأصبحوا على الحق قائمين : ينشرون الهدى، ويدعون إلى الخير والتقوى. فكان لهم التمكين والعزة، وتولوا مقام السيادة والريادة بين سائر الأمم.

والعالم اليوم وقد ابتعد عن منهج الله في أطراف الكون، وعبد المال والمادة، وألّه العقل ثم العلم، وانصرف عن الوحي والدين، توزعته المذاهب الفكرية الإلحادية والتحللية، وغاضت الروح فيه، وعدمت الأخلاق، وأصبحت الإنتاجية والإنتاج مقياسا أساسيا له، والتسابق العلمي والتكنولوجي المفرغين من الدين وأثره والروح وسلطانه القصد الأول والغاية القصوى، ابتغاء الهيمنة والاستغلال والتحكم، لا من أجل تحقيق الرخاء وضمان الكرامة ونشر العدل بين الناس، فساد الجور والظلم، وسخر الإنسان، وتلاشت حرمته، وارتدت القوى الطاغية والمذاهب المتحكمة وما يدور في أفلاكها تجري بسرعة جنونية، وتجري وراء السرعة في كل شيء، متجاوزة القيم والموازين، لاهية عن كل الحرمات والمقدسات، تسوق الكون ومن فيه وما فيه إلى الدمار والخراب، وتنشر الهول والرعب في كل مكان، وتدفع بالأمم المتحضرة والشعوب الآخذة بأسباب هذه الحضارة الآلية على أي وجه من الوجوه، وفي أي صورة أو شكل من الأشكال إلى الانتحار.

وها هي صيحات الفزع تدوي في كل مكان، تنذر بالشر المستطير، وتوقظ قلوب المؤمنين الصادقين مستصرخة إياهم لأن يتداركوا هذا العالم بما عرفوا من حق

20) الترمذي عن الحارث ابن الأعور : حم.
21) النحل : 44.
22) النجم : 3.

وأوتوا من هدى. وهل في الدنيا ما هو أقوم وأتم هديا من دين الله وكتابه ووحيه وحكمته. ولقد تبين للعالمين أن الأفكار والمناهج التي رسمها البشر والنظم والقوانين المبتدعة كانت كلها خاضعة بحسب طبيعتها إلى آراء وإن ارتقت قاصرة، وإلى ظروف وملابسات متحكمة. وقد قامت الأدلة أيضا على ضعفها وتناقضها، وعلى الاحتياج الدائم إلى تطويرها وتغييرها. وأن واضعيها وأصحابها كلما لم تحقق ما قصد منها أسرعوا إلى تعديلها بل إلى نقضها، والثورة عليها، ونشدان غيرها لتجربته ومحاولة الإصلاح وتحقيق الراحة والخير عن طريقه، وتتلو المحاولة المحاولة والتجربة التجربة غير أنها لا تنتهي عادة إلا إلى ما انتهت إليه الأولى، لقصور العقل البشري الذي ابتدعها وانتهى إليها، وعدم احتوائه من المدركات والحقائق إلا على ظواهرها وما دنا له منها، ثم هو وإن ألم بطبائع الناس وعرف أحوالهم في ظاهر الأمر فإن كثيرا من ذلك لا يعلمه إلا بارؤها وخالقها وفاطر العالمين عليها، كما تغيب عنه حين يضع المحاولة ويحدد التجربة، لعدم قدرته على الاستيعاب الشامل المطلق الذي لم يقدر له كل الأسرار التي تحمل عليها، وجميع المقاصد والغايات التي تحققها وتطلب منها.

وقد كان الله بالناس رؤوفا رحيما، حين بعث فيهم رسلا يهدونهم، وشرع لهم دينهم وأتم عليهم نعمته ورضي لهم الإسلام دينا. فجاءت الرسالة الخاتمة كما نبه على ذلك صاحب الظلال : «تخاطب الإنسان من وراء الظروف والبيئات والأزمنة، لأنها تخاطب فطرة الإنسان التي لا تتبدل ولا تتحور ولا ينالها التغيير : ﴿**فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم**﴾. وفصل في هذه الرسالة شريعة تتناول حياة الإنسان من جميع أطرافها وفي كل جوانب نشاطها، وتضع لها المبادئ الكلية والقواعد الأساسية، فيما يتطور فيها ويتحور بتغير الزمان والمكان، وتضع لها الأحكام التفصيلية والقوانين الجزئية فيما لا يتطور ولا يتحور بتغير الزمان والمكان. وكذلك كانت هذه الشريعة بمبادئها الكلية وبأحكامها التفصيلية محتوية كل ما تحتاج إليه حياة الإنسان منذ تلك الرسالة إلى آخر الزمان، من ضوابط وتوجيهات وتشريعات وتنظيمات، لكي تستمر وتنمو وتتطور وتتجدد حول هذا المحور وداخل هذا الإطار»[23].

فهي تشمل بذلك تنظيم الحياة وضبط أحكامها فيما يعود أولا لعلاقة الإنسان بربه، وثانيا لعلاقة الإنسان بغيره في أسرته وخارج أسرته، فردا كان ذلك الغير أو جماعة، كما تمتد فتشمل العلاقات بين الجماعات وبين الأمم في السلم والحرب، غير مهملة أي جانب من الجوانب السلوكية التربوية أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية.

بهذه الشريعة أتم الله نعمته على الناس. وهو العليم الخبير بأحوال ملكوته وأوضاع خلقه وما يحتاجون إليه في كل الأزمنة والعهود وجميع الأماكن والبقاع. وقد اختار لهم الله هذا الدين لما فيه من هدى وحق وعدل وخير وسماحة ويسر. فلا أجحد للفضل، ولا أنكد جرما ممن يتخذ بعد ذلك إلهه هواه، ويرفض ما رضيه الله، ويختار لنفسه غير ما اختاره الله له.

﴿**قل إن هدى الله هو الهدى، ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله ولي ولا نصير، الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته، أولئك يؤمنون به، ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون**﴾[24].

فكتاب الله هو المصدر الأصلي الأول للتشريع. جاءت بذلك الدلائل القواطع من الآيات القرآنية، تلزم بالعمل به وتفرض الاحتكام إليه : مرة بالتقرير الإلزامي كما في قوله عز وجل :

﴿**ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم**﴾[25].

23) سيد قطب : 2، 842، 843.
24) البقرة : 120، 121.
25) الممتحنة : 10.

ومرة بدعوة الرسول إلى ذلك في مثل قوله سبحانه : ﴿**إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق، لتحكم بين الناس بما أراك الله**﴾.[26]

وفي قوله عز وجلّ : ﴿**إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق، مصدقا لما بين يديه ومهيمنا عليه، فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق**﴾[27].

وأخرى بالتوعد على مخالفة الأحكام للتنزيل في قوله جل وعلا : ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون**﴾[28].

وقوله : ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون**﴾[29].

وقوله : ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون**﴾[30].

ومرة عن طريق الاستفهام الإنكاري كما في قوله سبحانه : ﴿**أفغير الله أبتغي حكما وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلا**﴾[31].

والمصدر الإسلامي الثاني للتشريع هو السنة. فقد دل على هذا القرآن في قوله عز وجل : ﴿**وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا**﴾[32].

ولأن السنة بيان للقرآن وتفصيل لمجمله، كما يوحي بذلك قوله تعالى على لسان رسوله : ﴿**يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتابة والحكمة**﴾[33].

وقد جمع الرسول ﷺ بين المصدرين الأساسيين عندما دعا المؤمنين للتمسك بهما حيث قال : «إني تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدا : كتاب الله وسنة نبيه»[34].

فهما اللذان فرضا الفرائض، وحدا الحدود، ومنهما عرف المؤمنون ذلك، وإليهما يرجع في ضبط الأحكام التي

26) النساء : 105.
27) المائدة : 48.
28) المائدة : 44.
29) المائدة : 45.
30) المائدة : 47.

أمر رسول الله ﷺ بالتزامها والوقوف عندها في قوله : «إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدودا فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها»[35].

ومن فجر الرسالة أقبل المسلمون على كتاب الله وسنة رسوله تحملا وتبليغا وحفظا وفهما، رواية ودراية وتدبرا وبحثا وتفسيرا وشرحا يتلقى عن الرسول صحبه، ويأخذ الأصحاب بعضهم من بعض، وعنهم التابعون. وهكذا تكون جيل من الفقهاء الأوائل منهم، عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وأم المؤمنين عائشة وزيد ابن ثابت، وعبد الله بن عباس، ومنهم أيضا عبد الله بن عمر، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام، وأبو عبيدة بن الجراح.

وقد عد من المبرزين في ضبط المسائل والأحكام الفقهاء السبعة : سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، والقاسم بن محمد، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، وسليمان بن سيار وخارجة بن زيد بن ثابت.

وانتصب في كل بلد إمام : بالمدينة ومكة والكوفة والبصرة واليمن والشام.

وتبع هؤلاء جميعا الأئمة المجتهدون في مختلف الأصقاع، حفظا من الله لدينه وصيانة منه سبحانه لملته.

وظهرت العلوم : المقاصد والوسائل، وفي مقدمتها جميعا علوم الشريعة، كعلوم القرآن وعلوم الحديث وعلمي الفقه والأصول.

وتتابع النظر والدرس للمسائل وأحكامها، وفي طرق الاستنباط للأحكام وأسرار التشريع ومقاصد الشريعة. وضبطت القواعد ودونت الفروق وجمعت النظائر والأشباه، وتباينت المدارس والمناهج الفقهية، فمن مدرسة المدينة، مدرسة الحديث إلى مدرسة الكوفة، مدرسة الرأي.

31) الأنعام : 114.
32) الحشر : 7.
33) الجمعة : 2.
34) ت؛ ط.
35) قط.

واعتمد الأئمة الفقهاء أصلا ثالثا نقليا في التعرف على الأحكام وتحديدها هو الإجماع، وعمل بعضهم بالقياس، وأخذوا بقول الصحابي، وحكموا العرف، وقالوا بالاستحسان، ومال جماعة منهم إلى الاستقراء والاستدلال، والأخذ بأقل ما قيل، وبنفي الحكم لنفي الدليل، وبالإباحة أو البراءة الأصلية، وبدلالة الإلهام.

ونجم عن هذه المذاهب المتعمقة في الأحكام المتتبعة للمسائل، الواقف بعضها عند القضايا المعاشة، والمتجاوز غيرها إلى الصور المفترضة، تراث جليل وثروة نفيسة، لا مقارنة بينها وبين أي تراث فقهي أو قانوني في الأمم الأخرى. وهي متى كانت متفقة في الأصول ملتزمة بالمصادر الأساسية لا يضيرها ما ظهر بينها من اختلاف في الرأي والحكم. فهو ناجم عن اختلاف مسالك الاجتهاد، كما أنه دليل الحركة والنظر، وأمارة التدبر، ونتيجة البحث عن مصالح الناس وما يسندها من الدلائل والقواعد. وقد قال رسول الله ﷺ : «اختلاف أمتي رحمة»[36]. وروى عنه ﷺ أنه قال : «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»[37]. كما نقل عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قوله : «ما أحب أن أصحاب محمد لا يختلفون، لأن الرأي لو كان واحدا لكان الناس في ضيق، وأنهم أئمة يقتدى بهم، فلو أخذ أحد بقول أحد لكان سنة»[38].

وبالتتبع للاجتهادات الفقهية ولما تركه لنا الفقهاء السابقون نجد نوعين من الأحكام :

1 - **أحكام مستقرة ثابتة** لا تختلف المصلحة فيها باختلاف الأصول والأزمان فهي غير قابلة للتبديل أو التغيير.

2 - **أحكام جزئية** روعيت فيها مصالح الناس وأعرافهم[39].

وبدون شك فإن هذا النوع الثاني من الأحكام التي بنيت على متطلبات عصر، أو قضى بها عرف خاص، لا يصح كما قال الدكتور مدكور رحمه الله أن تتخذ قانونا دائما وشريعة ثابتة تطبق حتى مع اختلاف وجه المصلحة وتغير العرف[40].

وهذا إن دل على شيء فإنه يدل أولا وبالذات على أن أحكام الشريعة ملزمة، وأنها الكفيلة بحفظ الحقوق وإقامة العدل، وثانيا أنها بما طبعت عليه من السماحة وتميزت به من المرونة تستوعب قضايا كل عصر، وتمكن من النصفة فيها وإيجاد الحلول والأحكام المناسبة لها.

وكل هذا يتحقق بالنظر الاجتهادي من أولي العلم القادرين على استنباط الأحكام، ولابد هنا لتوضيح الأمر من الإشارة إلى الاجتهاد وضوابطه وتصرفات الأئمة بشأنه.

ولا يخالف أحد في كون الاجتهاد واجبا اليوم، وأنه ضروري في هذا العصر، لمواجهة كثير من المشاكل ومستجدات الأمور وإظهار حكم الله فيها. ولنفي التلاعب بأحكام الدين والأخذ بالأحق والأوفق والأحوط الذي تبرأ به إن شاء الله الذمة، ينبغي أن يتقيد المجتهدون في هذا العصر بما تقيد به الأئمة المتقدمون، زمانا وإحسانا، فلا يتناول الاجتهاد الأحكام التي ورد فيها نص قطعي الثبوت والدلالة، من الكتاب أو السنة المتواترة، ولا يمتد إلى المقدرات الشرعية الثابتة أيضا بالسنة المتواترة، إذ لا مجال للرأي في ذلك، كما لا يجوز فيما هو معلوم من الدين بالضرورة، أو كان محل إجماع سابق.

وإنما يجري العمل الاجتهادي فيما ورد فيه نص، إما ظني الثبوت والدلالة معا، وإما ظني الثبوت قطعي الدلالة، وإما قطعي الثبوت ظني الدلالة. وفي هذا المجال يكون الاجتهاد بتفسير النص وضبطه وتقوية أو ترجيح

---

36) الخطابي : غريب الحديث، القدسي : الحجة، هق : الرسالة الأشعرية.
37) عياض : الشفاء، وفي صحه نسبته كلام أيضا.
38) الشاطبي : الموافقات : 4، 41 وما يتبعها.
39) محمد علي السايس : نشأة الفقه الاجتهادي.
40) مناهج الاجتهاد : 346.

بعض احتمالاته، كما يمكن أن يجري الاجتهاد فيما لا نص فيه ولا إجماع : وفيما لم يكن معلوما من الدين بالضرورة. ومجال هذا رحب، فيسلك المجتهد فيما هذا شأنه مسلك القياس أو الاستحسان أو الاستصحاب أو نحو ذلك، مع الحرص على إناطة الأحكام بالأسباب والعلل، وعدم إغفال المقاصد الشرعية التي تحققها، والتي لابد أن تكون في المحل الأول من الاعتبار.

ومهما يكن الاجتهاد بيانيا أو قياسيا أو استصلاحيا فإن المنهج العام المعتمد فيه هو الذي دل عليه الأئمة، وفصله علماء الأصول في كتبهم. ومن ذلك ما نقله الغزالي عن الشافعي من قوله :

«إذا وقعت الواقعة للمجتهد فليعرضها على نصوص الكتاب، فإن أعوزه عرضها على الخبر المتواتر ثم الآحاد، فإن أعوزه لم يخض في القياس، بل يلتفت إلى ظواهر الكتاب، فإن وجد ظاهرا نظر في المخصصات من قياس وخبر، فإن لم يجد مخصصا حكم به، وإن لم يعثر على ظاهر من كتاب ولا سنة نظر إلى المذاهب، فإن وجدها مجمعا عليها اتبع الإجماع، وإن لم يجد إجماعا خاض في القياس. ويلاحظ القواعد الكلية أولا، ويقدمها على الجزئيات. فإن عدم قاعدة كلية نظر في المنصوص ومواقع الإجماع، فإن وجدها في معنى واحد ألحق به، وإلا انحدر به إلى القياس. فإن أعوزه تمسك بالشبه، ولا يعول على طرد»[41].

وهذا الطريق الذي حدده الأئمة والأشياخ هو المسلك الدقيق المأمون في النظر، وفي الكشف عن حكم الله في القضايا التي تعرض للمكلفين. وبقدر الالتزام به تكون الأحكام المتوصل إليها أقرب إلى الحق وإلى روح الشريعة الإسلامية السمحة. ولا يفوت الناظر في ذلك والممارس لهذا الواجب أن ينهج السابقين في احترام المبادئ العامة للشريعة السمحة، من دفع الحرج والمشقة عن الناس في الأحكام، والحرص على مراعاة مصالح العباد. قال تعالى : ﴿**وما جعل عليكم في الدين من حرج**﴾[42].

وقال عز وجل : ﴿**يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر**﴾[43].

وقال سبحانه : ﴿**يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا**﴾[44].

وقال ﷺ : «إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه»[45]، وحكم عليه السلام على من ترك العمل بالرخصة، وخاصة في وقت الحرب والشدة وقال عنهم : «أولئك العصاة أولئك العصاة»[46].

وعلل الشاطبي هذا المبدأ الإسلامي الثابت الذي بلغت الدلائل عليه وفيه حد القطع بقوله :

«فاعلم أن الحرج موضوع عن المكلف لوجهين :

أحدهما الخوف من الانقطاع عن الطريق وبغض العبادة وكراهة التكليف. وينتظم تحت هذا المعنى الخوف من إدخال الفساد عليه في جسمه أو عقله أو ماله أو حاله.

والثاني خوف التقصير عند مزاحمة الوظائف المتعلقة بالعبد المختلفة الأنواع مثل قيامه على أهله وولده إلى تكاليف أخر تأتي في الطريق. فربما كان التوغل في بعض الأعمال شاغلا عنها وقاطعا بالمكلف دونها، وربما أراد الحمل للطرفين على المبالغة في الاستقصاء فانقطع عنهما»[47].

ومن ثم حط الإثم في كثير من المخالفات، واتبعت الرخص، وعدلت الأحكام بسبب الضرورة الشرعية، والإكراه، والجهل والنسيان في بعض صورهما، وفي حالات العسر وعموم البلوى وفي حال السفر والمرض والنقص الطبيعي وحالات الدفاع الشرعي ونحوها. وكل ذلك مبحوث في كتب القواعد والنظريات وكتب الأصول. وله صور مفصلة في دواوين الفقه.

41) الغزالي المستصفى : 2، 118.
42) الحج : 78.
43) البقرة : 185.
44) النساء : 28.

45) حم، هق عن ابن عمر، طب عن ابن عباس.
46) م، ت عن جابر بن عبد الله. وجامع الأصول 7، 259.
47) الشاطبي : 2، 136.

وأما قضية مراعاة المصالح فإن سنة التشريع الإسلامي قامت عليها من الزمن الأول. فالقرآن الكريم، كما نبه على ذلك القرافي، رسم لنا تلك الخطة بالتغيير في الأحكام بالنسخ لبعضها، وبالتدرج في تشريعها، مسايرة لمصالح الناس بالأخف والأيسر عند الحاجة، أو بالانتقال إلى الأشق كذلك عند الحاجة، تثبيتا للنفوس ومقاومة لما فيها من رعونات[48].

نعم إن هنالك مصالح مهدرة وملغاة في نظر الشارع، لا عبرة لها ولا يعتد بها، ولكن منها أخرى قائمة ومعتبرة لإخلاف في مراعاتها وتقديرها. وقد فصل الكلام في هذا الشاطبي في موافقاته، عند الحديث عن مقاصد وضع الشريعة فقال :

«إن وضع الشرائع إنما هو لصالح العباد في العاجل والآجل معا»[49]. وتكاليف الشريعة ترجع إلى حفظ مقاصدها في الخلق. وهذه المقاصد لا تعدو ثلاثة أقسام : أحدها أن تكون ضرورية، والثاني أن تكون حاجية، والثالث أن تكون تحسينية»[50].

وجعل القسم الأول هو ما اعتبرته جميع الأديان مجموعا في المصالح الخمسة الضرورية وهي حفظ الدين والنفس، والنسل والمال والعقل. وقال عن هذه الخمسة : «إنه لابد منها في قيام مصالح الدين والدنيا، بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة، بل على فساد وتهارج وفوت حياة، وفي الأخرى فوت النجاة والنعيم والرجوع بالخسران المبين»[51].

ثم ذكر النوعين الآخرين وهما المصالح الحاجية والتحسينية، ورتب على الأنواع الثلاثة متممات ومكملات. وهذا المعنى هو الذي أكده ابن القيم في أعلام الموقعين. وقد كانت نظرته أشمل وتصويره أعم. فهو لم يجنح فيه إلى تقسيم المصالح المرعية إلى مراتب. وإنما قال :

«إن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد. وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها. فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور وعن الرحمة إلى ضدها وعن المصلحة إلى المفسدة وعن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة، وإن أدخلت فيها بالتأويل»[52].

وبناء على ذلك أجاز للمفتين تغيير فتاويهم عند اقتضاء المصلحة ذلك، وقال :

«إن تغير الفتوى بحسب الأمكنة والأحوال والنيات والعوائد معنى عظيم النفع جدا، وقع بسبب الجهل به غلط عظيم على الشريعة، أوجب من الحرج والمشقة ما يفيد أن هذه الشريعة لا يعقل أن تأتي به»[53].

وقد جعل القرافي جمود بعض الفقهاء على المنقولات والالتزام بها ضلالا في الدين، وجهلا بمقاصد السلف وعلماء المسلمين.

وهكذا بما قدمنا يتضح لنا أن هذه الشريعة الدائمة الخالدة تقوم على أساسين ثابتين :

أولهما : الالتزام بالكتاب والسنة وعدم الحيدة عن الأحكام الجلية الثابتة بالنصوص القطعية طريقا ودلالة، وعما أجمع عليه المسلمون. وهذا فيه من الحفاظ على الدين والوقوف عند حدوده والبعد عن الهوى والشهوة ما يمحض الأحكام للحق والعدل.

وثانيهما : التدبر في الأمور الغير التعبدية مما يتصل بالمعاملات ونحوها مما لا نص فيه. وذلك بالنظر في صورها وأحوالها وما يحقق منافع العباد ويخدم مصالحهم منها، على شرط أن يعرض الفقهاء والراسخون في معرفة الشريعة وقواعدها والبصيرون بمداركها ذلك كله على المبادئ الأساسية للدين والقواعد العامة للشريعة.

وهذا من الاجتهاد في الدين، والبصر بأحوال الناس ومتطلبات حياتهم، والانتهاء إلى ما يرضي الله من وجوه الحكم في ذلك، في الإطار الذي رسمته الشريعة، من مراعاة روح التشريع ومقاصده وحكمته وغاياته.

48) القرافي : 1، 118.
49) الشاطبي : 2، 6.
51/50) الشاطبي : 2، 8.

52) ابن القيم : أعلام 3، 3.
53) المرجع السابق.
54) الجاثية : 17 ـ 19.

ولا يكون الاجتهاد تشريعا أبدا، إن الحكم إلا لله، ولكن المجتهد في واقع الأمر، بما أوتي من دراية وخبرة بكتاب الله وسنة رسوله، يعمل على إظهار الحكم وتطبيقه باستقراء ظواهر النصوص فيما له نص، وباستكناه الدلالات ورد الأحكام إلى عللها المصرح بها أو المستنبطة. فإن لم يكن هناك نص من كتاب أو سنة حاول أن ينزل الوقائع على القواعد العامة المأخوذة من المصدرين، وأن يستعين بمذاهب الفقهاء وتخريجاتهم وما اتبعوه من مناهج وتركوه لنا من آراء وأنظار. والمجتهد بعد هذا كله أمين بين الناس، يقول عن الله ما يحسبه حقا وحكما وعدلا ودينا.

وشريعة مثل هذه توجهنا في تدبير أمورنا وحماية مصالحنا وتوفير أسباب الخير والنعمة والعزة لنا، فتكلنا إلى أنفسنا المؤمنة الموقنة بفضل ربها وحكمته الخبير العليم الرحمن الرحيم، ثم تردنا إلى كتاب الله ربنا وسنة نبيه رسولنا، ثم إلى مقاصدها وغاياتها التي تستهدفها من وراء أحكام الله التي شرعها الله لنا، لشريعة خيرة ترعى الإنسانية كلها في أمسها وغدها، وفي أي صقع أو مكان ظهر أو يظهر فيه الوجود الإنساني.

ألا لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم، ألا لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم.

﴿وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون، ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها، ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون، إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا وإنّ الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين﴾[54].

وسبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.



مخطوطات التفسير والحديث في الخزانة الكتانية

للأستاذ محمد المنوني

كان للشيخ محمد عبد الحي الكتاني ولع عظيم بجمع المخطوطات النادرة، ودراية واسعة بالمؤلفات والمؤلفين والخطوط، فجاب البلدان بحثا عن النوادر حتى تجمعت لديه مكتبة ضخمة، يوجد معظمها بالخزانة العامة بالرباط يرمز له بحرف «ك».
يسرنا أن ننشر تباعا حلقات عن محتويات هذه الخزانة من إعداد الأستاذ محمد المنوني.

المصاحف الكريمة

1 - (136 ك) **(جزء من القرآن الكريم)** تجزئة 30 يبتدئ هكذا : **﴿يهدي من يشاء إلى صرط مستقيم﴾** الآية رقم 141 من سورة البقرة، إلى أن ينتهي في نفس السورة عند الآية رقم 250.

مكتوب - على الرق - بخط أندلسي مبسوط جميل مشكول بالألوان مع تعويض الضائع منه بكتابته على الورق بخط قريب من الأصلي.

به 180 ورقة، مسطرة 5، مقياس 180/235.

2 - (145 ك) **(الربع الثالث من القرآن الكريم)** مبتور الأول والآخر، حيث يبتدئ من الآية رقم 37 من سورة مريم، وينتهي عند الآية رقم 141 من سورة «الصافات».

به 180 ورقة، مسطرة 9، مقياس 190/235.

خط مغربي مبسوط حسن ملون مذهب.

☆ ☆ ☆

التفسير وملحقاته

☆ ☆ ☆

3 - $\frac{(37 \quad ك)}{8}$ **(أخلاق حملة القرآن)**

لأبي بكر محمد بن الحسين (بن عبد الله) الآجري (الشافعي) المتوفى عام 360 هـ/970م.

وهو من راوية أبي عبد الله محمد بن خليفة البلوي عنه.

يقع في جزءين صغيرين، ويوجد ببعض أطرافه تقطيع، وأوله بعد الافتتاحية :

«أما بعد، فإني قائل وبالله واثق لتوفيق الصواب».

في مجموع من ورقة 61 ب إلى ورقة 71 ب.

مسطرة مختلفة، مقياس 155/215.

خط مغربي مجوهر جميل خال من اسم الناسخ.

وقع الفراغ من كتابته في 27 ذي الحجة عام 816 هـ.

ورد ذكره في ترجمة مؤلفه من الأعلام... للزركلي ج 6 ص 228، وبقي ذكره على كشف الظنون حسب طبعة دار السعادة.

4 - $\frac{(120 \quad ك)}{3}$ **(الكشف والبيان في تفسير القرآن)**

لأبي إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم التعلبي النيسابوري المتوفي عام 427 هـ/1035م.

الموجود : قطعة منه تبتدئ من تفسير قوله تعالى :

﴿**وإلاهكم إلاه واحد**﴾ الآية رقم 2 من سورة البقرة إلى أن يقف على تفسير : «وقال لهم نبيئهم إن آية ملكه» الآية رقم 246 من نفس السورة.

50 ورقة، مسطرة 24، مقياس 215/275.

خط مغربي لابأس به، ملون، خال من تاريخ النسخ واسم الناسخ. ورد ذكره في الأعلام للزركلي عند ترجمة المؤلف ج 1 ص 205 ـ 206.

5 - (16 ك) **رسالة في البسملة**

لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري (القرطبي المالكي) المتوفي عام 463 هـ/1071م.

أولها : «الحمد لله رب العالمين الذي جعل العلم نورا للمهتدين»

غير تامة الكتابة، وتقع في مجموع من ص 412 إلى ص 425، مسطرة 22، مقياس 155/205.

خط مغربي حسن سريع.

طبعت هذه الرسالة بمصر.

ووردت ترجمة المؤلف في «الأعلام» للزركلي ج 9 ص 316 ـ 317.

6 - $\frac{(65 \quad ك)}{6}$ **حرز الأماني ووجه التهاني**

وهي المعروفة بالشاطبية. لأبي محمد قاسم بن فيرة بن خلف الرعيني الشاطبي المتوفي عام 590 هـ/1194م.

قصيدة من بحر الطويل، ومطلعها : بدأت ببسم الله في النظم أولا...

في مجموع من ورقة 98 ب إلى ورقة 23 ب، مسطرة 25، مقياس 110/145.

خط مغربي حسن ملون مجدول، خال من تاريخ النسخ واسم الناسخ.

ورد ذكرها في كشف الظنون ج 1 ص 428، وفي معجم سركيس ص 9، 10، وتوجد ترجمة الناظم في الأعلام للزركلي ج 6 ص 14.

7 - $\frac{(65 \quad ك)}{7}$ **عقيلة أتراب القصائد في أسنى المقاصد**

للشاطبي المتقدم : (6).

وهي الشهيرة بالرائية، نظم فيها المقنع للدالي في أبيات 298 من بحر البسيط، ومطلعها :

الحمد لله موصولا كما أمرا...

في مجموع من ورقة 24 أب إلى ورقة 131 أ.

مسطرة 25، مقياس 110/145.

خط مغربي حسن ملون مجدول خال من تاريخ النسخ واسم الناسخ.

ورد ذكرها في كشف الظنون ج 2 ص 128، وفي معجم سركيس ص 1092.

8 - (131 ك)/11 **مفتاح الباب المقفل، لفهم القرآن المنزل**

لأبي الحسن علي (بن أحمد بن الحسن) الحرالي التجيبي (المراكشي المتوفي بحماة) عام 638 هـ/1241 هـ.

أوله : «الحمد لله أهل الحمد...».

في مجموع من ص 1 إلى ص 82، مسطرة 21، مقياس 135/170.

خط شرقي نسخي دقيق مدموج ملون خال من تاريخ التأليف والنسخ واسم الناسخ.

ورد ذكره في ترجمة مؤلفه في الأعلام للزركلي ج 5 ص 62.

9 - (37 ك)/1 مكرر **كتاب التبيان في آداب حملة القرآن :**

لأبي زكرياء يحيى بن شرف بن مرى الحرامي (الحوراني) المعروف بالنووي المتوفي عام 676 هـ/1277م.

مبتور الآخر، وأوله : «الحمد لله الكريم المنان...» في محفظة من ورقة 1 إلى ورقة 25، مسطرة 25، مقياس 155/215.

خط مغربي مجوهر جميل من طراز خطاطة أوائل القرن 8 هـ.

ذكره سركيس في معجمه ص 1877 وتوجد ترجمة المؤلف في الأعلام للزركلي ج 9 ص 184 - 185.

10 - (131 ك)/2 **البرهان في ترتيب سور القرآن**

لأبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي العاصي الجياني ثم الغرناطي، المتوفي عام 708 هـ/1308 هـ، وهو مبتور الآخر عند سورة القمر.

أوله : «الحمد لله الحكيم العليم، العلي العظيم». في مجموع من ص 83 إلى 169، مسطرة 21، مقياس 135/170.

خط شرقي نسخي دقيق مدموج ملون.

ورد ذكره في كشف الظنون ج 1 ص 195، باسم **البرهان في تناسب سور القرآن**، وتوجد ترجمة المؤلف في معجم المؤلفين ج 1 ص 138.

11 - (65 ك)/4 **مورد الظمآن في رسم أحرف القرآن**

لأبي عبد الله محمد بن محمد بن إبراهيم الأموي الشريشي الشهير بالخراز المتوفي بفاس عام 718 هـ/1318م.

أرجوزة مطلعها :

الحمد لله العظيم المنن.

ومرسل الرسل بأهدى سنن.

في مجموع من ورقة 79 ب إلى ورقة 91 ب، مسطرة 25. مقياس 10/145.

خط مغربي حسن ملون مجدول خال من تاريخ النسخ واسم الناسخ.

انظر في ترجمة الناظم «سلوة الأنفاس» ج 2 ص 114 - 115.

12 - (65 ك)/5 **الدرر اللوامع في أصل مقرا الإمام نافع**

لأبي الحسن علي (بن محمد بن علي) بن برى (الرباطي التازي) المتوفي عام 730 هـ/1330م.

منظومة من بحر الرجز في أبيات 242، ومطلعها :

الحمد لله الذي أورثنا

كتابه وعلمه علمنا

في مجموع من ورقة 92 أ إلى ورقة 97 أ، مسطرة 25، مقياس 110/145.

خط مغربي حسن ملون مجدول خال من تاريخ النسخ واسم الناسخ.

توجد ترجمة الناظم في الأعلام 156/5...

13 - (175 ك) **فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب**

وهو اسم حاشية على الكشاف للزمخشري - تأليف شرف

الدين الحسين بن محمد بن عبد الله الطيبي المتوفي عام 743 هـ/1342م.

الموجود منه : الربع الأخير مبتور الأول، ويبتدئ من آخر سورة «الصافات إلى النهاية.

158 ورقة مسطرة 33، مقياس 230/285.

خط شرقي نسخي سريع حسن مجدول عار عن تاريخ التأليف.

وقع الفراغ من كتابته أوائل جمادى الآخرة عام 941 هـ، على يد محمد بن.... (؟).

14 - (65 ك)/3 **المقدمة الجزرية**

لأبي عبد الله محمد بن محمد (بن علي العمري الدمشقي ثم الشيرازي الشافعي) الشهير بابن الجزري المتوفي عام 833 هـ/1429م

مطلعها : «الحمد لله وصلى الله على نبيه ومصطفاه».

في مجموع من ورقة 77 ب إلى ورقة 79 ب مسطرة 25، مقياس 110/145.

خط مغربي حسن ملون مجدول خال من تاريخ النسخ واسم الناسخ

ورد ذكرها في معجم سركيس ص 63، وتوجد ترجمة الناظم في الأعلام للزركلي ج 7 ص 274 - 275.

15 - (16 ك)/13 **حاشية على تفسير القرآن الكريم للبيضاوي**

لم يذكر اسم مؤلفها وإنما كتب عليها أنها لكمال باشا، وقد يكون هذا هو كمال الدين محمد بن محمد بن أبي شريف المقدسي المتوفي عام 906 هـ/1501، فقد ذكره في كشف الظنون ممن علق على هذا - التفسير ج 1 ص 66الموجود النصف الأول منها بأوله بياض يسير، ويبتدئ هكذا : السورة طائفة مترجمة أقلها ثلاث آيات...

في مجموع من ص 259 إلى ص 411، مسطرة 25، مقياس 155/205.

خط شرقي مليح دقيق ملون خال من تاريخ النسخ واسم الناسخ.

راجع ترجمة ابن أبي شريف في الأعلام للزركلي ج 1 ص 130.

16 - (127) **تفسير الجلالين**

لجلال الدين عبد الرحمان بن أبي بكر السيوطي الخيضري الشافعي، المتوفي عام 911 هـ/1505م.

مع جلال الدين محمد بن أحمد بن محمد المحلي الشافعي، المتوفي عام 884 هـ/1459م.

فسر الأول القرآن الكريم من أول سورة البقرة إلى آخر سورة الإسراء، وكمل به تفسير الجلال المحلي الذي يبتدئ من أول سورة الكهف إلى آخر القرآن الكريم بإضافة تفسير سورة الفاتحة.

أوله : «الحمد لله حمدا موافيا لنعمه».

220 ورقة، مسطرة 29، مقياس 170/250.

خط شرقي نسخي حسن ملون خال من تاريخ التأليف والنسخ واسم الناسخ.

أورده سركيس في معجمه ع 1078 و1623.

17 - (73 ك) **حاشية على تفسير القرآن الكريم للبيضاوي**

تأليف (سعد الله بن عيسى أفندي التركي) الشهير بسعدي المتوفي عام 945 هـ/1538م.

من أول سورة النبأ إلى الآخر. وأولها بعد البسملة : سورة النبأ وتسمى سورة : «عم يتساءلون...».

في مجموع من ورقة 73 ب إلى ورقة 138 أ، مسطرة 21، مقياس 130/250.

خط شرقي نسخي حسن ملون، مهمش بتعاليق.

وقع الفراغ من تأليفه يوم الأربعاء 5 جمادى الأولى عام 944 هـ. ومن انتساخه بعد عصر يوم الأحد 6 حجة عام 1109 هـ على يد مصطفى بن حسن المدعو بكاتب زاده.

انظر كشف الظنون... ج 1 ص 165 مع معجم المؤلفين ج 4 ص 216.

18 - (176 ك) **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**

لأبي السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي التركي المتوفي عام 982 1574م.

الموجود منه النصف الثاني ابتداء من أول سورة الإسراء إلى النهاية.

354 ورقة، مسطرة 35، مقياس 205/300.

وقع الفراغ من تأليفه ليلة الجمعة الأولى من شهر رجب عام 973 هـ، ومن انتساخه صبيحة يوم الخميس 23 رجب عام 1010 هـ، على يد عبد الله بن محمد بن محمد الدلبشاني المصري الشافعي.

أورده سركيس في معجمه ع 316.

كتاب غريب اللغة الواردة في القرآن

لأبي عمران موسى بن محمد بن محمد بن يوسف القليبي المالكي.

مرتب على الحروف حسب الاصطلاح المشرقي، يتخلله بترفي وسطه، ويقف الموجود منه أثناء حرف الميم.

أوله : «الحمد لله الذي أنزل كتابه بلسان العرب...» في مجموع من ص 172 إلى ص 230، مسطرة 23، مقياس 150/200.

خط شرقي حسن، ملون خال من تاريخ التأليف والنسخ واسم الناسخ.

ترجم في شجرة النور الزكية ص 305 لأبي عمران موسى القليوبي المصري، وأشار إلى أنه في الآخذين عن أبي الحسن على الأجهوري، ومن أساتذة أبي سالم العياشي، وقال إنه لم يقف على وفاته، فهل يكون هذا هو المؤلف ؟ غير بعيد أن يكون لقبه العائلي تعرض إلى التصحيف.

القصيدة الدالية

لأبي عبد الله محمد بن مبارك بن أحمد بن أبي القاسم السجلماسي المغراوي السرغيني ثم الفاسي المتوفى عام 1092 هـ/1681م.

وهي من بحر البسيط في أبيات 142، ومطلعها :

حمدا لمن حفظ القرآن للأبد. مهلا لذوي التجويد والسند.

في مجموع من ورقة 131 ب إلى ورقة 134 ب، مسطرة 25، مقياس 110/145.

خط مغربي حسن ملون مجدول، عار عن تاريخ النسخ واسم الناس.

ورد ذكرها في ترجمة مقصدها من سلوة الأنفاس ج 2 ص 88 - 89.

21 - (64 ك)/6 **تعليقات على الكشف والبيان. في تفسير القرآن**

من جمع أبي محمد عبد القادر بن أبي القاسم العراقي الحسيني الفاسي المتوفي في عام 1313 هـ.

جمعها من طرر جده أبي العلاء إدريس (بن محمد إدريس) العراقي (الحسيني الفاسي) المتوفي عام 1183 هـ. وزاد عليها، وهي غير تامة.

أولها : «الحمد لله رب العالمين... وبعد فالغرض جمع طرر...».

في محفظة من ورقات 175 - 180، مسطرة مختلفة، مقياس 190/240.

مكتوبة بخط جامعها : وهو خط مغربي مليح ملون يتخلله الضرب والألحاق.

22 - (73)/1 **حاشية على أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي**

مؤلفها غير مذكور.

من أول سورة النبأ إلى الآخر، وأولها بعد البسملة :

قوله أصله عن ما فحذف الألف حذفا كثيرا...

في مجموع من ورقة 1 أ إلى ورقة 72 أ، مسطرة 21، مقياس 130/250.

خط شرقي نسخي حسن ملون مهمش بتعاليق، وخال من تاريخ التأليف والنسخ واسم الناسخ.

الحديث الشريف وملحقاته

23 - (95 ك)/1 **الجامع الصحيح**

لمحمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، المتوفي عام 256 هـ. 870 هـ.

نسخة تامة في مجلدة تبتدئ بعد الترجمة الأولى هكذا :

أخبرنا الفقيه الحافظ أبو علي حسين بن محمد ابن فيارة الصدفي...

ص 677، مسطرة 36، مقياس 180/235.

خط مغربي مدموج مليح ملون مجدول خال من اسم الناسخ، ومقابل من أصل تونسي صحيح.

وقع الفراغ من انتساخه في أواسط ذى الحجة عام 1127 هـ.

ورد ذكر هذه النسخة في دراسة عن المخطوطات التونسية بالمغرب... مجلة المغرب، العدد 6 ـ 7، مزدوج.

أورده سركيس في معجمه ع 534 وما بعده.

راجع عن ترجمة البخاري وبعض مراجعها : الأعلام للزركلي ج 6 ص 258.

نسخة أخرى منه

24 ـ (147 ك) الموجود منها : السفر الأول مبتور الآخر. حيث ينتهي آخر باب رفع الناس أيديهم مع الإمام.

وأوله : باب كيف كان بدء الوحي.

103 ورقة مسطرة مختلفة، مقياس 180/265.

خط شرقي جيد واضح مصحح مشكول، متمم في بعض المواضع ـ بخط مغربي حسن به تصحيف، وهو خال من تاريخ النسخ واسم الناسخ.

25 ـ (116 ك) **نسخة أخرى منه**

الموجود السفر الأول مبتور الآخر، ويقف أوائل كتاب اللقطة...

أوله : كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ

مجلد عريض به 114 ورقة، مسطرة 20 مقياس 365/270.

خط مغربي مجوهر دقيق في غير التراجم ملون مهمش بتعاليق، وخال من تاريخ النسخ واسم الناسخ.

26 ـ (123 ك) **نسخة أخرى منه**

الموجود قطعة من أوله يتخللها بتر، وتبتدئ قبيل كتاب الإيمان، وتنتهي أثناء كتاب التيمم.

بها 100 ورقة، مسطرة 15، مقياس 185/260.

خط مغربي يميل للمبسوط جيد ملون عتيق

27 ـ (168 ك) **نسخة أخرى منه**

الموجود منه النصف الثاني، ويبتدئ عند سورة الأنفال من كتاب التفسير.

به 575 ص، مسطرة 29، مقياس 225/320.

خط مغربي مستحسن مشكول ملون مجدول.

وقع الفراغ من انتساخه عام 1198 هـ على يد ابن حرازم برادة.

28 ـ (84 ك) **نسخة أخرى منه**

الموجود منه مجلد واحد وهو الثالث الذي يبتدئ من كتاب المغازي وينتهي آخر كتاب العقيقة.

به 370 ص، مسطرة 25، مقياس 183/270.

خط شرقي حسن ملون مصحح وخال من تاريخ النسخ واسم الناسخ.

مصدر بسماع في أوله بخط شرقي.

29 ـ (93 ك) **نسخة أخرى منه**

الموجود : السفر الثالث من تجزئة أربعة.

أوله : باب من أراد غزوة فورى بغيرها... وينتهي آخر حديث الإفك.

به 367 ص، مسطرة 21، مقياس 190/270.

خط شرقي حسن واضح ملون مصحح خال من اسم الناسخ.

وقع الفراغ من كتابته في 17 ربيع الآخر عام 789 هـ.

30 ـ (141 ك) **نسخة أخرى منه**

الموجود السفر الرابع من تجزئة ثمانية.

يبتدئ عند أول باب الكذب في الحرب، وينتهي آخر باب عدة أصحاب بدر.

به 464، مسطرة 15، مقياس 185/215.

خط مغربي مليح ملون مجدول خال من تاريخ النسخ، على يد عبد النبي بن عبد الرحمن المجذوب بن عبد الحفيظ الفاسي.

31 ـ (198 ك) **نسخة أخرى منه**

الموجود قطعة منه وتبتدئ من أول كتاب الفرائض إلى أوائل «باب العين الجارية في المنام» من «كتاب التعبير».

في محفظة من ص 1 إلى ص 148، مسطرة 15، مقياس 140/195.

خط مغربي مليح ملون مصحح مقابل خال من تاريخ النسخ واسم الناسخ

32 ـ (20 ك) **نسخة أخرى منه**

الموجود الجزء الثامن من تجزئة عشرة، ويبتدئ من باب : هل يرجع إذا رأى منكرا في الدعوة، وينتهي آخر باب : الاستلقاء ووضع الرجل على الأخرى حيث يقف على كتاب الأدب.

به 129 ورقة، مسطرة 20، مقياس 170/220.

خط مغربي مستحسن ملون خال من تاريخ النسخ واسم الناسخ.

33 ـ (98 ك) **نسخة أخرى منه**

الموجود الربع الأخير في مجلد يبتدئ بكتاب المرضى : باب ما جاء في كفارة المرض.

به 95 ورقة، مسطرة مختلفة : 36 ـ 39، مقياس 240/330

خط مغربي مجوهر حسن ملون مجدول مهمش بتعاليق، وخال في تاريخ النسخ واسم الناسخ.

34 ـ (158 ك) **السنن**

لأبي داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق الأزدي السجستاني، المتوفى عام 275 هـ = 989م.

رواية ابن داسة وابن الأعرابي والرملي.

مجلد منها مبتور الآخر يبتدئ من : باب التخلي عند قضاء الحاجة، وينتهي أثناء موضوع : قتل الخوارج.

190 ورقة، مسطرة 33، مقياس 260 / 195.

خط أندلسي دقيق حسن ملون عتيق عليه سماع. وخال من تاريخ النسخ واسم الناسخ.

أوردها سركيس في معجمه ع 309 ـ 310، وتوجد ترجمة أبي داود ومراجعها في الأعلام ج 3 ص 182.

35 ـ (174 ك) **نوادر الأصول في معرفة أخبار الرسول ﷺ**

لأبي عبد الله محمد بن علي بن الحسن بن بشر الحكيم الترمذي المتوفى عام 320 هـ = 932م.

يقف الموجود منه عند الأصل 129).

أوله ـ بعد ذكر السند إلى المؤلف ـ «حدثنا أبو رجاء قتيبة... عن أبي هريرة قال لدغت عقرب رجلا...»

به 302 ص، مسطرة 30، مقياس 260 = 200.

خط مغربي حسن ملون خال من تاريخ التأليف والنسخ واسم الناسخ.

أورده سركيس في معجمه ع 633.

36 ـ (17 ك) **الاستذكار لمذاهب علماء الأمصار فيما تضمنه الموطأ من معاني الرأي والآثار.**

لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي المالكي، المتوفي عام 463 هـ / 1071م.

الموجود منه السبع الثالث مبتور الأول، ويبتدئ أثناء باب غسل المحرم وأوله هكذا : وفيه استتار الغاسل عند الغسل، ومعلوم أن الذي يستره بالثوب...

به 82 ص، مسطرة 26، مقياس 255 / 185.

خط أندلسي مليح عتيق خال من تاريخ النسخ واسم الناسخ.

ورد ذكره في ترجمة مؤلفه من الأعلام للزركلي ج 9 ص 316 ـ 317.

37 ـ (38 ك)/4 **(الأربعون للودعاني)**

وهو القاضي أبو نصر محمد بن علي بن عبيد الله بن ودعان الموصلي المتوفي عام 494 هـ / 1101م.

أولها : حدثنا... أبو الطاهر... السلفي... قال قرأت على

القاضي أبي نصر... ابن ودعا...
في مجموع من ص 192 إلى 210 مسطرة 21 مقياس 227 / 190.

خط مغربي وسط ملون خال من تاريخ النسخ واسم الناسخ.
ورد ذكره في كشف الظنون ج 1 ص 81. وانظر عن ترجمة المؤلف الزركلي في الأعلام ج 7 ص 163.

38 - (82 ك) **(شرح مشكل الصحيحين)**

(لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي) المتوفى عام 597 هـ / 1201م.
مبتور الطرفين، ويبتدئ أوائل مبحث كشف المشكل.
أثناء الحديث 14، ويقف أوائل الحديث 11 في مبحث أفراد البخاري.
به بعض تخليط، ويشتمل على 282 ص، مسطرة 25، مقياس 250 / 220 خط أندلسي حسن واضح.
ورد ذكره في ترجمة المؤلف من الأعلام للزركلي ج 4 ص 89 / 90.

39 - (195 ك) **الأربعين المروية بالأسانيد المصرية**

لأبي الحسين يحيى بن علي بن عبد الله الأموي النابلسي ثم المصري المعروف بالرشيد العطار، والمتوفى عام 662 هـ / 1264م.
مبتور الطرفين، ويقع في سفر يشتمل على الجزأين الأول والثاني. ويبتدئ الأول عند آخر الحديث الخامس، وينتهي الثاني أثناء خاتمة الكتاب الذي يتخلله بتر في الجزءين معا.
أول الموجود منه... وفي الحديث الحض على السحور، وقد اتفق الفقهاء على أن السحور مندوب إليه...
به 58 ص، مسطرة 15، مقياس 213 / 170.

خط أندلسي عتيق جيد يميل للمبسوط، مكتوب بمحلول السواك على ورق ثخين، وهو خال من تاريخ التأليف والنسخ واسم الناسخ.

40 - $\frac{(37 \text{ ك})}{6}$ **الأربعون حديثا النووية**

لأبي زكرياء النووي المتقدم عند رقم 9.
أولها : الحمد لله رب العالمين، قيوم السماوات والأرضين.
في مجموع من ورقة 48 ب إلى ورقة 53 أ، مسطرة 25، مقياس 215 / 155

خط مغربي مجوهر جميل خال من تاريخ النسخ واسم الناسخ.
أوردها سركيس في معجمه ع 1876.

41 - $\frac{(37 \text{ ك})}{2}$ **(المنهل الروي في الحديث النبوي)**

(لبدر الدين محمد بن ابراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني الحموي الشافعي) المتوفي عام 733 هـ / 1333م.
لخصه من علوم الحديث... لابن الصلاح، وزاد عليه ورتبه على مقدمة وأربعة أطراف.

مبتور الأول، ويبتدئ الموجود منه أثناء الطرف الأول.
في مجموع من ورقة 26 إلى ورقة 40 ب، مسطرة 38، مقياس 215 / 155.
خط مغربي مجوهر مدموج.
وقع الفراغ من نسخه في يوم الأحد 21 جمادى الثانية عام 811 هـ. على يد أحمد بن أحمد بن أحمد ؟
ورد ذكره في كشف الظنون ج 2 ص 557، وتوجد ترجمة المؤلف في الأعلام للزركلي ج 6 ص 188 / 189.

42 - $\frac{(91 \text{ ك})}{2}$ **إحياء القلب الميت بدخول البيت**

لأبي الفضل عبد الرحيم بن الحسين (بن عبد الرحمن الكردي العراقي ثم المصري الشافعي) المتوفي عام 806 هـ / 1404م.
أوله : «الحمد لله الذي من دخل بيته خرج من ذنوبه»...
في مجموع من ص 32 إلى ص 69، مسطرة 19، مقياس 205 / 160.

خط تونسي لابأس به ملون، مذيل بنسخة من سماع الكتاب على مؤلفه.

لاذكر للكتاب في كشف الظنون ولا في ترجمة مؤلفه من الأعلام، للزركلي ج 4 ص 119.

43 - (91 ك)/4 **جواب في نقد أبيات في الجانب النبوي**

لأبي الفضل العراقي المتقدم عند رقم 42.

أوله : الحمد لله أتم الحمد...

في مجموع من ص 92 إلى ص 138، مسطرة 19، مقياس 205 / 160.

خط تونسي لا بأس به ملون مذيل بنسخة من سماع الكتاب على مؤلفه.

44 - (91 ك)/5 **جواب في حديث الفطرة**

لأبي الفضل العراقي المتقدم عند رقم 42.

أوله : الحمد لله أتم حمده...

في مجموع من ص 140 إلى ص 147، مسطرة 19، مقياس 205 / 160.

خط تونسي لا بأس به ملون مذيل بنسخ من سماعات للكتاب على مؤلفه.

45 - (91 ك)/6 **جواب في شأن الميزان يوم القيامة وهل توزن في أعمال الأنبياء والأولياء**

لأبي الفضل العراقي المتقدم عند رقم 42 - غير تام.

أوله : الحمد لله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان.

في مجموع من ص 150 إلى ص 158. مسطرة 19، مقياس 205 / 160.

خط تونسي لابأس به ملون.

46 - (91 ك)/7 **قطعة من أمالي حديثية**

لأبي الفضل العراقي المتقدم عند رقم 42، وهي مبتورة الأول وغير تامة.

أول الموجود منها : حكى ابن أبي كثير عن أبي سلمة...

في مجموع من ص 159 إلى ص 169، مسطرة 19 مقياس 205 / 160.

47 - (179 ك)/1 **فتح الباري بشرح البخاري**

لأبي الفضل أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني المصري الشافعي، المعروف بابن حجر، والمتوفى عام 852 هـ / 1449م.

الموجود منه : المجلد الثاني الذي يبتدئ من باب فضل صلاة الفجر في جماعة.

به 273 ورقة، مسطرة مختلفة، مقياس 340 / 230.

خطوط مغربية متفاوتة في الحسن ملونة وخالية من تاريخ النسخ واسم الناسخ.

أورد سركيس في معجمه ع 81، وتوجد ترجمة المؤلف ومراجعها في الأعلام للزركلي ج 1 ص 173 / 174.

48 - (26 ك) **فتح الباري بشرح البخاري**

(لأبي الفضل أحمد بن علي بن محمد الكناني) العسقلاني (المصري الشافعي) المعروف بابن حجر، المتقدم عند رقم 47.

الموجود منه الجزء السادس من تجزئة 11، يبتدئ بقصة دوس والطفيل، وينتهي آخر كتاب فضائل القرآن.

به 258 ورقم مسطرة 35. 275 / 190.

خط مشرقي نسخي لابأس به ملون.

49 - (203 ك) **إيضاح البرهان : في الثناء على السلطان**

تأليف علم الدين (صالح بن عمر بن رسلان البلقيني القاهري الشافعي) المتوفي عام 868 هـ / 1464م.

أوله : الحمد لله الذي فتح أبواب السعد... في مجموع من ورقة 1 ب، إلى ورقة 5 أ. مسطرة 21، مقياس 135/175.

خط شرقي نسخي مليح ملون خال من تاريخ التأليف.

وقع الفراغ من انتساخه يوم الثلاثاء 12 رمضان عام

859 هـ على يد أبي بكر بن أحمد بن إبراهيم بن محمد بن محمد بن عمر بن فلاح.

لاذكر له في كشف الظنون ولا في ترجمة مؤلفه من «معجم المؤلفين» ج 5 ص 9.

50 - (38 ك)/3 **الأنوار المضيئة الجامعة بين الشريعة والحقيقة**

لأبي زيد عبد الرحمن بن محمد (بن مخلوف)، الثعالبي الجزائري المتوفي عام 875 هـ / 1470م.

لخص فيها تعليق أبي عبد الله محمد السلفي الشافعي على الأربعين حديثا التي انتخبها زكي الدين عبد العظيم المنذري مع زيادات عليها.

أولها : الحمد لله الذي نور قلوب أوليائه بأنوار..

في مجموع من ص 165 إلى ص 191، مسطرة 21 مقياس 227 / 190.

خط مغربي وسط ملون خال من تاريخ النسخ واسم الناسخ.

راجع ترجمة المؤلف في الأعلام «للزركلي ج 4 ص 107 / 108.

51 - (100 ك) **حاشية على جامع الصحيح للبخاري**

لأبي عبد الله محمد بن قاسم الأنصاري التونسي الشهير بالرصاع، المتوفى عام 894 هـ ب 1479م.

اختصر فيها فتح الباري لابن حجر العسقلاني.

الموجود جزء منها مبتور الطرفين يبتدئ أثناء كتاب اللباس، إلى أول كتاب الأيمان والنذور، ويبتدي هكذا :

رأى على عمر ثوبا جديدا فقال البس جديدا...

216 ص، مسطرة 25، مقياس 295 / 220.

خط تونسي يميل للمغربي مستحسن سريع خال من تاريخ التأليف والنسخ - واسم الناسخ. يتخلله بياض.

ببعض هوامشه بلاغات بقراءته على المؤلف الذي يوجد خطه على هذه النسخة.

ورد ذكره في شجرة النور الزكية في ترجمة المؤلف ص 259 / 260.

52 - (177 ك)/1 **الجامع الكبير**

لجلال الدين السيوطي المتقدم عند رقم 16.

الموجود منه السفر الثاني مبتور الأول، وهو يشتمل على بقية المحلى بالألف واللام من حرف الألف، ثم بقية الحروف إلى أثناء حرف الميم حسب الترتيب الهجائي المشرقي، وأول حديث فيه :

الحق مع ذا الحق..

160 ورقة، مسطرة مختلفة، مقياس 300 / 205.

خط مغربي مليح واضح ملون مصحح، خال من تاريخ النسخ واسم الناسخ الذي هو عبد الله بن الحافظ أبي العلاء العراقي الفاسي،

انظر عن الجامع الكبير ومؤلفه : فهرس الفهارس ج 2 ص 352 / 361.

53 - (94 ك) **الجامع الصغير من حديث البشير النذير**

لجلال الدين السيوطي المتقدم عند رقم 16.

أوله : «الحمد لله الذي بعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها»...

به 295 ص، 33، مقياس 305 / 225.

خط شرقي حسن ملون مهمش بخط المرتضى الزبيدي، ومسموع عليه.

وقع الفراغ من تأليفه يوم الاثنين 27 ربيع الأول عام 897 هـ. ومن انتساخه نهار الأربعاء آخر ربيع الثاني عام 1051 هـ، على يد محمد بن المُلاَّ حسين الحموي أصلا، الحنفي مذهبا.

ورد ذكره في معجم سركيس ع 1078.

54 - (37 ك)/1 **كتاب الطرثوث في خبر البرغوث**

لجلال الدين السيوطي المتقدم عند رقم 16، وأوله بعد البسملة : الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفي.

يقع أول محفظة في ست صفحات، مسطرة مختلفة، مقياس 215 / 155.

خط شرقي نسخي به تلوين خال من تاريخ التأليف والنسخ واسم الناسخ.

ورد ذكره في «كشف الظنون» ج 2 ص 98 باسم «الطرثوت في فوائد البرغوث».

55 - (43 ك)/3 «إرشاد اللبيب إلى مقاصد حديث الحبيب»

لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن علي بن غازي المكناسي نزيل فاس، المتوفي بها عام 919 هـ / 1513 هـ.

علق به على صحيح البخاري، به بتر بين ص 117 وص 118.

وأوله : الحمد لله الذي أنعم علينا بملة الإسلام...

في محفظة من ص 39 إلى ص 222، مسطرة 18، مقياس 215 / 160.

خط مغربي مجوهر مستحسن ملون ضاع منه تاريخ النسخ، على يد ناسخه محمد الرتوت اليجمي التطاوني.

وقع الفراغ من تأليفه في منتصف صفر عام 914 هـ.

ورد ذكره في ترجمة ابن غازي من فهرس الفهاري ج 2 ص 256 / 257.

56 - (115 ك) الكوكب الساري في اختصار البخاري

لأبي عبد الله محمد بن عيسى بن عبد الله بن أبي علي منصور بن حرزوز المكناسي من أهل المائة 10 هـ.

به 300 ص، مسطرة 27، مقياس 340 / 230.

خط مغربي يميل للإدماج مستحسن ملون خال من تاريخ التأليف.

وقع الفراغ من انتساخه في أوائل جمادى الثانية عام 1267 هـ. على يد محمد بن محمد الخالدي الحسني القجيجي منشأ المكناسي استيطانا.

ورد ذكره في إتحاف أعلام الناس «أثناء ترجمة مقتضبة للمؤلف ج 3 ص 597.

57 - (150 ك)/1 المجالس السنية في الكلام على الأربعين النووية

تأليف الشيخ أحمد بن حجازي الشافعي، كان بقيد الحياة عام 978 هـ / 1570م.

يقف الموجود منها آخر المجلس 13، وأوله : الحمد لله الذي وفقنا لأداء أفضل الطاعات...

في مجموع من ص 1، إلى ص 74، مسطرة 25، مقياس 200 / 150.

خط مغربي متوسط ملون خال من تاريخ التأليف والنسخ واسم الناسخ.

أورها سركيس في معجمه ع 1453.

58 - (88 ك)/I جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد

لأبي عبد الله محمد بن محمد بن سليمان (بن الفاسي اسا بن طاهر السوسي الروداني) المالكي دفين دمشق المتوفي عام 1094 هـ / 1683م.

جمع فيه بين جامع الأصول لأبي السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري الموصلي ومجمع الزوائد لأبي الحسن علي بن أبي بكر الهيثمي مع زيادات عليهما.

الموجود منه الجزء الأول وأوله : «يارب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك...»

به 199 ورقة، مسطرة 27، مقياس 225 / 160.

خط مغربي لابأس به مدموج ملون خال من اسم الناسخ.

وقع الفراغ من كتابته عصر يوم الثلاثاء 16 جمادى الأولى عام 1217 هـ في رباط العجم بالمدينة المنورة.

ورد ذكره في ترجمة المؤلف من فهرس الفهارس ج 1 ص 317 ب 321، وهو منشور.

59 - (1 ك)/9 مائة حديث في الترغيب في اصطناع المعروف

لأبي عبد الله محمد بن محمد بن سليمان (السوسي الروداني المتقدم عند رقم 58.

ذكرها محذوفة الأسانيد سوى الحديث الأول والثاني فقد أثبت سنده فيهما، وأولها :

الحمد لله الذي هو بالمعروف موصوف...

في مجموع من ص 213 إلى ص 227، مسطرة مختلفة، مقياس 205 / 155.

خط مغربي مليح مدموج متمم بخط شرقي لأبأس به خال من تاريخ التأليف والنسخ.

60 - $\frac{(191 \text{ ك})}{II}$ **شرح الموطأ للإمام مالك بن أنس**

لأبي عبد الله بن محمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني المصري المالكي،المتوفي عام 1122 هـ / 1710م.

الموجود منه السفر الثاني ابتداء من كتاب الزكاة إلى أواخر «جامع الحج» حيث وقع فيه تبر.

به 242 ورقة، مسطرة مختلفة، مقياس 215 / 160.

خط شرقي مستحسن ملون خال من تاريخ التأليف والنسخ واسم الناسخ، ويتخلله الضرب والإلحاق حيث إنه خط المؤلف.

أورده سركيس في معجمه ع 967. وتوجد ترجمته المؤلف في الإصلاح ج 77 ص 55.

61 - $\frac{(105 \text{ ك})}{1}$ **القول العلى لشرح أثر الإمام علي**

لأبي عبد الله محمد بن أحمد (بن سالم بن سليمان) السفاريني (النابلسي) الحنبلي المتوفي عام 1188 هـ / 1774م.

أوله : الحمد لله الذي أمتن على حملة العلم بالفضل...

في مجموع من ص 1 إلى ص 117، مسطرة 23، مقياس 2201 / 170.

خط شرقي مستحسن ملون خال من تاريخ النسخ، ومكتوب من خط المؤلف على يد محمد بن خليل.

ورد ذكره في ترجمة المؤلف من فهرس الفهارس ج 2 ص 346 / 348.

62 - (89 ك) **نيل الأوطار من أسرار منتقى الأخبار**

لأبي عبد الله محمد بن علي بن محمد الشوكاني اليمني المتوفى عام 1250 هـ / 1834م.

الموجود منه المجلد الأول، أوله : أحمدك يامن شرح صدورنا بنيل الأوطار.

به 725 ص، مسطرة 33، مقياس 320 / 230.

خط شرقي مليح ملون مهمش بالحاقات بعضها بخط المؤلف الذي كتب بهامش الصفحة الأخيرة أنه فرغ من تخريجه ليلة الثلاثاء 6 رمضان عام 1213 هـ.

ورد ذكره عند سركيس في معجمه ع 1161، وتوجد ترجمة المؤلف في الأعلام للزركلي ج 7 ص 190 / 191.

63 - (126 ك) **شرح صحيح البخاري**

لأبي عبد الله محمد بن أحمد أجمي السوسي التيوتي الروداني (ثم المراكشي) المتوفي بعد عام 1290 هـ / 1873 / 74.

الموجود منه الجزء الثالث الذي يبتدئ من باب من قام في جنازة يهودي، إلى نهاية باب متى يحل المعتمر.

به 318 ص، مسطرة مختلفة، مقياس 340 / 240.

خط مغربي سوسي متوسط، خال من تاريخ التأليف والنسخ واسم الناسخ الذي هو المؤلف نفسه، حيث يتخلل الكتابة التشطيب والإلحاق.

في «خلال جزولة» ج 3 ص 214 وردت ترجمة قصيرة، للمؤلف.

64 - $\frac{(183 \text{ ك})}{1}$ **بشارة تسر الناظرين على حديث لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين.**

لأبي عبد الله محمد المدعو «ماني» بن محمد الصنهاجي الفاسي، المتوفي عام 1333 هـ / 1915م.

الموجود قطعة من أوله يتخللها بياض، وأوله : الحمد لله... وبعد فهذه بشارة تسر الناظرين...

في محفظة من ص 1 إلى ص 22، مسطرة 20، مقياس 230 / 175.

خط مغربي جميل ملون خال من تاريخ النسخ واسم الناسخ.

وردت ترجمة المؤلف في معجم الشيوخ للفاسي ج 2 ص 41 / 44.

65 - $\frac{(183 \quad ك)}{2}$ **بشارة تسر الناظرين، على حديث لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين.**

لمحمد ماني الصنهاجي المتقدم عند رقم 64.

أوله : الحمد لله... وبعد فهذه بشارة تسر الناظرين...

في محفظة من ص 23 إلى ص 119، مسطرة مختلفة، مقياس 230 / 180.

خط مغربي مدموج مليح ملون يتخلله التشطيب والإلحاق حيث أنه خط المؤلف نفسه.

وقع الفراغ من تأليفه وانتساخه بعد عصر الجمعة 22 رمضان المعظم عام 1308 هـ.

66 - (31 ك) **رياض النفس في اختصار كتاب الفردوس،**

مؤلفه غير مذكور.

وهو مختصر من «مسند الفردوس» لأبي نصر الديلمي، وقف المكتوب منه عند مسانيد أنس.

في مجموع من ص 1 إلى ص 37، مسطرة 24، مقياس 169/210.

خط مغربي متوسط ملون.

انظر عن «مسند الفردوس»، «كشف الظنون» 434/2.

67 - (59 ك) **سوط الأقدار المسبل على كشف الأستار...**

مؤلفه غير مذكور.

رد فيه على «رسالة كشف الأستار المسبلة وتبيين الأوهام المسلسلة الواقعة في الرحمة المرسلة في شأن حديث البسملة»، المنشورة تحت اسم مستعار، وهو غير تام التأليف :

أوله : الحمد لله... أما بعد فإن لشيخنا حجة الإسلام.

به 29 ورقة، مسطرة مختلفة مقياس 240 / 180.

خط مغربي مليح سريع، يتخلله الضرب والإلحاق، وهو خط أبي عبد الله محمد عبد الحي الكتاني.



موقف الموحدين من كتب الفروع وحمل الناس على المذهب الحزمي

للأستاذ سعيد أعراب

اختلفت آراء المؤرخين قديما وحديثا في موقف الموحدين من كتب الفروع - عندما صادروها وأمروا بإحراقها ونبذها...

فمنهم من رأى أنهم أرادوا الرجوع بالناس إلى العمل بالكتاب والسنة.

ومنهم من ذهب إلى أن غرضهم كان محو مذهب مالك، وحمل الفقهاء - بالقوة - على مذهب ابن حزم الظاهري.

وهذا نص جديد في الموضوع، أورده البرزلي في نوازله[1]، ونقله عنه عليش في فتاويه[2]، واختصره أبو رأس المعسكري في «الخبر المعرب»[3].

ولطوله نجزئه إلى الفقرات التالية :

1 - كان عبد المومن أول من حارب كتب الفروع، وناصب الفقهاء العداء :

(..ولما أن اطمأنت بالأمير عبد المومن - الدار، جمع الفقهاء إما لاختيار مذهبهم، أو حملهم على مذهب ابن حزم[4]. فقام على رأسه كاتبه ووزيره أبو جعفر ابن عطية، فخطب خطبة مختصرة؛ ثم رد رأسه إلى الفقهاء، وقال لهم : بلغ سيدنا أن قوما من أولي العلم، تركوا كتاب الله، وسنة رسوله - عليه الصلاة والسلام، وصاروا يحكمون بين الناس، ويفتون بهذه الفروع والمسائل التي لا أصل لها في الشرع - أو كلاما هذا معناه -؛ وقد أمر أن من فعل ذلك بعد هذا اليوم، ونظر في شيء من الفروع والمسائل؛ عوقب العقاب الشديد، وفعل به كذا وكذا - وسكت؛ ورفع الأمير عبد المومن رأسه إليه وأشار عليه بالجلوس فجلس، وقال : سمعتم ما قال ؟ فقال له الطلبة : نعم.

2 - نقده لكتاب المدونة :

قال : وسمعنا أن عند القوم تأليفا من هذه الفروع، يسمونه الكتاب - يعني المدونة -؛ وأنهم إذا قال لهم قائل مسألة من السنة - ولم تكن فيه، أو مخالفة له؛ قالوا : ما هذا في الكتاب، أو ما هو مذهب الكتاب؛ - وليس ثمة كتاب يرجع إليه، إلا كتاب الله تعالى، وسنة رسوله -

1) توجد أجزاء منها مخطوطة بالقرويين، وبالخزانة الحسنية، وليس ثمة نسخة كاملة - فيما نعلم.
وقد اختصرها أبو العباس الونشريسي في مجلد، انظر الخزانة العامة بالرباط رقم (1447)، ورقم (2198) - حرف دال، والخزانة الحسنية رقم (9843).

2) انظر «فتح العلي المالك، في الفتوى على مذهب مالك» ج 1/ 90 - 91.

3) انظر مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم (2263 - ك).

4) تردد صاحب النص، بينما القرائن تدل على أنه أراد حملهم على المذهب الحزمي - على ما سنبين ذلك بعد.

ﷺ؛ قال : وأرعد وأبرق في التخويف والتحذير من النظر في هذه الكتب ـ والفقهاء سكوت !.

3 ـ تلميحه إلى مذهب ابن حزم الظاهري :

ثم قال : ومن العجب أنهم يقولون أقوالا برأيهم ـ وليست من الشرع، أو قال من الدين؛ فيقولون : من طرأ عليه خلل في صلاته، يعيد في الوقت، ويتحكمون في دين الله ـ تعالى ـ لأنها إما صحيحة فلا إعادة، وإما باطلة فيعيد أبدا، فيا ليت شعري من أين أخذوه ! ـ فصمت القوم ولم يجبه أحد، لحدة الأمر والإنكار !.

4 ـ معارضة الفقهاء لعبد المومن ودفاعهم عن المذهب المالكي :

قال ابن زرقون ـ وهو رأس فقهاء وقته[5] ـ : فحملتني الغيرة على أن تكلمت، وتلطفت في الكلام لهم، وأن الله ـ تعالى ـ أحيا بهم الحق وأهله، وأمات الباطل وأهله.. وقلت : إن أذن لي في الجواب، تكلمت وأديت نصيحتي ـ وهي السنة، فقال لي ـ كالمنكر عليّ ـ وهي السنة ـ أيضا ـ وكررها ؟!..

فقلت : ثبت في الصحيح أن رجلا دخل على رسول الله ـ ﷺ ـ فصلى، ثم جاء وسلم عليه؛ فرد عليه وقال : ارجع فصلِّ، فإنك لم تصل؛ حتى فعل ذلك ثلاث مرات، ثم قال له : والذي بعثك بالحق، ما أحسن غير هذا فعلمني؛ فقال ـ ﷺ ـ : إذا افتتحت الصلاة.. ـ إلى آخر الحديث.

فأمره بإعادة الوقتية، ولم يأمره بإعادة ما خرج وقته من الصلوات؛ فعلى هذا بنى الفقهاء أمرهم فيمن دخل عليه خلل في الصلاة..

قال : فلما أصغى إليّ، اتسع لي القول فقلت يا سيدي، جميع ما في الكتاب ـ يعني المدونة ـ مبنيّ على الكتاب والسنة، وأقوال السلف، والإجماع؛ وإنما اختصره الفقهاء ـ تقريبا ـ لمن ينظر فيه من المتعلمين والطالبين؛ فانطلقت ألسنة الفقهاء الحاضرين حينئذ، ووافقوني على ما قلت؛ ثم دعا فقال : اللهم وفقنا يا رب العالمين، وقام إلى منزله؛ فقال الوزير (ابن عطية) : أقدمت على سيدنا ـ اليوم ـ يا فقيه، فقلت : لو سكت، للحقتني عقوبة الله ـ تعالى؛ قال ابن زرقون : فكنت أدخل بعد ذلك على عبد المومن، فأرى منه البر التام والتكرمة.

5 ـ حمل يعقوب المنصور الناس على مذهب ابن حزم، ومعارضة الفقهاء له :

قال صاحب النص : ثم سكنت الحال بعد ذلك حتى جاءت أيام حفيده الأمير يعقوب، فأراد حمل الناس على كتب ابن حزم، فعارضه فقهاء وقته ـ وفيهم أبو يحيى ابن المواق ـ وكان أعلمهم بالحديث والمسائل[6]؛ فلما سمع ذلك، لزم داره وعارض، وأكبّ على جمع المسائل المنتقدة على ابن حزم حتى أتمّها ـ وكان لا يغيب عنه؛ فلما أتمّها، جاء إليه، فسأله عن حاله وغيبته ـ وكان ذا جلالة عنده، وبارا به، فقال له : يا سيدي كنت في خدمتكم، لما سمعتكم

5) هو أبو عبد الله محمد بن سعيد بن زرقون الأنصاري، من أهل اشبيلية، أحد سروات الرجال، كان مسندا عالي الرواية، حافظا للفقه مبرزا فيه، عارفا بالكتاب والسنة، تولى قضاء شلب وسبتة، فحمدت سيرته ونزاهته.
ومن تآليفه : «كتاب الأنوار، في الجمع بين المنتقى والاستذكار»، والجمع بين صحيح الترمذي وسنن أبي داود».
رحل الناس للأخذ عنه والسماع منه لعلو روايته، (ت 586 هـ). انظر التكملة 616/2 ـ 617، طبع مصر والذيل والتكملة 303/6 ـ 208 والديباج 260/2 الطبعة الثانية.

6) كنيته أبو يحيى، واسمه أبو بكر بن خلف الأنصاري، وتصحف في كثير من المصادر بيحيى، ويعرف بالمواق أو ابن المواق، فقيه مستبحر، من أهل قرطبة، سكن فاس، وكان حافظا حافلا في علم الفقه والخلاف فيه؛ ملازما للتدريس، تام النظر، لا يدانيه أحد في ذلك، له كتابات في المكاييل والأوزان، عُني بالحديث على جهة التفقه والتعليل، والبحث عن الأسانيد والرجال والزيادات، وما يعارض أو يعاضد؛ قال فيه أبو العباس الونشريسي : بأنه آخر المجتهدين بفاس.
وقد حظي بخدمة يعقوب المنصور، فنال دنيا عريضة، وولي قضاء فاس، وبها توفي سنة (599 هـ).
انظر التكملة 211/1، وجذوة الاقتباس 10/1 ـ 13. وسلوة الأنفاس 124/1، وإيضاح المسالك ص 325.

تذكرون حمل الناس على كتب ابن حزم - وفيها أشياء أعيذكم بالله من حمل الناس عليها - وأخرجت له دفترا (كتابا)؛ فلما أخذه الأمير، جعل يقرأه ويقول : أعوذ بالله أن أحمل أمة محمد - ﷺ - على هذا ! - وأثنى على ابن المواق..).

☆ ☆ ☆

استنتاجات من النص :

ويمكن أن نستنتج من النص ما يلي :

1 - كان عبد المومن أول من حارب كتب الفروع، وشدّد على الفقهاء في ذلك، ويشهد للنص ما ذكره ابن أبي زرع في القرطاس، قال : لما دخلت سنة (550 هـ) أمر أمير المومنين عبد المومن بتحريق كتب الفروع، ورد الناس إلى قراءة الحديث، وكتب بذلك إلى جميع طلبة المغرب والعدوة[7]؛ وتبعه على ذلك صاحب الاستقصا[8].

2 - وأنه كان يرمي من وراء ذلك - إلى حمل الناس على مذهب ابن حزم الظاهري، ودليلنا على ذلك : أن المسألة التي تذرع بها للطعن في مذهب مالك، هي من صميم فقه ابن حزم، وقد أوردها في كتابه «المحلى»[9]، وبالغ في الرد على مالك.

فعبد المومن - هنا - كان يتكلم بلسان ابن حزم - وهو يعتقد أن المالكية لا حجة لهم : (فيا ليت شعري من أين أخذوه ؟!).

والمسألة التي طعن فيها ابن حزم، ذكرها سحنون في المدونة، وعنونها بباب (ما تعاد منه الصلاة في الوقت)[10].

قال : وقال مالك : من صلى - ومعه جلد ميتة لم يدبغ، أو شيء من لحوم الميتة أو عظامها؛ قال : يعيد الصلاة في الوقت، فإن مضى الوقت لم يعد[11].

ولم يذكر سحنون الحجة في ذلك من الكتاب أو السنة، ولذا طعن فيها ابن حزم، وقال : إنها لا أصل لها في الشرع، وخطأ مالكا، وقال : إن الصلاة إما أن لا تعاد، فهي صحيحة - ولا معنى لإعادتها؛ وإما أن تعاد أبدا، لأنها باطلة؛ أما أن تعاد في الوقت ولا تعاد إذا خرج وقتها، فهذا مما لا دليل له في الشرع - وأطال في ذلك[12]؛ وهو نفس الأسلوب الذي احتج به عبد المومن، وحاول إفحام الفقهاء المالكية بذلك.

3 - يبدو من معارضة ابن زرقون لعبد المومن، واحتجاجه لمذهب مالك، أن فقهاء المالكية لهذا العهد - وهم خريجو «المدرسة المرابطية» - كانوا إلى جانب ثقافتهم الواسعة في الفقه المالكي - متمكنين من السنة، عارفين بأسرارها وأحكامها؛ فابن زرقون - وهو رأس الفقهاء - لما احتج عليه عبد المومن بمسألة إعادة الصلاة في الوقت التي لا يقول بها المذهب الحزمي، لم يعدم الحجة من السنة الصحيحة لما ذهب إليه مالك؛ وهو استنباط دقيق، لا يدركه إلا الصفوة المختارة من أئمة التشريع.

والحديث أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما، وذكر الحافظ ابن حجر في «الفتح» - أن من فوائده : وجوب الإعادة على من أخلّ بشيء من واجبات الصلاة[13].

ونقل عن ابن الجوزي أن ترديده (أي المسيء في صلاتها) لتفخيم الأمر وتعظيمه عليه، ورأى أن الوقت لم يفته[14].

ونجد من طراز ابن زرقون - في هذا العهد - أمثال : أبي القاسم السهيلي (ت 581 هـ)، وأبي محمد عبد الحق الاشبيلي (ت 582 هـ)، وأبي القاسم ابن حبيش (ت 584 هـ)، وأبي بكر بن الجد (ت 586 هـ)، وأبي الحسن بن كوثر (ت 589 هـ) وأبي عبد الله بن الفخار

7) انظر ج 154/2 - طبع الرباط.
8) انظر ج 112/2 - الطبعة الثانية.
9) انظر ج 150/3 - مطبعة الامام - القاهرة.
10) انظر ج 91/1 - طبع دار صادر.
11) المرجع السابق.
12) انظر المحلى ج 150/3.
13) انظر فتح الباري ج 224/2.
14) نفس المصدر.

(ت 590 هـ)، وأبي محمد الحجري السبتي (591 هـ)، وأبي الوليد ابن رشد الحفيد (ت 595 هـ)، وأبي العباس أحمد بن سلمة الأنصاري المعروف بالصيقل (ت 598 هـ)، وأبي يحيى ابن المواق (ت 599 هـ)، وسواهم كثير.

4 ـ قد نفهم من عبارة النص (ثم سكنت الحال بعد ذلك حتى جاءت أيام حفيده يعقوب) ـ أن الحملة الشعواء التي شنها عبد المومن ضد المذهب المالكي، قد هدأت بعدما قام الفقهاء قومة رجل واحد، وفنّدوا ـ بالحجة والبرهان ـ مزاعم أولئك الذين طعنوا في مذهب إمام دار الهجرة؛ فيكون تراجع عبد المومن عن اقتناع، لا عن ظروف سياسية ـ كما قد يتبادر إلى الذهن.

ويشير النص كذلك إلى أن هذا الهدوء ربما خيم حتى على عهد ولده أبي يعقوب، لكن قد يعكر علينا ما أورده صاحب المعجب في قصة أبي يعقوب مع أبي بكر ابن الجد ـ حين دخل عليه لأول مرة ـ فقال له : يا أبا بكر أنا أنظر في هذه الآراء المتشعبة التي أحدثت في دين الله، أرأيت ـ يا أبا بكر ـ المسألة فيها أربعة أقوال، أو خمسة أقوال، أو أكثر من هذا؛ فأي هذه الأقوال هو الحق ؟ وأيها يجب أن يأخذ به المقلد ؟ فافتتحت أبين ما أشكل عليه من ذلك، فقال لي ـ وقطع كلامي ـ : يا أبا بكر، ليس إلا هذا ـ وأشار إلى المصحف، أو هذا ـ وأشار إلى كتاب سنن أبي داود ـ وكان عن يمينه، أو السيف[15] !.

5 ـ أما يعقوب المنصور، فيذكر النص أنه صارح الفقهاء بحمل الناس على مذهب ابن حزم الظاهري؛ ويؤيده ما في المعجب للمراكشي[16]، وبيوتات فاس الكبرى لابن الأحمر[17]، والقوانين لابن جُزي[18]، والاعتصام للشاطبي[19]، والديباج لابن فرحون[20]، والنفح للمقّري[21]، والرد على من يقبض لابن خضراء[22]. على أن أبا يحيى ابن المواق لم يختص بالرد على ابن حزم، بل كتب في ذلك جماعة، منهم : أبو الحسين ابن زرقون صاحب كتاب «المصلى، في الرد على المحلى والمجلى»[23] ـ وهما كتابان لابن حزم.

6 ـ يبدو من قولة المنصور ـ عندما أطلعه ابن المواق على ما في كتب ابن حزم من عوّار وطوام ـ : (أعوذ بالله أن أحمل أمة محمد ـ ﷺ ـ على هذا..!) ـ أنه تراجع عن مذهبه الحزمي، ولا نستغرب هذا من يعقوب الذي كان يتمتع بحصافة العقل، وحرية الفكر، والإطلاع الواسع على الشريعة الإسلامية ودقائقها؛ وهو الذي نبذ المهدوية نبذ النواة، وأشهد على نفسه أن يتبرأ من العصمة لأي بشر ـ غير الأنبياء والرسل ـ عليهم الصلاة والسلام، ويعني بذلك عصمة المهدي إمام الموحدين.

وهذا يجعلنا ننساق إلى القول بأنه كان من أئمة الاجتهاد، حريصا على العمل بالكتاب والسنة، لا يقلد أي مذهب من المذاهب، وأن الفقهاء ـ على عهده ـ كانوا لا يفتون إلا بالكتاب والسنة النبوية، ولا يقلدون أحدا من الأئمة المجتهدين، بأن تكون أحكامهم بما يؤدي إليه اجتهادهم من استنباطهم القضايا من الكتاب، والحديث، والإجماع، والقياس[24].

وإذا جاز لنا أن نقول في حديث : (إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها) ـ بأن المراد بالتجديد : إحياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسنة، والأمر بمقتضاهما ـ كما يذكر العلقمي[25]؛ فينبغي أن نصنف يعقوب المنصور الموحدي ـ في المجددين لهذا الدين على رأس المائة السادسة للهجرة؛ وربما كان له عذره

---

15) انظر ص 279 ـ طبع مصر.
16) انظر ص 279.
17) انظر ص 19 ـ طبع دار المنصور ـ الرباط.
18) انظر ص 309 ـ طبع الرباط.
19) أنظر ج 171/1 ـ طبع مصطفى محمد/ مصر.
20) انظر ترجمة أبي الحسين بن زرقون ج 260/2 ـ نشر دار التراث.
21) انظر ج 102/3 ـ تحقيق احسان عباس.
22) انظر مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم (1724 ـ د).
23) انظر التكملة لابن الابار ج 616/2 ـ طبع مصر.
24) انظر الناصري، الاستقصا 177/2 ـ 179.
25) انظر الجامع الصغير بشرح فيض القدير للمناوي ج 281/2.

في القـــوة على بعض الفقهـــاء، أمثـــال أبي الحسين ابن زرقون (ت 621 هـ)[26]، وأبي محمد ابن محمد بن خلف التجيبي (ت 594 هـ)[27]، وأبي بكر الجيباني الذي توفى من جراء المحن بالسجن عام (596 هـ)[28].

ومهما يكن، فإن دعوة الموحدين إلى العمل بالكتاب والسنة، كانت تجربة رائدة، فريدة في تاريخ الإسلام - بعد الخلفاء الراشدين، وما أجدر المسلمين - اليوم أن يحذوا حذوها، وينهجوا نهجها؛ وقد قال عليه السلام : «تركت فيكم أمرين، لن تضلوا ما تمسكتم بهما، كتاب الله وسنتي».

والله الموفق، والهادي إلى أقوم طريق.

---

26) أنظر التكملة 616/2، والديباج 260/2 ـ الطبعة الثانية
27) أنظر التكملة 557/2 ـ 558.
28) أنظر محمد ملين، عصر المنصور الموحدي ص 334.

مَعَ الموريسكيين في بلاد الغربة

للأستاذ محمد محيي الدين المشرفي

ما إن أطلت سنة 1492 على سماء الأندلس حتى كانت الأوضاع قد تضعضعت فيها إلى الدرجة القصوى التي تبعث حقا على الخوف والانزعاج، وأصاب المسلمين هناك من تفرق كلمة وتصدع صف ما أصبحوا معه لا يأنفون أحياناً من التحالف مع النصارى أعدائهم ضد طائفة أخرى من المسلمين محافظة على مصالحهم الخاصة، دونما إدراك لما قد تجره عليهم مثل تلك التحالفات من متاعب حقيقية، لن تنتهي - لو كانوا يعلمون - إلا بأوخم العواقب عليهم وعلى الأمة الإسلامية جميعا. قال تعالى في كتابه العزيز كأنه يصف ما آلت إليه أحوالهم من تمزق وتصدع وهو أصدق القائلين :

﴿بأسهم بينهم شديد، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى﴾.

أو كما قال الشاعر في حقهم :

وتفرقــوا شيعـــــا فكـــل مـــدينـــــة

فيهــــــــا أمير المـــــــؤمنين ومنبر

في تلك الأثناء كان «فرديناند»، ملك «أراجون» و«إيزابيلا» صاحبة «قشتالة» يسعيان ما استطاعا إلى ذلك سبيلا في استخلاص ما تبقى بأيدي المسلمين من مدن وقرى، ما زال المؤمنون يغشون مساجدها في كل وقت ترتيلا لكتاب الله العزيز وقياما بشعائر دينه الحنيف، وراح المسيحيون يحتلون تلك المدن الواحدة بعد الأخرى حتى وصلوا إلى أبواب غرناطة الحمراء مع بزوغ سنة 1492؛ واضطر المسلمون إلى مغادرة وطنهم العزيز، وتركوا غرناطة الحمراء يبكون كالنساء وطنا عزيزاً غاليا لم يحسنوا الدفاع عنه دفاع الرجال؛ وهكذا توجهوا في مواكب يخفرها التمزق والألم إلى جهات مختلفة من المشرق والمغرب... وكان في طليعة هذا الموكب الحزين أبو عبد الله محمد بن الأحمر، آخر ملوك المسلمين بالأندلس، الذي غادر بلده عبوراً من قرية عذرة في اتجاهه لبلاد المغرب[2].

وكانت هناك طائفة أخرى من هؤلاء المغتربين قد فضلوا البقاء بالأندلس اعتبارا للوعود التي أعطاها إياهم

---

1) الموريسكيون (Morisques) هم النصارى الذين تدينوا بدين الإسلام عن رضى وطيب خاطر، بعد دخول العرب إلى الأندلس؛ فلما تغلب المسيحيون على المسلمين وأرادوا إعادتهم إلى ملتهم الأولى فضلوا الهجرة إلى بلاد الإسلام بالمشرق والمغرب؛ أما كلمة مستعرب (Mozarabe) فكانت تطلق على المسيحيين الذين كانوا يعيشون تحت سلطة المسلمين، وكانوا مع ذلك يستعملون اللغة العربية عن جميع شؤونهم العادية؛ هذا وكانت كلمة مُدجّن (Mudejar) تطلق على المسلمين الذين كانوا يعيشون تحت نفوذ المسيحيين.

2) يقول المؤرخ الشهير شكيب أرسلان في الحلل السندسية (الجزء الأول، ص 121) حول قرية عذرة ما يلي : «من البيرة إلى قرية عذرة 12 ميلاً؛ وقرية عذرة مدينة صغيرة لا سوق لها، وبها الحمام والفندق؛ هذه القرية هي المرسى الذي ركب منه أبو عبد الله محمد بن الأحمر آخر ملوك المسلمين في الأندلس قاصدا المغرب؛ فرسا به السفين بمرسى مليلية.

«فرديناند» و«إيزابيلا» من أنهما سيضمنان للذين آثروا البقاء في الجزيرة ممارسة شعائرهم الدينية بكل حرية، كما أنهما تعهدا لهم أمام الملإ بحق التصرف في ممتلكاتهم، لا يخشون في ذلك تعسفا ولا ظلما من أحد... إلا أنه لم يمض على تلك الوعود الكاذبة إلا زمن يسير حتى تبدلت الأشياء غير الأشياء، وذلك بتدخل من أرباب الكنيسة، حيث سمح «فرديناند» لنفسه بالضغط على جماعة المسلمين ليحملهم على اعتناق المسيحية أو يتركوا الأندلس طوعاً أو كرها في أقرب الآجال؛ ثم حرم عليهم التمادي في اتخاذ شعارات المسلمين كلباس وغيره، أو التحدث باللغة العربية؛ وبعد ذلك بقليل صدرت إليهم الأوامر بأن يتركوا أبواب منازلهم مفتوحة في الليل والنهار حتى يكون حرس البلدة عليهم شهيدا، بحيث يستطيع ضبط أولائك الذين يتظاهرون منهم بالمسيحية بينما هم يباشرون طقوس الدين الإسلامي سرّاً داخل بيوتهم... وهكذا عاشت طائفة الموريسكيين عيشة شظف وعناء؛ ولم تلبث الكنيسة بأمر من رئيسها البغيض المدعو «كسيمينس» (XIMÈNES) أن شرعت في تعذيب هؤلاء المغتربين حتى إذا بلغ بهم العذاب حدّا لا يطاق، والمغرب آنذاك يحاول ما استطاع إمدادهم بالمؤن والعتاد الحربي، انفجروا كالبركان في ثورة عارمة ضارية، لاتبقي ولا تذر، دفاعا عن حقهم في الحياة، وذلك على يد بطل من أبطال الجزيرة الأبرار، يدعى محمد بن أمية، خلّد التاريخ اسمه مع الخالدين لأنه كان يعتقد أن الموت في ساحة القتال هو خير مصير يلقاه المؤمن الصادق، وأمام هذه الأحداث البطولية الدامية لم تزدد الكنيسة بالطبع إلا عناداً وإصراراً على التنكيل بالمسلمين، وأخيرا صدر في حقهم ذلك القرار المنتظر بنفيهم عن الوطن الحبيب... فاضطروا هم الآخرون إلى مغادرة أرض الجزيرة في مواكب باكية إلى الله شاكية، وذلك سنة 1609م. وتفرقوا شذر مذر، كما تفرقت كلمتهم من قبل وراحت هباء مع الرياح الأربع؛ منهم من توجه إلى فرنسا حيث منحهم ملكها هنري الرابع (HENRI IV) حق الاستيطان على شرط أن يتمسكوا بالديانة المسيحية، وإلا رخص لهم في التوجه إلى أرض إسلامية يختارون الالتجاء إليها؛ واتجهت طائفة أخرى إلى إيطاليا ومنها إلى القسطنطينية أو إلى مصر؛ وبلغ السلطان أحمد ما أصاب الكثيرين منهم من الأذى وهم بفرنسا، خصوصا بعد موت ملكها هنري الرابع؛ فكتب إلى الملكة «ماري دي ميديسيس» (MARIE DE MÉDICIS) الوصية على العرش من قبل ولدها «لويس الثالث عشر» يحتج احتجاجاً قويا على تلك المعاملة السيئة، ويسألها حماية أولائك المنفيين؛ بينما اتجهت وفود عديدة من المهاجرين إلى المغرب الأقصى أو الجزائر وتونس، وقد عقدوا النية على الانسجام مع إخوانهم في الدين والانصهار داخل ذلك المجتمع الإسلامي الجديد بالنسبة إليهم.

والواقع أن معظم هؤلاء المهاجرين وجدوا كل عناية وترحيب في كل مكان نزلوا به؛ إلا أن أحدهم، وكانت الأقدار قد دفعت به إلى الاستقرار بتونس شعر بنوع من الحرج والامتعاض لدى نزوله وسط المجموعة التونسية التي اختار الإقامة بين ظهرانها؛ ونجد صدى لهذه التصرفات التي يشتكي منها صاحبها في مخطوطة لها قيمة تاريخية تذكر، هي التي دفعت بنا إلى الاطلاع عليها وتقديم نصها الكامل إلى القراء الذين تهمهم بالدرجة الأولى مأساة الأندلس الأليمة، كما تهمهم يقينا مأساة فلسطين التي نعتبرها بحق ذيلا من ذيول الحروب الصليبية الماضية والمخطوط المشار إليه يوجد بالخزانة العامة بالرباط، مسجلا تحت رقم (ك 1238) : وهو تأليف أحد الأندلسيين الذين غادروا بلدهم وعيونهم تدمع وتبكي، اسمه محمد بن عبد الرفيع الحسيني؛ ويشتمل هذا الكتاب على 363 صفحة من الحجم الكبير؛ وفي سبب تأليف الكتاب يقول المؤلف :

«وبعد، فيقول العبد إلى الله، الغني به عن سواه، محمد بن عبد الرفيع بن محمد الشريف الحسيني الجعفري المرسي الأندلسي، ثاب الله عليه، وغفر له ولوالديه، ومشايخه، وأحبائه لديه، آمين. وقد سألني أخي في الله وصاحبي الشريف الحسيب أبو الحسن علي النوالي المدعو بالسراج، حققني الله وإياه بحقيقة الإيمان، وأبان لي وله معالم التبيان، أن أجمع له ورقات في ذكر نسب سيد أهل أهل الأرض والسماوات، وأذكر فيها شيئا مما يتعلق بتعريف

رجال هذا النسب الشريف، أصحاب الاصطفاء والقدر المنيف، ليوافق ما هو موضوع عنه في الشجرة التي بيده منوخة بخطي من النسخة الأصلية ويكون ضبطا أيضا للشجرتين الشريفتين المتصلتين بها، شجرتي الإمامين الفاضلين الجليلين مولانا أبي محمد الحسن ومولاي أبي عبد الله الحسين، رضي الله تعالى عنهما، وعن والديهما، آمين. فأجبت سؤاله بعد الاستخارة وسميته تبركا كما سماه ما كتب لي وحدثني إجازة بلفظه شيخنا جمال الدين، وبعثه بخطه من القيروان فيما بين سنة تسع عشرة وألف وعشرين وألف **«بالرياض الأنيقة في آباء خير الخليقة»**، وسميته أيضا لنفسي بكتاب **«الأنوار النبوية في آباء خير البرية»**، ﷺ؛ والله أسأل في الإعانة، وعليه أتكل سبحانه؛ وينحصر الكلام فيه في ثمانية فصول وخاتمة :[3]

- **الفصل الأول :** في ذكر العرب الذين هم أصل هذا البيت الشريف خصوصاً قريش ومضر وكنانة؛

- **الفصل الثاني :** في طهارة أصله الشريف وبيان بعض قدره المنيف؛

- **الفصل الثالث :** في ذكر النسب الكريم من مبداه إلى منتهاه؛

- **الفصل الرابع :** في ذكر شيء من تعريف رجال هذا النسب الشريف وضبط ما استعجم من أسمائهم؛

- **الفصل الخامس :** في ذكر نسب أصحابه العشرة، رضي الله عنهم المشهود لهم بالجنة وأين يلتقي كل واحد منهم معه ﷺ في نسبه الشريف؛

- **الفصل السادس :** في ذكر شيء مما قيل في إيمان آبائه الكرام عليهم الصلاة والسلام؛

- **الفصل السابع :** في ذكر العقب من بعض أولاد مولانا الإمام أبي عبد الله الحسين رضي الله عنه.

والله سبحانه وتعالى يوفقنا لما يحبه ويرضاه ويرزقنا - جلّ وعزّ - دنيا وأخرى فضله ورضاه».

وبعد ذلك يتطرق المؤلف إلى تفصيل كل من الأبواب السابقة مركّزا حديثه على ما جاء في كتاب الله العزيز وحديث رسوله الكريم كقوله : «إن الله تعالى تخيّر العرب من خلقه وتخير رسول الله ﷺ منهم»؛ وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «خلق الله الخلق، فاختار من الخلق بني آدم، واختار من بني آدم العرب، واختار من العرب مضر، واختار من مضر قريشا، واختار من قريش بني هاشم، واختارني من بني هاشم، فأنا خيار من خيار: فمن أحب العرب، فبحبي أحبهم، ومن أبغض العرب فببغضي أبغضهم»؛ رواه الطبراني والحاكم والبيهقي وأبو نعيم.

والكتاب كله على هذا النسق من الوضوح والبيان، يحمل في طيّه الدليل على ما يكنه المؤلف من محبة صادقة لآل البيت جميعا وإعجاب لا نهاية له بنبل الأسرة النبوية الكريمة؛ ثم يختتم كتابه بقوله :

«وقد وقع الفراغ من جمعه وتحرير فصوله وكتبه عيشة يوم الجمعة الزهراء، بحضرة تونس العلية الخضراء، سادس شعبان المعظم الكريم من عام أربعة وأربعين وألف هجرة صاحب الفضل العميم، فصلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه وآل بيته أجمعين، صلاة وسلاما دائمين متعاقبين إلى يوم الدين، على يد جامعة وكاتبه العبد إلى الله محمد الرفيعي الشريف الجعفري الأندلسي المرسي الأشعري المالكي الغوثي طريقة ومذهباً واعتقادا ومولداً، وبأحد الحرمين الشريفين إن شاء الله مدفنا، آمين آمين آمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».

وعلّق عليه بعضهم بقوله : «توفي مؤلفه يوم الإثنين لثلاثة مضين من شهر الله رجب الحرام عام اثنين وخمسين وألف.[4]

3) هذه الخاتمة تكتسي أهمية كبرى من الوجهة التاريخية لأنها تصف لنا الأحوال المزرية التي كان المسلمون يعيشونها في جزيرة الأندلس أواخر القرن السادس عشر الميلادي كما تعطينا الدليل القاطع على تمسك المسلمين بدينهم الحنيف وممارسة شعائرهم خفية وعلانية حتى ولو أدى بهم ذلك إلى أنواع من التعذيب والتنكيل.

4) إذا ما فرضنا أن المؤلف عندما أدركته الوفاة سنة 1052 كان قد بلغ 62 سنة من عمره، وهي مدة معقولة بالنسبة لامتداد أعمار الناس في ذلك الزمان، استنتجنا أيضاً أن ازدياد المؤلف كان سنة 990 هـ وأن لدى مغادرته للأندلس كان ابن ثلاثين عاماً.

ويبدو أن صاحب هذا الكتاب نزح مع من غادروا بلاد الأندلس في أوائل القرن السابع عشر الميلادي عندما تكالب النصارى على من آثر البقاء في الجزيرة من العرب المسلمين حتى ضاقت بهم الأرض بما رحبت؛ فاضطروا إلى الهجرة، والتحقوا بالذين سبقوهم إلى جهات مختلفة من بلاد المغرب؛

ورمت الأقدار بصاحبنا إلى تونس حيث كان يرجو عناية وتقديراً من لدن جماعة المسلمين هناك، فلم يتلق إلا عبارات التعيير والنقد نظراً لما كان أهل تونس يلاحظونه على تلك الجماعة المشردة من لكنة في الحديث أو اختلاف طفيف في كيفية أدائهم لشعائرهم الدينية؛ ومن ثم راحوا ينعتونهم بالتقصير، ويكثرون عليهم من الإنكار نتيجة اختلاطهم ـ على ما يظهر ـ لمدة طويلة بجماعة النصارى في جزيرة الأندلس، وليس من الغريب أن يتألم صاحبنا ألما شديداً لما كان يسمعه من نقد وتحقير وهو الشريف الأصيل المسلم المتمسك بحبل الله المتين؛ والواقع أنه لو كان غير هدى من أمر ربه لما تعرض للنكبة التي حملته مع جماعة المغتربين إلى مغادرة وطنه الحبيب... ملتجئا بدينه إلى قطر مسلم كان من المتوقع أن يضمد جروحه ويواسيه.

ومن هنا وجد المؤلف نفسه مضطرا إلى وضع خاتمة للكتاب غايتها الردّ على الانتقادات الموجهة إليه ولجماعة المهاجرين، مقدما لكل من كان يسمع ويرى الحجة على أنهم كانوا ولا يزالون على المبدإ ثابتين، قوامين بالقسط، متحملين في ذلك كله أنواع التنكيل والتعذيب إلى أن قضى الله بخروجهم من الجزيرة،وكان وعد الله مأتيا. ومن أجل هذا نرى المؤلف يئن ويشتكي في خلاصة الكتاب، فيقول :

«قد كثر الإنكار علينا معشر أشراف الأندلس من كثيرين من إخواننا في الله بهذه الديار الإفريقية من التونسيين وغيرهم ـ حفظهم الله تعالى ـ بقولهم : من أين لهم الشرف وقد كانو ببلد الكفّار، دمرهم الله ! ولهم مئون من السنين كذا وكذا، ولم يبق فيهم من يعرف ذلك من مدة الإسلام؛ وقد اختلطوا مع النصارى ـ أبعدهم الله تعالى ! ـ إلى غير ذلك من الكلام الذي لانطيل به، ولا أذكره هنا صونا لعرضهم وحبي فيهم: فأقول، وبالله التوفيق، والهادي إلى أقوم طريق».

وبعد هذه المقدمة التي يبدو من خلالها ما كان يحس به المؤلف من مرارة وغبن وامتعاض لما كان يسمعه من منتقديه يتعرض لذكر ما كان يقوم به والده، وهو طفل صغير، من مشقة وتعب في تعليمه القراءة والكتابة وتحفيظه لما تيسر من كتاب الله العزيز، رغم المخاطر التي كانت تحيط بالمسلمين من كل صوب في وقت «اشتد التضييق عليهم إلى الدرجة القصوى تحريقا بالنار واستعبادا للذكور والإناث، وتعذيبا بمختلف الأشكال بحجة أنهم وإن كانوا تنصروا ظاهرا فلا يبرحون مسلمين باطنا». وهكذا يتحدث المؤلف بفخر عما كان يتذرع به والده من شجاعة وإيمان في مجابهة تحديات النصارى فيقول : «ومع أني صغير السن حين دخولنا هذه الديار عمرها الله تعالى بالإسلام وأهله بجاه النبي المختار فقد أطلعني الله تعالى على دين الإسلام بواسطة والدي، رحمة الله عليه، وأنا ابن ستة أعوام وأقل، مع أني كنت إذ ذاك أروح لمكتب النصارى لأقرأ دينهم، ثم أرجع إلى بيتي، فيعلمني والدي دين الإسلام؛ فكنت أتعلم فيهما معاً، وسني حين حملت إلى مكتبهم أربعة أعوام، فأخذ والدي لوحاً من عود الجوز كأني أنظر الآن إليها، مملساً من غير طفل ولا غيره؛ فكتب لي فيه حروف الهجاء، وهو يسألني حرفا حرفاً عن حروف النصارى تدريباً وتقريباً، فإذا سميت له حرفا أعجميًا كتب لي حرفا عربيّاً؛ فيقول لي حينئذ : «هكذا حروفنا» حتى استوفى لي جميع حروف الهجاء في كرّتين. فلما فرغ من الكرّة الأولى أوصاني أن أكتم ذلك حتى عن والدتي وعمي وأخي وجميع قرابتنا، وأمرني أن لا أخبر أحداً من الخلق؛ ثم شدد عليّ الوصية وصار يرسل والدتي إليّ؛ فتسألني ما الذي يعلمك والدك، فأقول لها : «لاشيء»؛ فتقول : «أخبرني بذلك ولا تخف لأن عندي الخبر بما يعلمك»؛ فأقول لها : «أبدا، ما هو يعلمني شئا». وكذلك كان يعمل

عمي وأنا أنكر أشد الإنكار؛ ثم أروح إلى مكتب النصارى وآتي إلى الدار؛ فيعلمني إلى أن مضت مدة؛ فأرسل إليّ من إخوانه في الله الأصدقاء؛ فيسألني،فلم أقر لأحد قط بشيء مع أنه، رحمه الله تعالى، قد ألقى نفسه للهلاك، لإمكان أن أخبر بذلك عنه، فيحرق لا محالة، لكن أيّدنا الله سبحانه وتعالى بتأييده وأعاننا على ذكره وشكره وحسن عبادته بين أظهر أعداء الدين. وقد كان والدي، رحمه الله تعالى، يُلقنني حينئذ ما كنت أقوله عند رؤيتي للأصنام؛ وذلك أنه قال لي: «إذا أتيت إلى كنائسهم ورأيت الأصنام، فاقرأ في نفسك سرّاً قوله تعالى:

﴿يـاأيهـا النـاس، ضرب مثـل فـاسمعوا لـه، إن الـذين تـدعون من دُون اللـه لن يخلقوا ذبـابـاً، ولو أجتمعوا له، وإن يـسليهم الذباب شيئـا لايـستنقذوه منـه، ضعف الطـالب والمطلـوب﴾، و **﴿قـل يـاأيهـا الكافرون، لا أعبد ما تعبدون﴾**، إلى آخرها، وغير ذلك من الآيات الكريمة؛ وبقوله تعالى:

﴿وبكفرهم وقولهم على مريم بهتـانـا عظيمـا، وقـولهم إنـا قتلنـا المسيـح عيسى ابن مريم رسـول اللـه، ومـا قتلوه ومـا صلبـوه، ولكن شبّـه لهم، وإن الذي اختلفوا فيه لفي شك منه، ما لهم بـه من علم إلا اتبـاع الظن، ومـا قتلـوه يقينـا، بـل رفعـه اللـه إليه، وكان الله عزيزاً حكيماً﴾.

فلما تحقق والدي، رحمه الله تعالى،أني أكتم أمور دين الإسلام عن الأقارب فضلا عن الأجانب، أمرني أن أتكلم بإفشائه لوالدتي وعمي وبعض أصحابه الأصدقاء فقط؛ وكانوا يأتون إلى بيتنا، فيتحدثون في أمر الدين وأنا أسمع؛ فلما رأي حزمي مع صغر سني فرح كثيرا غاية، وعرفني بأصدقائه وأحبائه وإخوانه في دين الإسلام؛ فاجتمعت بهم واحدا واحدا، وسافرت الأسفار لأجتمع بالمسلمين الأخيار من جيان، مدينة ابن مالك إلى غرناطة وإلى قرطبة وإشبيلية وطليطلة وغيرها من مدن الجزيرة الخضراء أعادها الله تعالى للإسلام. فتلخص لي من معرفتهم أني ميزت منهم سبعة رجال كانوا كلهم يحدثونني بأمور غرناطة وما كان بها في الإسلام حينئذ؛ فسندي عال لكون ما تم إلا واسطة واحدة بيني وبين أيام الإسلام بها. فباجتماعي بهم حصل لي خير كثير، ولله المنّة؛ وقد قرأوا كلهم على شيخ من مشايخ غرناطة ـ أعادها الله للإسلام، يقال له الفقيه اللوطوري، رحمه الله تعالى ونفعنا به؛ فإنه كان رجلا صالحا ـ، وليا لله، فاضلا، زاهدا، ورعا، سالكا، ذا مناقب ظاهرة مشهورة، وكرامات زاهرة مأثورة؛ فقد قرأ القرآن الكريم في مكتب الإسلام بغرناطة قبل استيلاء أعداء الدين عليها، وهو ابن ثمانية أعوام، وقرأ الفقه وغيره على مشايخ أجلاء حسب الإمكان لأن الوقت ضاق في السر والإعلان لشدة القتال والحصر الذي كان عليهم مع صغر سنه؛ ثم بعد مدة يسيرة انتزعت غرناطة من يد المسلمين أجدادنا، وأذن العدوّ في ركوب البحر والخروج منها لمن أراده، وبيع ما عنده وإتيانه لهذه الديار الإسلامية أبقاها الله تعالى عامرة بالإسلام إلى يوم الدين، وذلك في مدة ثلاثة أعوام؛ ومن أراد أن يقيم على دينه وماله فليفعل بعد شروط اشترطوها والتزامات كتبها عدوّ الدين على أهل الإسلام؛ فلما أجدادنا تحركوا لذلك وعزموا على ترك ديارهم وأموالهم، ومفارقة أوطانهم للخروج من بينهم، وجاز إلى هذه الديار التونسية والحضرة الخضراء بغتة من جاز إليها حينئذ، ودخلوا في زقاق الأندلس المعروف الآن بهذا الإسلام وذلك سنة اثنين وتسعمائة وكذلك للجزائر وتطوان وفاس ومراكش وغيرها، ورأى العدوّ العزم فيهم لذلك نقض العهد؛ فردّهم رغم أنوفهم من سواحل البحر إلى ديارهم ومنعهم قهراً عن الخروج واللحوق بإخوانهم وقرابتهم لديار الإسلام؛ وقد كان العدوّ يظهر شيئا ويفعل آخر؛ مع أن المسلمين أجدادنا استنجدوا مراراً ملوك الإسلام كملك فاس ومصر حينئذ؛ فلم يقع من أحدهما إلا بعض مراسلات ليقضي الله أمراً كان مفعولا؛ ثم بقي العدوّ يحتال بالكفر عليهم غصباً؛ فابتدأ يزيل لهم اللباس الإسلامي والجماعات والحمامات والمعاملات الإسلامية شيئا فشيئا مع شدة امتناعهم والقيام عليه مراراً وقتالهم إياه إلى أن قضىالله سبحانه ما قد سبق في علمه؛ فبقينا بين أظهرهم وعدوّ الدين يحرق بالنار من لا حت عليه أمارة الإسلام ويعذبه بأنواع العذاب؛ فكم أحرقوا وكم

عذبوا وكم نفوا من بلادهم، وضيعوا من مسلم؛ فإنا لله وإنا لله راجعون، حتى جاء النصر والفرج من عند الله سبحانه، وحرّك القلوب للهروب، وكان ذلك سنة ثلاث عشرة وألف لهجرته ﷺ. فخرج منّا بعض للمغرب وبعض للمشرق خفية مظهراً دين الكفار أبعدهم الله؛ فخرج بعض أحبابنا وإخواننا وهو الفقيه الأجلّ المدرس الشريف أبو العباس أحمد الحنفي المعروف بعبد العزيز القرشي، ومعه أحدُ أخواله، رحمهم الله تعالى إلى مدينة بلغراد (Belgrade) من عمالة القسطنطينية العظمى؛ فالتقيا بالوزير «مراد باشا»، وزير السلطان المعظم المرحوم السلطان أحمد بن السلطان محمد نجل آل عثمان نصرهم الله وأيّدهم؛ فأخبراه بما حلّ بإخواننا بالأندلس من الشدة بفرانسة وغيرها؛ فكتب أمرا لصاحب فرانسة دمّرها الله بإعلام السلطان نصره الله يأمره بأن يخرج من كان عنده من المسلمين بالأندلس خُدّام آل عثمان نصره الله ويوجههم إليه في سفن من عنده مع ما يحتاجون إليه؛ فلما قرئ الأمر السلطاني في ديوان الفرنسيين؛ فجمع من كان عنده مرسلا من قبل صاحب الجزيرة الخضراء وهو اللعين فيليب الثالث؛ فأرسل لسيده، وهو يخبره بالواقع، وأن السلطان أحمد نجل آل عثمان أرسل أمره إلى فرانسة وأمر صاحبها بأن يخرج من كان عنده من الأندلس: فقبل كلامه، وأمر بإخراج المسلمين. فلما أحسّ بهذا الأمر عدوّ الله «فيليبو» صاحب اسبانيا دخله الرعب والخوف الشديد؛ وأمر حينئذ، فجمع أكابر القسيسين والرهبان والبطارقة، وطلب منهم الرأي، وما يكون عليه العمل في شأن المسلمين الذي هم ببلاده كافة؛ فبدأ الشأن في أهل بلنسية؛ فأخذوا الرأي وأجمعوا كلهم على إخراج المسلمين كافة من مملكته، وأعطاهم السفن، وكتب أوامر وشروطا في شأنهم في كيفية إخراجهم، وشدّد على عمالة بالوصية والاستحفاظ على كافة المسلمين من الأندلس؛ نعم، أريد أن أذكر لك نبذة يسيرة اختصرتها وترجمتها من جملة أسباب ذكرها الملك الكافر، أبعده الله، في أوامره التي كتبها في شأن إخواننا الأندلسيين حين أردوا إخراجهم من الجزيرة الخضراء، لتكون على بصيرة من أمرهم، وتعلم بعض الأسباب التي أخرجوا لأجلها على التحقيق، لا كما يزعم بعض الحاسدين، وليؤيد ما قدمناه آنفاً من أمر السلطان أحمد المنصور بالله نجل آل عثمان نصرهم الله آمين وتكمل الفائدة، ولئلا يساء الظن بنا معشر الأندلس، فأقول وبالله التوفيق: قال الملك الكافر أبعده الله تعالى وزلزله آمين : «لما كانت السياسة السلطانية الحسنة الجيّدة موجبة لإخراج من يكدر المعاش على كافة الرعية النصرانية في مملكتها التي تعيش عيشا رغدا صالحا، والتجربة أظهرت لنا عيانا أن الأندلس الذين هم متولدون من الذين كدروا مملكتنا فيما مضى، بقيامهم علينا وقتلهم أكابر مملكتنا والقسيسين والرهبان الذين كانوا بين أظهرهم، وقطعهم لحومهم وتمزيقهم أعضاءهم وتعذيبهم بأنواع العذاب الذي لم يسمع فيما تقدم مثله مع عدم ثوبتهم مما فعلوه، وعدم رجوعهم رجوعاً صالحاً من قلوبهم لدين النصرانية، وأنه لم ينفع فيهم وصايانا، ورأينا أن كثيرا منهم قد أحرقوا بالنار لاستمرارهم على دين المسلمين، وظهر منهم العناد بعيشهم فيه خفية، واستنجادهم كذلك عون السلطان العثماني لينصرهم علينا، وظهر لي أن بينهم وبينه مراسلات إسلامية، ومعاملات دينية؛ وقد تيقنت ذلك من إخبارات صادقة وصلت اليّ، ومع هذا أن أحدا منهم لم يأت إلينا ليخبرنا بما هم يديرونه في هذه المدة بينهم، وفيما سبق من السنين، بل كتموه عندهم علمت بذلك أن كلهم قد اتفقوا على رأي واحد، ودين واحد، ونيتهم واحدة؛ وظهر لي أيضا ولأرباب العقول والمتديّنين من القسيسين والرهبان والبطارقة الذين جمعتهم لهذا الأمر، واستشرت معهم أن من ابقائهم بيننا ينشأ عنه فساد كبير وهول شديد بسلطتنا، وأن بإخراجهم من بيننا يصلح الفساد الناشئ من إبقائهم بمملكتي أردت إخراجهم كافة من سلطتنا جملة بذلك الكدر الواقع والمتوقع للنصارى الذين هم رعيتنا طائعين لأوامرنا وديننا، ورميهم إلى بلاد المسلمين أمثالهم لكونهم مسلمين» انتهى المراد بأكثر لفظه. ولم أتعرض لذكر شروط كتبها ودققها؛ فانظر رحمك الله كيف شهد عدوّ الدين الملك الكافر بأنهم مسلمون، واعترف على أنه لم

يقدر على إزالة دينهم من قلوبهم، وأنهم متمسكون كلهم به رغم أنه كان يحرق منهم من ظهر عليه الدين؛ ثم وصفهم بالعناد لرؤيته فيهم لوائح المسلمين وأماراتهم. فأي علامة أكبر من صبرهم على النـــار لأجل دين الحق، ومن استنجادهم ملك دين الإسلام المؤيد لحماية الدين أمير المسلمين السلطان أحمد نجل آل عثمان نصرهم الله تعالى. فهنا غاية الخير والعز والبركة لهذه الطائفة الطاهرة الأندلسية التي قال فيها شيخنا الأستاذ القطب الغوث سيدي أبو الغيث القشاش، نفعنا الله به دنيا وأخرى في بعض مكاتيبه التي كان يكاتبني بها في بعض شأنهم حين قدومهم إلى هذه الديار، أدامها الله للإسلام، فقال لي : «وسلم لي على هؤلاء الأنصار الأطهار الأخيار، فإنه لايحبكم إلا مومن ولا يبغضكم إلا منافق؛ فخرجوا كلهم سنة تسع عشرة وألف؛ ووجد في دفاتر السلطان الكافر، أبعده الله تعالى آمين، أن جملة من أخرج من الأندلس كافة نيف وستمائة ألف نسمة كبيراً وصغيراً، فكانت هذه الواقعة منقبة عظيمة وفضيلة عجيبة لجماعتنا الأندلس، زادهم الله شرفاً بمنّه؛ وأمر أيضا بإخراج من كان مسجوناً في كافة مملكته؛ وكل من كان أمر بإخراجه؛ فأخرجه وعفا عنه وزوده وأرسله بلاد الإسلام سالماً؛ ولا يخفي أن هذا أمر عظيم، ومحال عادة؛ سبحان رب السماوات ورب الأرض الذي أراد أمرا أن يقول له كن فيكون؛ فيالها من أعجوبة، ما أعظمها ومن نعمة، ما أكبرها ! فما سمع من أول الدنيا إلى آخرها مثل هذه الواقعة».

وهنا ينتهي كلام المؤلف عن الأحداث الأليمة التي صاحبت هجرة الأندلسيين إلى بلدان المغرب والمشرق؛ ثم ينتقل إلى ذكر خبر فتح الجزيرة على يد طارق بن زياد ومجموعة من التابعين الذين وردوا عليها من الشام والعراق والجزيرة العربية والمغرب والسودان كما دخلتها مجموعة أخرى من القبائل العربية؛ فاستوطنوا الجزيرة وعمروها بما شيدوا فيها من القلاع والحصون تركيزا للدين فيها، ودعما لوجود أمة المسلمين هناك، حتى إذا أذن الله بخروجهم من بلاد الأندلس خروجاً نهائيا، واحتضنتهم عدة بلدان في المغرب والشرق عرفوا كيف يسهمون في ازدهار هذه البلدان عن طريق العمل المنظم المفيد؛ ولا غرابة في ذلك، فقد كانوا بالأمس القريب في الأندلس وطنهم العزيز يكونون اللحمة الحية في مجتمع أندلسي نشيط منتج موهوب. نعم، كانت جماعة الموريسكيين خاصة تتمثل في طبقة أرباب الأموال والتجار والفلاحين الذين عرفوا كيف يعملون على إحياء أراضي الجزيرة، فحولوها من أرض موات إلى مجموعة من البساتين والرياض يغرسون فيها من كل أنواع المزروعات، وينتجون كل ما يشتهون نتيجة ما أحرزوه من تقدم باهر في كيفية جلب المياه من ينابيعها واستصلاحها لفائدة السكان في المدن والبوادي. وغنيّ عن البيـــان أن بلـــدان المغرب العربي التي رحبت بهؤلاء الموريسكيين وفتحت لهم ذراعيهـــا هي التي استفـــادت بالدرجة الأولى طبعا من خبرتهم ومهارتهم في سائر مرافق الحياة اليومية سواء كان الأمر يتعلق بالفلاحة والتجارة أو بالشؤون الثقافية والعلمية... وعلى الرغم مما حظي به الموريسكيون من حفاوة وترحاب في البلدان المغربية التي قصدوا إليها وما وجدوه فيها من استقرار وراحة بال، وعلى الرغم من اندماجهم بعد لأي من الزمان اندماجا كليّاً في ذلك المجتمع المغربي الإسلامي، إلا أنهم ما فتئوا يحنون إلى وطنهم الأول الذي لم تبرحه قلوبهم، يذكي شوقهم إليه بعد المزار، ويزيد في تلهفهم عليه ذكريات رقيقة عن الماضي الذي ولى وراح؛ على تلك المفاتيح التي حملوها معهم على سبيل الذكرى، مفاتيح الدور التي كانوا يسكنونها بقرطبة وإشبيلية وغرناطة وغيرها من مدن الوطن الحبيب، حتى إذا حلت الجمعة من كل أسبوع ووجدوا أنفسهم في الطريق نحو المسجد الجامع لأداء الفريضة كما كانوا يفعلون هناك آنفاً استرعت نظرهم في أعلى كل منارة من مساجد العدوتين راية سوداء تتلاعب بها ريح الصبا كأنها تشير إلى ما يغمر قلوب الموريسكيين وقلوب المسلمين جميعـــا من حزن عميق حسرة على الفردوس المفقود...



للأستاذ محمد السعيدي

في تاريخ العديد من الأمم والشعوب، عباقرة أفذاذ، وعلماء باحثون أمجاد، سجّل جلائل أعمالهم في أنصع صفحاته بأحرف من نور.

منهم من عرفت له الدنيا قدره، فتمتع بالشهرة الطائرة، والصيت الذائع، ونال ما هو جدير به من تكريم وتمجيد حيّاً وميتاً. ومنهم من عاش في الظل، جنديّا مجهولا، لا يكاد خاصة الناس ـ فضلا عن عامتهم ـ يعرفون عن جوانب عظمته، وأسرار شخصيته، إلاّ النزر القليل. بل منهم من طمرت جهوده وتضحياته تحت ركام من التجاهل والتناسي والإهمال. ولعمري إن للشعوب لعقوقاً كعقوق بعض الابناء. ومن أبشع أنواع ذلك العقوق أن تتناسى أبطالها العظام. ونبغاءها الكبار، وقادتها الأمجاد، الذين أرسوا قواعد عزها. وشادوا صرح مجدها.

ونحن ـ بحمد الله ـ نعتزّ ونفخر بأن الدنيا كلها تعترف لوطننا الحبيب. بأنه ظلّ ـ عبر العصور ـ عرين أسود، ومنبت مواهب خارقة، وعبقريات نادرة، كان لها إسهام كبير في ميادين مختلفة مما تعتز به الإنسانية.

غير أننا نلاحظ بحسرة دفينة وألم عميق أن عددا لا يُستهان به من رجالاتنا لم يوزن بالقسطاس المستقيم، ولم ينل حظه العادل مما هو جدير به من التجلة والتقدير. إن في ذلك لجناية على ماضينا بإطفاء مشاعله، وطمس معالمه، وتشويها لحاضرنا بقطع صلته وتوهين أواصره، وخسارة لمستقبلنا باستبعاد القدوة الصالحة لأجياله، والأمثلة الخالدة الرائعة لرجاله، وإن من أبرز رجالات تاريخنا الحديث، وأعظم من برّز في علوم اللغة والآداب والتفسير والحديث علَمَ سوس المفرد، وهرمه الشامخ الذي لا يطاول ولا يداني، المربّي والمصلح الغيور والعلامة البحاثة النّحرير، المرحوم محمد المختار السوسي، الرجل الذي وهب نفسه لدينه ووطنه. وأفنى عمره الطويل بين قرآن يتلى، وورد يردد، وعلم يدرّس، وإرشاد يوجّه، وكان في مقدمة الكتيبة المجاهدة في سبيل الاستقلال والحرية. ومن أجل مبادئه ومثله العليا لاقى ما يلاقيه المجاهدون المخلصون فسُجن ونفي، وطورد وحوصر. فلم يزده كل ذلك إلا ثباتا ورسوخا.

إن حياة زاخرة بالنضال والإنتاج، كحياة محمد المختار السوسي لا تتسع لها عشرات المجلدات ناهيك عن عرض خاطف لا يسمن ولا يغني من جوع. إن الباحث في حياة هذا الإمام الجليل ليحار بأي جوانبها يبدأ، وعند أي من مفاخرها يتوقف، وكيف يستطيع ذلك. وكل أيامه بل كان ثواني حياته الغنية المعطاء عمل وبناء وإنتاج، وكل أعماله وتحركاته مآثر ومكرمات.

إني لا أتحدث عنه - كما يفعل الباحثون الدارسون - عبر كتبه، وما دون من أخباره، ولكن حديث الإبن الروحي المعجب بمربيه الحكيم الذي ارتوى من معين علومه النمير، ونهل من ينبوع أدبه الثرّ الفياض. في حلقات دروس، وجلسات أدب ومساجلة، تجسّد لنا ما نقرأه عن الإمامين الكبيرين جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده. ولم لا ؟! أكان شيخنا الهمام يقل عن أي منهما علماً ووطنيةً وإنتاجاً ؟! أو ينقص عنهما صلابة في الحق، وصمودا في وجه العتوّ والطغيان ؟!.

سأكتفي باستعراض سريع لرواية حياته التي شاهدت فصولها الأخيرة. لأقف وقفة تأمل واعتبار عند محمد المختار السلفي الصوفي، ووقفة إجلال وإكبار عند محمد المختار المؤرخ الناقد، ووقفة انتشاء وإعجاب عند محمد المختار البلبل الصداح، والشاعر المبدع المجيد. رغبة في تقديم صورة - إن كان المجال يفرض أن تظل خاطفة سريعة - فلتكن أقرب إلى العموم والشمول.

في قرية «ايلغ» التي تبعد عن مدينة تزنيت بحوالي 84 كيلو مترا، ومن أسرة نبيلة ذات مكانة وحرمة في القبيلة لتمسكها الشديد بأخلاق الدين الحنيف ومثله العليا - ولد للفقيه سيدي علي الدرقاوي مولود ذكر، ابتهج لميلاده أيما ابتهاج، واختار له اسما نبويّاً سنيّاً هو «محمد المختار» وكان ذلك سنه 1319 هـ.

وكان الشيخ «علي» والد أستاذنا - إلى جانب كونه شيخا للطريقة الدرقاويّة - على جانب مهم من الثقافة الإسلامية الأصيلة، وخصوصا علم السلوك ومباحث التصوف. ولا أدل على ذلك من أرجوزته التي تحدّث فيها عما شاهده أثناء رحلته إلى الديار المقدسة لأداء فريضة الحج. وما دار من نقاش ومناظرات بينه وبين من لقيهم في طريقه من العلماء والنساك. وهذا نموذج من تلك الأرجوزة التي تقع في نحو ألفيْ بيت :

يقول :

الحمد لله الذي سددنا
ولبقاع المصطفى أرشدنا

وآلف القرشيين في الشّتا
والصيف رحلة بها المنّ أتى

أكرمنا بنعمة الإيمان
بخير خلق الله والقرآن

وأرسل الرسل بالبشاره
مصرّحا بها بلا إشارة

ومنها - وقد ودع أحد علماء تونس سنة 1305 :

وقد جرى في آخر الأيام
هناك مع فذ من الأعلام

ذاكرني في العقد للمحبه
لله كالعادة في الأحبه

فقال : بلغن إلى الرسول
متى حظيت منه بالمثول

فقال قولا ألهف القلوبا
حتى تكاد منه أن تذوبا

وحرّك الأشباح والأرواحا
وحرّك الجبال والبطاحا

قال : إذا وصلت قبره الشريف
وكنت أثناء مقامه المنيف

وفازت النفس هناك بالمنى
واكتحلت عيناك منه بالسنا

فقل له : يا أيها الرسول
غرّبني ملّتك الذهول

وانها لأمة مستضعفه
استوحشتها أمم مستضعفه

هذه السهولة في اللفظ، وهذا الحسن في السّبك، وهذه الصّحة في الوزن تشهد لصاحبها بمستوى ثقافي مرموق في زمان وبيئة لم تكن فيهما للشعر سوق رائجة.

وإن بعض أبيات هذه الأرجوزة لتذكرنا بما قاله شوقي بعد ذلك بعدة سنوات في قصيدته : «إلى عرفات الله» وهذه الأبيات هي :

إذا زرتَ بعد البيت قبر محمد
وقبّلت مثوى الأعظم العطرات

وفـاضت من الـدمـع العيـون مهـابـة
لأحمـــــــــــد بين الستر والحجرات
وأشرق نـــور تحت كـل ثنيـــة
وضـــاع أريـج تحت كـل حصـــاة
فقـل لرسـول اللــه يــا خير مرسـل
أبثــك مـــا تـــدري من الحسرات
شعـوبـــك في شرق البـلاد وغربهـــا
كـأصحـــاب كهف في عميـق سبـــات
بـــأيمـــانهم نـــوران : ذكر وسنـــة
فمـا بـالهم في حـالـك الظلمـات ؟!
وذلــك مـــاضي مجـدهم وفخـــارهم
فمـــا ضرهم لـــو يعملـــون لآت

طبعـا نحن لا نقـارن بين والـد شيخنـا وبين أمير الشعراء، إذ ليس هـذا من وكـدنـا. وليس هنـاك مجـال للمقارنة بينهما، إنمـا الذي لا شك فيـه هو أن الشيخ كـان في عِداد العلماء بالمفهوم الدقيق للكلمة في ذلك العهد.

والأرجوزة تطفح وطنية وغيرة، ويتجلى فيهـا صـدق تفاعله مع أحداث عصره. وعميق حسرته لما حلّ بأمته.

هـذه هي اللبان التي اغتـذى بهـا محمـد المختـار السـوسي منـذ اكتحلت عينـاه بـالنور. وفي أحضـان العلم والإيمان والوطنية ربا وترعرع. قوي الذاكرة، حادّ الـذكـاء، مرهف الإحـساس، خصب الخيال، نبيل الشعور، وقد ساعدته هـذه المزايـا على أن يتسلّق سلم التعليم، ويطـوي مراحلـه بالسرعة التي يطويه بها اللامعون من نوابغ الأذكياء، وهكذا أتم حفظ القرآن وأشهر المتون، وأتقن مبادىء اللغة العربيـة في سن جـد مبكرة على يـد شيخـه : عبـد اللـه بن محمـد أستاذ القرية، ثم قصد مدرسة الشاعر المبدع والعلامة الكبير «الطـاهر الإفراني» الـذي صقل موهبتـه، وأذكى شـاعريتـه، وغرس في نفسـه التعلق بالأدب والهيام به. ومن يومهـا أقبل الشـاب الأديب على أصول الأدب العربي وعيونه يلتهمهـا التهامـاً. وفي الوقت نفسـه أخذ يجرّب قريحتـه، ويـدرّب قلمـه فسجلت لـه محـاولات شعريـة وهو بعـد في سن المراهقة.

بعدها انتقل إلى مدرسة «السعيدات» حيث تتلمذ على شيخها «عبد القادر السباعي».

وأبى عليـه الطموح إلا أن يتطلع إلى رحـاب أوسـع. وأن يـستشرف آفـاقـا أبعـد، فقصـد ـ ولأول مرة ـ عـاصمـة المرابطين والموحـدين «مـدينـة مراكش» وكـان ذلـك سنـة 1338 هـ، وفي جـامعـة ابن يوسف وجـد ضـالتـه المنشـودة فـاختلف إلى أنواع من العلمـاء. وتلقى ألـوانـا من العلـوم والفنون، وسّعت أفقه وأعلت كعبه. واشتهر بملازمته الدائمـة لحلقات قاضي الحمراء العلامة «محمد بن لحسن».

وفي سنـة 1342 شـد الرحـال إلى جامعـة القرويين ليتوّج بمعارف علمـائهـا حصيلتـه، وينمي زاده. وبهـا التقى بشيخ الإسـلام علامـة المغرب الأكبر «سيـدي محمـد بن العربي العلوي» فلازمـه ملازمة الظلّ، وبـه تـأثر بـالاتجـاه السلفي. وإليه يرجع الفضل فيما عرف به أستاذنا من حرية الفكر، ورحـابـة الصـدر، والفهم الجيـد لروح التشريـع، ومقـاصـده العليـا، وهنـا التقى بنخبـة من الأدبـاء الشبـان، فكـونـوا جمعيـة أدبيـة للكتـابـة والخطـابـة وقرض الشعر. متعـاهـدين على أن ينـذروا أنفسهم لخدمـة وطنهم ودينهم ولغتهم، وأخـذوا يراقبـون الأحـداث الـداخليـة والخـارجيـة بمنتهى اليقظـة والترقب متحفزين لتلبيـة أي واجب وطني يدعوهم.

كان لكل هذا الأثر العميق في نفس أستاذنا، ولندعـه يصف لنـا مـا أحـسـه في نفسـه من تغير نتيجـة لكـل هـذا، يقول :

«ثم لمـا حللتُ بفـاس أتى الـوادي فطمّ على القرى فبـدلت أخـلاقـا غير التي عهـدت من نفسي قبـل وأنـا في مراكش وأحواز مراكش، فقد تلقحت في جوّ فـاس بمـا لم أتلقح به ونزعت بي نفس عزوف تقول بملء فيها :

لى همّــــة عــــاليـــــة حرّة
طمـــوحهـــا ليس لـــــه منتهى
لـــو ملكت كـــل الثرى لاعتلت
إلى امتـــلاك ســــدرة المنتهى

تكونتْ لي في فاس فكرة دينية فرّقت بها ما بين الخرافات الموهومة، وبين الروحانية الربّانية. كما نبتت فيّ غيرة وطنية نسيت بها نفسي ومصالحي الشخصية، فأعددت نفسي فداء لديني ولوطني ولأمتي التي هي أمة العرب والإسلام جمعاء. وأنا بين هاتين : الفكرة والغيرة، أسبح في آداب حية طلع بها العصر الحديث، فصرت أقرأ من نثر المنفلوطي، وفريد وجدي، ومحمد عبده وأضرابهم، ومن شعر شوقي وحافظ ومطران وأمثالهم، ما عرفت به أن الذي كنت أسبح فيه منذ صغري ليس إلا ضحضاحا كدرا، لا يبرّد عطشا، ولا يطفىء غلة، ولا يقضي على لهفة».

وبفضل خفة ظله وعذوبة روحه، وسعة معارفه استطاع أن يجمع حوله عددا من عشاق الآداب، ورواد الثقافة والفكر. ممن يشاطرونه نفس المبادىء والأهداف. وربطته صداقة متينة مع رجال أصبحوا فيما بعد قادة للحركة الوطنية وزعماء للنهضة والاصلاح.

في رواية حياة أستاذنا المجاهد هذه صفحة وضاءة مشرقة ربما كانت ألمع صفحاتها على الإطلاق، إذ سجلت له موقف المومن الوطني الغيور الذي يتسامى فوق النعرات الضيقة والقوميات المتعصبة التي لم يجىء الإسلام لهدم شيء كما جاء لتقويضها ونسفها. فجنسية المسلم عقيدته وشريعته، لا ألوان ولا حدود لالغات ولا قوميات المسلم أخو المسلم أينما وجد وحيثما وجد.

وإذن فهو الإيمان بالمبادىء والمثل العليا، يشكّل لُحمة دونها لحمة النسب. ومن جمعتهم كلمة التوحيد، وألّفت بينهم القبلة الواحدة. وصهرتهم في بوتقه واحدة صفوف الجماعة وحشود الجمعة والعيد، والموقف الأكبر بعرفات فلن يضيرهم أن تختلف الألوان أو تتعدد اللهجات أو تتباعد الأقطار. فالمومن للمومن كالبنيان يشد بعضه بعضا، وكالجسم إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

هذه هي دعوة الإسلام، وتلك روابطه ووشائجه.

لكن الاستعمار الشره الغبي خيل إليه أنه قادر على أن يوهن هذه الروابط. ويفتت الحزمة المتماسكة ليسهل عليه تهشيم كل أعوادها واحدا واحدا. فاستصدر ظهيره البربري المشؤوم يريد أن يبعد به جزءا من الأمة المغربية عن العمل بدينها الذي قدمت وتقدّم من أجل فدائه الأرواح والدماء رخيصة سخية، ويفرق بين أشقاء اختلطت دماؤهم بالنسب والصهر، وتمازجت عواطفهم بالآمال والآلام. ويحدث بينهم الوقيعة. ويضرم الشقاق. فماذا كانت النتيجة ؟! لقد تفجّر بركان غضب شعبنا ساحقا مدمّرا، فأصابت حممه الخونة والمتآمرين، وجلجل هدير الاستفظاع والاحتجاج في كل مكان لهذه الردة المقنّعة، والصليبية المتنكرة، ورددت أبهاء جامع القرويين اللطيف الذي يتوجه إلى الله داعيا متضرعا «الله يا لطيف نسألك اللطف فيما جرت به المقادير، ولا تفرق بيننا وبين أخوتنا البرابر».

أما علماء الأمة وزعماؤها فكانوا في طليعة من تصدى للمؤامرة، يفضحها ويبين سوء عواقبها. وللمكيدة يمزقها ويرمي بها في وجه من حاكوها.

وهنا امتشق المرحوم محمد المختار السوسي قلمه ليخوض به معركة الدفاع عن وحدة شعبنا كما تخوض اليوم جيوشنا الباسلة معركة الدفاع عن وحدة أراضينا بإيمان عميق بالقضية وباستعداد تام لكل تضحية.

ولدفاع محمد المختار السوسي بالذات عن هذه القضية مغزاه العميق. فقد أبطل حجة المستعمر الواهية. وشهد شاهد من أهل البربر يمثلهم أصدق وأدق تمثيل على أنهم أشد الناس تمسكا بالدين. وأكثرهم حرصا على التماسك والوحدة، لا يبغون بدين الله وشريعته بديلا. وكان يردد أمثال هذه الآيات : **﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا﴾**.

﴿أفغير دين الله تبغون وله أسلم من في السماوات والأرض جميعا﴾.

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾.

وفي حماسة وإيمان وإخلاص دعا إلى توحيد العنصرين وإلى تحكيم شريعة الله، وحدها، ودافع بحرارة وصدق عن لغة الضاد ودعا إلى إحيائها ونشرها، وإننا لنلمس هذا واضحا في القصيدة التالية التي ترسّم فيها خطى شاعر النيل حافظ ابراهيم في قصيدته على لسان اللغة العربية : والتي مطلعها :

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي
ونـاديت قومي فاحتسبت حياتي

منتحلا الوزن والقافية أيضا، وهي من محاولاته الشعرية الأولى وفيها يقول :

بأي خطاب أم بأي عظات
أوجّه وجه الشعب شطر لغاتي
بأي فعال أم بأية حكمة
أنشّرها من أعظم نخرات
تركنا بها كنزا نفيسا فأقبلت
على غيرها الأفكار مبتدرات
نمد أكفا قطع الله راحها
إلى غيرها من اللغى المجتات
ونترك منها روضة تخلب النهى
بطلعتها المخضلّة الزهرات
فلو أننا نلنا من العقل ذرة
ونالت طوايانا أقل حياة
وأمعن كل طرفه في أصوله
وأنعم في أحواله النظرات
رأينا جميع العز تحت خبائها
بها يترقى الشعب في الدرجات

وظلّ - رحمه الله - لا يكاد يسمع بأحد من فطاحل العلماء وأكابر الباحثين إلا شدّ الرحال إليه، وتتلمذ عليه. وهكذا فرغم الروابط التي باتت تشده شدا إلى فاس وأجوائها الفكرية التي لقيت هوى في نفس الأديب المتعطش، فإنه ما كادت أنباء العلامة المحدث الشيخ أبي شعيب الدكالي تصل إليه حتى طار بأجنحة الشوق إلى رباط الفتح سنه 1347 وسرعان ما أصبح النجمَ اللامع في دروس الحديث كما كان في حلقات النحو والصرف والبلاغة والمنطق والأدب والفقه وأصوله.

وفي الرباط جذبته أيضا براعة العلامة البارع سيدي المدني الحسني فلازمه ردحا من الدهر.

بعد هذا العمر الطويل من الانكباب على الدراسة والتحصيل، وبعد تلك الجولة الكبيرة في العواصم العلمية المغربية ثقف عوده، وأينع غصنه، وأصبح مؤهّلا لحمل رسالة العلم إلى الأجيال الصاعدة. وأذكر هنا أننا كنا دائما نلمس فيه تواضع العلماء فما انفك يعتبر نفسه طالبا مثلنا. وهو يمتاز باحترام آراء الآخرين ويناظر في أناة وتعقل وبرودة دم. بل إنه ليصرح أمام الملأ بفضل بعض تلامذته عليه، ويشجع الذين يناقشونه آراءه، ويقول : هذا أستاذي في كلمة كذا، وهذا أخذت عنه القولة الفلانية والبيت الفلاني... الخ. لكن أين يصرف بضاعته النفيسة وأين ينفق كنزه الثمين ؟!.

أين يوجد الحقل الخصب الذي يتوفر على تربة خصبة تضن لمبادئه الإسلامية وأفكاره الوطنية أن تنمو وتترعرع ؟.

إنها مراكش الحمراء التي حلّ بها فحلّ بحلوله النور والأمل، والوعي واليقظة. ولنستمع إليه يحدثنا عما عقده من عزم، وما بيته من نيات :

«حللت بالحمراء. وقد ألقيت فيها مرساتي، وأنوى أن أقضي الواجب عليّ لديني ولوطني ولشعبي ما بين تلميذ يهذّب، وبين درس وإرشاد يلقى. وأنا في جانب ذلك أناجي اليراع، فيما عسى أن يرفع من شأن هذه الأمة من إحياء ما اندثر من آثار ماضيها، ومن المحافظة على العربية الفصحى التي أراها في انهيار قضيت أزماننا تكشفت عن أعمال كان فضل الله علي فيها عظيما».

وإذا بالزاوية الدرقاوية بحي باب دكالة التي كانت تعج بذكر الله، وتقتصر على استقبال الفقراء الذين يؤمونها - فقط - لقراءة الورد يحوّلها المجاهد إلى معهد علميّ، ما

إن شاع خبره حتى تقاطرت عليه الأسر من مختلف الأحياء. وما قضى شهرا من عمره المجيد حتى انهال عليه القاصدون من أحواز مراكش والمدن الساحلية المجاورة، فاضطر إلى توسيعها وإضافة غرف اليها، وهي تتحول ليلا إلى مراقد للطلبة الوافدين.

وقد سجل التاريخ أن مصلحنا العظيم لم يكن يتطوع للتدريس مجانا فقط، ويجند كل أبنائه البررة لذلك فحسب، وإنما كان ينفق كل ما تملكه يداه على طلبة العلم ورواد المعرفة، يكسو العاري، ويطعم الجائع ويواسي الضعيف، ويقدم الكتب والأدوات. بل ويوزع النقود على من يراهم في حاجة إليها، جند نفسه وماله. واسترخص وقته وجهده، وكانت آية الله تتجلى، فما عانى أزمة، ولا اشتكى خصاصة.

ولم تقف همته العالية عند هذا الحد، فعاصمة كبرى كمراكش لا يمكن أن تلبي مدرسة واحدة حاجتها الملحة إلى التعليم الإسلامي الحنيف والتكوين الوطني السليم.

وإذن فليستعن بذوي الأريحيات والنيات الحسنة وليوعز بالفكرة إلى علماء المدينة وأغنيائها، وليبذل كل ما لديه من وسائل لإقناعهم بأهمية تكوين المدارس الحرة، وبالموقف الذي ستقفه في وجه تعليم أبتر ملغوم مسموم. وبفضل تشجيعاته المادية والمعنوية رأت النور - في فترات متقاربة متلاحقة - ثماني مدارس حرة أخرى، لغتها عربية، وروحها وطنية، وعقيدتها إسلامية. وبرامجها حية، متطورة تبعث أمجاد شعبنا وتحيي دارس عزه.

هكذا نفخ المختار السوسي الروح في مدينة كانت عظاما نخرة. وأيقظ من الذهول والغفلة شبابا كان يغط في سبات عميق. وكان يمنح بياض اليوم لتكوين التلاميذ والطلبة، وسواد الليل لتوجيه الكبار وإرشادهم، ويظل بيته وزاويته ومسجده مفتوحة من صلاة الفجر إلى العشاء الأخيرة كخلية نحل لا تهدأ ولا تسكن.

وإن أنس لا أنسى سوقا أدبية كان يعقدها، مساء كل أربعاء، فإذا هي عكاظ جديد تتبارى فيه الأقلام الناشئة نظما ونثرا، فما شئت من فخر وحماسة ووصف وغزل، والأستاذ يصغي وينتشي ويفاضل ويقارن ويشجع ويوجز. وكثيرا ما نظم مقطوعات على لسان بعض التلاميذ، وأمرهم بإلقائها دفعا لهم في طريق الإنشاء والابداع.

وقد حضر هذه المشاهد الأدبية المثيرة جماعة من كبار زعماء الحركة الوطنية، وجلة الأدباء والعلماء، فامتلأت نفوسهم عزة وفخرا. وشاهدوا البذور التي غرسها المختار السوسي تزهر وتثمر.

وهو في كل هذا كان رحمه الله يجعل من الأدب والشعر وسيلة يذكي بها الحماسة الوطنية والعزة القومية والغيرة الإسلامية.

ولم تكن عيون المستعمر وأذنابه لتنام عن هذه الثكنة التي يدرب فيها جنودا يتحفزون للانقضاض عليه. فقد أدرك أن البطل تمكن من النفاذ إلى عقول الشباب وأنه اضحى ساكنا في قلوبهم ودمائهم، وأن مبادءه السامية غدت قوتهم اليومي، وهواءهم الذي به يحيون، فأحاطوه بالجواسيس، وطوقوا مسكنه ومدرسته، وحتى دروسه الليلية بالعيون والمخبرين، وأخذوا يحصون عليه أنفاسه ويتتبعون تحركاته، وأوعزوا إلى جريدة مأجورة. كانت تدعى «أخبار الجنوب» بترصد تحركاته، والتعرض لأفكاره وأعماله بالنقد والتزييف، وطالبته الإدارة بأن يدلي بالرخصة التي تسمح له أن يفتح «مدرسة»، فرد بأنها مجرد كتاب قرآني لا يحتاج إلى رخصة.

دعاه «الكلاوي» إلى قصر بشبهة المذاكرة معه في أمور تهمّ الجمعية الخيرية. لكنه لم يجده في انتظاره، وإنما وجد سيارة بها شرطيان نقلته إلى منفاه في مسقط رأسه بإلغ.

أفاق التلاميذ في اليوم التالي من هول الصدمة فأقسموا بالله جهد أيمانهم ليتحولنّ كل واحد منهم إلى «مختار جديد»، وأن تستمر المدارس التي أرادوا لها الشلل والتوقف في أداء رسالتها.

إن الشعلة التي أوقدها محمد المختار لن تنطفىء أبدا.

وأصبحت المدينة الوديعة المستسلمة بركانا هادرا من السخط على الاستعمار وزبانيته لتتحول ساحاتها بعد ذلك إلى مقبرة رهيبة لهم.

وأما بطلنا المقدام فمكث في إلغ سبع سنوات، ورغم ما لقيه بين ذوي رحمه من حفاوة وترحاب. فإنه خلف قلبه وإحساسه في الحمراء، وقد أطلق البين لسانه، وأجرى قلمه بقصيد شجي باك سأورد بعض نماذجه عن الحديث عن أدبه.

ورغم المحنة والحرمان فإن إلغ كانت مهبط وحيه، ومولد موسوعته الخالدة «المعسول» وبها نظم جلّ قصائد ديوانه الحالم الرقيق.

وفي سنة 1365 هـ سمح له ثانية بالعودة إلى موطن الذكريات وربع الأحبة والأصدقاء. فعانقته مراكش ثانية في شوق وحنين وعاد سيرته الأولى معها معلما ناصحا مرشدا.

ولما أصبحت وكرا للتآمر على مقدسات الأمة وعلى رمز عزها ومجدها **البطل المجاهد محمد الخامس** غادرها إلى البيضاء سنة 1951م، ومع انفجار الهجمة الاستعمارية الشرسة على المشروعية المغربية وعلى **محمد الخامس رمز السيادة وقائد الكفاح الوطني**، نفي مجاهدنا الكبير إلى «اغبالن كردوس» حيث ظل رفقة جماعة من المناضلين إلى أن بزغ فجر الانعتاق والحرية.

واعترافا بعلمه وفضله وتقديرا لجهاده ونضاله عين وزيرا للأوقاف في أول حكومة مغربية، ثم تفضل **صاحب الجلالة** فعينه وزيرا للتاج، وظل في هذا المنصب إلى أن استأثرت به رحمه الله في 15 نونبر 1963.

هذه هي حياة المختار السوسي: سفر قيم من أسفار تاريخ أمتنا المجيد، الزاخر بالبطولات والمفاخر، صفحة مشرقة من صفحات مقاومة شعبنا للغاصب الدخيل، معلمة من معالم الطريق لكل الذين يحبون هذا الوطن ويسعون لاستعادة عزه. والآن ما هي السلفية التي يومن بها. وما هي الصوفية التي يسلكها ؟.

يجب أن نتذكر أولا أنه نشأ في أسرة صوفية تنتحل الدرقاوية، طريقة على حلقات أذكارها فتح عينيه، وبترانيم أذكارها ملأ أذنيه، وقد كانت صوفية مستقيمة لا تحيد عما رسمته الشريعة السمحاء ولا تهادن الاستعمار وأذنابه، ولا تومن بالبدع والخرافات. ومتى كانت الصوفية كذلك كانت شقيقة السلفية إن لم تكن عينها، ولعل خير من يوضح لنا حقيقة موقف المختار السوسي، ويعطينا كلمة الفصل في هذا الجانب من جوانب شخصيته هو المختار السوسي نفسه، فلنسمع إليه في كتابه الذي ألفه عن والده والذي عنوانه : «الترياق المداوي في مناقب سيدي علي الدرقاوي».

«وبعد، فإني مؤلف هذا الكتاب، مبدئي هو السلفية وأنا على ذلك. وأومن بأن الدين الخالص هو ما كان عليه السلف الصالح وما لم يكن ذلك اليوم دينا، فلن يكون اليوم دينا، وأعرف أن التصوف الذي مدلوله الإخلاص في العمل بالعلم الصحيح هو الحق الذي لا غبار عليه، وأن السنة سنة وهي ما صح عن رسول الله ﷺ، وإن تمالأ الناس على تركها، وأن البدعة بدعة وإن تمالأ الناس على اعتناقها. فهذه عقيدتي، وعلى هذا أحيا، وعليه أموت. فلا أقلد في ترك سنة، ولا في اعتناق بدعة، لا شيخا ولا أبا ولا أي إنسان، فقد فتح الله بفضله أعيننا بما تلقيناه من السنة الصحيحة، فلا تغتر بقول بدعة، ولا بكرامة، ولا بخرق عادة ولا بشهرة أحد. لأننا عودنا أنفسنا أن نعرف الرجال بالحق لا أن نعرف الحق بالرجال هذا هو مبدئي أسجله هنا تسجيلا».

وما أشك في أنه كان يردد التعريف الشهير للصوفية وهو : الصوفية أن تنيخ بباب المحبوب ولو طردك.

بعد هذا أتخلص إلى جانب عظيم من جوانب هذه الشخصية النادرة الفذة، وأميط اللثام عن مظهر جديد من مظاهر عبقريتها.

إنه المختار السوسي المؤرخ الناقد، الذي خلّد سوسا وأمجادها، والذي لولاه لا ندرست معالم فترات تاريخية غنية بالدلالة. لقد كانت الفترة التي قضاها منفيا بقريته «إلغ» من سنة 1937 إلى 1945 والتي أرادها له الاستعمار فترة انكماش ويأس وخمول، فترة خصبة منتجة لم ينقطع

خلالها ثانية عن خدمة وطنه وهو يخدمه هذه المرة بقلمه السيال وعلمه الغزير.

ولنترك له الكلمة مرة أخرى يخبرنا في مقدمة كتابه «سوس العالمة» قائلا :

«فقد سودت في «إلغ» مسقط رأسي حيث ألزمت العزلة عن الناس، أجزاء كثيرة تناهز خمسين جزءا في العلماء والأدباء والرؤساء والأخبار والنوادر والهيئة الإجتماعية».

ولم يكن اختياره للموضوعات بمحض الصدفة، لكنه كان ردّ فعل عنيف لحركة الاستيلاب والاستغراب وللهجمة الشرسة التي هجمتها ثقافة المستعمر جاهدة في قطع حاضر المغرب عن ماضيه، منكرة على أهله كل ميزة وكل فضل.

لقد كان اعتقاده أن التاريخ العام الشامل للبلاد لن يكتب إلا إذا سبقته هذه التواريخ المحلية ويدعو إلى المبادرة إلى ذلك بدون تقاعس فيقول :

«أيمكن أن يتكون التاريخ العام للمغرب تاما غدا إذا لم يقم أبناؤه اليوم - والعهد لا يزال قريبا، ولما تغمرْنا أمواج هذه الحضارة الغربية الجارفة، التي تحاول منذ الآن، حتى إفساد ماضينا بما يكتبه عنا بعض المغرضين من أهلها - بجمع كل ما يمكن جمعه».

ولئن قال قائل أنه حاطب ليل. يدون الغث والسمين، فإن ذلك كان عن عمد وسابق إصرار. فهو يؤكد أنه إنما يجمع المواد الخام، ويهيء المراجع للعملية التاريخية التي لا تستهين بأي شيء، وتستنبط من كل حدث - مهما كان تافها إشارات ودلالات، هذا ما يصرح به في مقدمة كتابه المعسول إذ يقول :

«فلهؤلاء الأحفاد يجب على من وفقه الله من أبناء اليوم أن يسعى في إيجاد المواد الخام لهم في كل ناحية من النواحي التي تندثر بين أعيننا. وما ذلك إلا بإيجاد المراجع للتاريخ يسجل فيها عن أمس كل ما يمكن من الأخبار والعادات والأعمال والمحافظة على المثل العليا».

وما دمنا مع المختار السوسي المؤرخ فلنسجل بمداد الفخار أنه كان رائدا في ناحية هامة من التاريخ أهملها الكثيرون وأعني بها «التاريخ القروي» الذي اهتم بجمعه وتدوينه وتتبّع أخباره في هذه الاصقاع السوسية من وطننا العزيز. وهو يلفت الانتباه إلى هذا في مقدمة «سوس العالمة» إذ يقول :

«في المغرب حواضر وبواد، وتاريخه العلمي العام لا يمكن أن يكون تاما إلا من التواريخ الخاصة لكل حاضرة من تلك الحواضر. ولكل بادية من هذه البوادي. فإن كانت بعض الحواضر فازت بما يلقي على تاريخها العلمي بعض الضوء ينير الطريق للسالكين، فإن تلك البوادي المترامية لا تزال إلى الآن زاجية الآفاق في أنظار المتطلعين الباحثين».

وهل كانت أنباء الغ وجزولة إلا نكرة مجهولة لولا أضواء المختار السوسي الكاشفة ؟! ليس في كل ما فعل إقليمية ولا عنصرية، لأنه من أشد الناس ترفعا عنهما، واحتقارا لمن يدعو إليهما. وإنما هو البرور بالأرض التي أنبتته. والشيوخ الذين غذوا فكره وثقفوا عقله. وتدوين لما رأى وسمع، دليله في جل ما دون اللقيّ والمعاصرة كما يقول علماء الحديث.

وها هو يستنكر النعرات العصبية والإقليميات الضيقة فيقول :

«لا يدين بدين الإسلام من يرى تاريخ الشعوب بعين الوطنية الضيقة التي هي بقية من بقايا الاستعمار الغربي في الشرق. بل لو شئت أن أقول - ويؤيدني ديني فيما أقول - ».

وقد أدرك بذكائه الثاقب أن سيأخذ عليه الآخذون ما نقله من غيبيات، وما قبله من كرامات وخوارق عادات وسيلومونه على عدم التمحيص والتنقيح فيرد سلفا قائلا في مقدمة المعسول أيضا :

«ثم أنني ابن زاوية، وابن بيئة أمس، مؤمن بالروحيات الصادقة، فأقبل خرق العادة إن صح أن ذلك واقع، ولذلك فليعذرني من ليس له هذا الإيمان إن وجد في بعض التراجم من الكتاب مثل ذلك. فله دينه ولي ديني».

وإلى جانب إيمانه هذا، وقبوله لما قد لا يقبله غيره، فإنه قد يدوّن الخرافة الشعبية احتفاظا بما لها من دلالة لدى المؤرخ، لا تصديقا بما جاء فيها، وهو يصرح بهذا أيضا فيقول :

«وقد يجد القارىء - من أبناء اليوم - مما أكتبه ما يعدّه من سقط المتاع، ومما لا ينبغي أن يهتم به من يعده عند نفسه من الخرافات. ولكن لا ينسَيَنّ أنني مؤرخ».

وإذن فهي الأمانة التاريخية تفرض عليه أن ينقل الصورة كما هي دون مساحيق ولا أصباغ، أليس هو القائل :

«قلم المؤرخ الجماعة كعدسة المصور تلتقط كل ما أمامها حتى ما تقذي به العين. فكما تلتقط الإشعاعات الساطعة، تلتقط الظلال القاتمة. فإن لم يكن قلم من يجمع للتاريخ كذلك، فإنه قلم التضليل والمسخ للحقائق».

ليس معنى هذا أنه يكتفي بالجمع العشوائي دون نقد ولا تعليق، وهل يعقل ذلك ممن أُتي ذكاء فائقا كذكائه. وملاحظة دقيقة كملاحظاته، إنه يعلم متى يكفيه أن يجمع ويستعرض، ومتى عليه أن يقبل ويرفض وهو في هذا يصرح قائلا :

«ولهذا أحرص أنا في التراجم أن أذكر كل شيء مدحا وقدحا، وإن كنت أعمل فكري وأختار وأرجح لأن هذا أيضا من وظائف المؤرخ، ولا خير في مؤرخ جماع فقط من غير أن يظهر أثر فكره فيما يكتبه».

وإلى المختار السوسي المؤرخ يرجع الفضل في الاحتفاظ بأكثر من عشر مخطوطات نادرة أدرجت بنصها الكامل في موسوعته «المعسول»، ولولاه لظلت كما هي مبعثرة في خزانات الزوايا والخزانات الخاصة الخفية بالأطلس الصغير. وذلك كالظهائر المخزنية والمراسلات الإدارية وبعض الصكوك والعقود والإجازات والفتاوي، والنوادر، والوصايا التي تسلط أضواء كاشفة على فترة تمتد من بداية الدولة السعدية إلى أوائل القرن العشرين.

ومؤرخنا كما أسلفنا من علماء الحديث ومن علماء التعديل والتجريح. وتقتضيه أمانته التاريخية منتهى الدقة والتحري. فنراه لا يذكر وثيقة ولا خبرا إلاّ ذكر مصدره وأين يوجد، معرجا على وصفه إن كان مخطوطا بذكر الحجم والخط والناسخ، ثم يقابل بين الروايات ويوازن ويرجح ويقبل في النهاية أو ينفي.

وهو بهذا سبق عصره، وسار في نفس الطريق التي يسلكها النقد التاريخي الحديث.

وأخيرا لندخل مع محمد المختار السوسي حديقة أشعاره الغناء، ولنتصل بمقطوعات من شدوه وتغريده.

ولنعتذر - منذ المدخل - عن الصورة المقتضبة التي نقدمها عن هذا الجانب الهام من جوانب شخصيته اللامعة المتميزة.

فديوانه - يعلم الجميع - لم ير النور بعد. ويوم يتاح له أن يظهر سيرى الناس شاعرا فحلا مبدعا. أما الشذرات التي بين أيدينا مما التقطناه سريعا في بعض الجلسات أو في حلقات الدروس فهي لا تكفي لإبراز شاعريته، وتحديد مكانته بين صاغة القريض.

كان - رحمه الله - يتذوق الشعر البليغ، ويترنح لوثبات الخيال، ويتمايل ويردد مع الدكتور زكي مبارك قوله بأن للشعر سجدات كسجدات التلاوة. وقد كان يوما معنا في تدريس الرسالة الهزلية لابن زيدون، فرأيته يردد هذه الأبيات، وهو على المنبر يتمايل حتى ليكاد يرقص من الانتشاء والطرب.

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد
فقد زادني مسراك وجدا على وجد

أإن هتفت ورقاء في رونق الضحى
على فنن غضّ نبات من الرشد

بكيت كما يبكي الوليد ولم أكن
جزوعا وأبديت الذي لم يكن يبدي

وقد زعموا أن المحب إذا دنا
يملّ وأنّ النأي يشفي من الصد

بكل تداوينا فلم يشف ما بنا
على أن قرب الدار خير من البعد

على أن قرب الدار ليس بنافع
إذا كان من تهواه ليس بذي ود

يقول في قصيدة له، يعرب فيها عن رأيه في الشعر :

مـــا الشعرُ مـوزون بقـــافيـــة لـــه
معنى بـــأسماع الجليس ســـديـــد
لكنمـــا الشعر الـــذي إن جـــال في
الأسماع يـــذهب بـــالفتى ويعـــود
ويرن أثنـــــاء الضمير برنّـــــة
نغمـــاتهـــا يحيي بهـــا المـــؤود
فيثير مكنـــون الضمير كـــأنـــه
غصن مريـــح بـــالصّبـــا أملـــود
ينضـو الـوقـــار ترنمـــا بسمـــاعـه
من لا يرنّـــح معطفيـــــه العـــود
ويبث روحـــــا في الشعـــوب فتنتشي
عـــاد إلى عليـــائهـــا وثمـــود
هـــذا هـــو الشعر الـــذي اختـــاره
ويروق لي وأودُّه وأريــــــــــد
مثـل الـــذي يشـــدو بـــه «عـــلال» في
فـــاس، وينشره الأديب «العيـــد»

ولأنـه زعيم وطني مكـافح، ومصلح اجتماعي غيور، فقد جرّد حسام شعره هذا مناضلا بسلاح الكلمة، مدافعا بها عن الكرامـة المهضـومـة في غضبـة للشرف وثـورة على الغاصب، فلْنستمع إليه يقول :

حتى متى شعبي يُعبّـــده الجهـــل ؟
كـــأن لم يكن قطبَ السيـــادة من قبـل
كـأن لم يكن يـومـا مـديرا لتلكم المم
ـــاليـك يحمي مـا يشـاء ويحتـلّ
كـــان لم يكن بين الشعـوب محكّمـــا
إذا قـــال يحني الرأس من رأســـه يعلـو
أجـل إننـــا كنـــا وكنـــا وهكـــذا
يقـول لـــان العلم من قـولـــه القـول
ولكن إذا ألقيتَ يـــومَـــك نظرة
فكم لـوعـــة تـــذكـو وكم حسرة تعلـو
تشـاهـــد مـــا يرفضُ قلبـــك حسرة
عليـــه ويـتـــدري الـــدموع فتنهـل
لتسقـــط على الأرض السمـــاوات ولْتَهم
قيـــامـــة شعبي فـــالهـلاك ولا الجهـل
فقـد ضـاق بـالشعب الجهـول خنـاقـه
وقـد سـاء محيـاه وقـد طفـح الكيـل
فمـوت يريـح البـــال أولى من أن ترى
مـــلايين سبعـــا لا شعـــور ولا عقـل

أليس الرجـل في هـذه الأبيـات يـذوب حسرات ؟! ألـسنا نشاطره الآن جرحه الدامي وما تعانيه أعماقه من ثوره وتمزّق.

ورغم هـذه الـسليقـة المطـاوعـة، وهـذا البيان الـسلس المنقـاد فلم يكن راضيـا عن مـستوى شعره، وكـــان يتهم قريحته بالقحط والجذب

جمعته ذات يوم جلسة أدبية فيها الشعراء الكبار أمثال علال الفاسي، ومحمد العيـد، ومحمد القري، ومحمد المكي الناصري، فألقوا قصـائـد عصماء. ولم يكن شـاعرنـا قـد أعد شيئا. فألهمه الموقف الحرج هذه المقطوعة المرتجلة :

لِمَ لا أقـــــول الشعر كيف أريـــــد
وأنـــــا بنيران الشعـــــور وقـــود ؟
لم لا أقـــــول وإنني متململـــــل
في حين أن القـــــائلين جمـــــود
واتـــاهم السحر الحـلال ومـــا انتحى
قلمي أنـــا إلا صفـــا وحـــديـــد
فكري يجيش ويرتمي في أصبعي
لِمَ لا يخـــط الشعر كيف يريـــد
أيهـــزّ عـــــلال وقري ومكــ
ــي بشعرهم السمـــــا فتميـــد ؟
وتقـودهم بـــائيـــة «العيـــد» التي
عرفت بـــذاك السحر كيف تقـــود
فتطير في جـــو الخيـــال بهم إذا
بهم بيـــــان ســـاحر معبـــود
ويـبيـــل كـــل منهم متـــدفقـــا
وأنـــا أمـــام عبـــابـــه جلمـــود

أيكـــــــــون حظي بينهم حصرا ولي
قلب بـــأشجـــان الشعـور عميـــد ؟!
وتنهــــــــدات يستثير لهيبهـــــــــا
ديني الغريب وشعبي المنكـــــــــود
حتى أنـــا يـــذكـو الأسى بجـوانحي
لِمَ لا أقـــول كقـــولهم وأجيـــد ؟
هـل فـــاتني الـــذوق السليم فيستوي
عنـــدي الشـويعر والبليـغ العبـد ؟!
أم ليس عنــــــدي فكرة نفـــــادة
فيضـلّ عن أنظـــارهـــا المقصـود
كـــلا ولكن مـــا دريت فهـــاهتي
من أي جلـــد عيبهـــا مقـــدود
من بيئتي ؟ أم من فـــــاد تعلّمي
أم ذاك شيء أورثتـــه جــــدود ؟!
كم مرة قلمي يحس بخـــالـــج
حتى يهمّ إذا بــــــه مفقـــــود
مـــا قلتُ قـــط قصيـــدة يرضى بهـــا
ذوقي السليم وفكري المحـــــدود
لا الـــوصف أتقنـــه ولا غـــزلا ولا
مـــدحـــا، ولا وحي الضمير أجيـــد

هكذا يتحامل على إنتاجه، بينما يغرق الآخرون أشعـارهم في بحـار من القريض والثنـاء. لكن حـذار من تصديقه هذه المرة فقط. فهو تواضعه وطموحه جعلاه لا يرضى حتى عما يعجب منه به الكثيرون.

فقد كان أدباء عصره يجلّون قدره، ويعلون منزلته، فبايعوه أميرا لشعراء المغرب في الذكرى الأليفة لشاعر العروبة الخالد أبي الطيب المتنبي التي أقيمت سنة 1354 هـ بعد أن ألقى فيها قصيدته العصماء وفيها يقول :

هـزت قبـور بني حمـدان في حلبـا
ذكرى تسـابـق فيهـا ألسن الأدبـا
اليـوم تسترجـع الآداب دولتهـا
يـا سعـد من يتلـذ الشعر والادبـا
مـاست على الراحـة الأقلام من طرب
ومن ينـل مبتغـاه فليمس طربـا
تختـال بين سطـور الطرس مشية من
نـال انتصـارا على الأقران والغلبـا
فـازت على السيف فـاختـالت بغبطتها
والسيف في غمـده ينقـدّ مكتئبـا
اليـوم للمتنبي يـوم معجـزة
أجل لحـاظك كيمـا تبصر العجبـا
أحيـا لنـا الادبَ الحيّ النضير وقـد
أمسى زمـانـاً يبـابـاً دارسـاً خربـا
قـالـوا : تنبّـأ إلحـاداً ومخرقـة
وأظلم الكفر في سودائـه قصبـا
اللـه يعلم أن الإفـك مـا زعمـوا
تستشهـد العقل والتـاريخ والأدبـا
لكن تنبـأ عجبـا فـالقريض ولـو
فـازوا بـآيـاتـه تـألّهوا عجبـا

أمن يقول مثل هذا الشعر الجزل، وتواتيه مثل هذه المعاني يتطرق الشك إلى شاعريته وموهبته ؟.

وقد سبق أن أشرت إلى الفترات الحرجة التي مرت به، وكان من أشدها قوة عليه إجباره على مغادرة مراكش التي منحا قلبه، وتلامذته الذين غدوا فلذات من كبده فأطلق هذه الزفرة الحرى. قائلا : تحت عنوان : قالوا... وقلت،

يقـولـون صبرا إنـه بـك أجـدر
فقلت : نعم، لكنني كيف أصبر ؟

وقـالـوا تكلف مـا استطعت فربمـا
فقلت لهم لقـد حـاولتـه ثم أقهر

وقـالـوا تجلـد في النـدي قلت قـد
أبـاغت حينـا بـالـدموع تفجر

وقـالوا تباعـد مـا استطعت فقلت قـد
تبـاعـدت لكني على الرغم احضر

وقـــالـوا أتبكي كـل من قـــد تركتهم ؟
فقلت لعيش فيهم ليس يكفر
وقـــالـوا ألم تقـــدر تنـــاسي ذكرهم
إلى أن يعــودوا قلت لا لست أقـــدر
وقـــالـوا أهم أيضـــا وفـوا ! فقلت إنني
على كـل حـــال إنني لست أغـــدر
وقـالـوا قـد استعبـدت بـالشـوق قلت هـل
يفي في النـــــوى الافتي متخير ؟
وقـــــالـــــوا ألست الحر قلت لهم بلى .
ولكنني من ودهم لا أحرر
وقـالـوا من أعلى النـاس عنـدك سؤددا
ومن أزكى فخرا في الـورى حين يفخر ؟
فقلت : بني الحمراء شيخـــا ويـافعـــا
وليس كراءٍ من بـــــذلـــــك يخبر
وقـــالـوا سبى المراكشيـون عقلـــه
فقلت : أنـــا مختـــارهم مـــا أخير

هل سمعتم بأصدق من هذا الوفاء ؟ وهل لمستم أمتن من هذا التعلق ؟ إنه قلب محمد المختار الكبير، وروحه الشفافة المرهفة، إنه التجاوب الروحي، والالتقاء العاطفي بين أب حنون عطوف وأبناء كرام بررة.

وأدركه عيد المولد النبوي الشريف وهو يعاني الأسر والحجر في منفاه بالغ فعادت به الذكريات إلى أمثال هذا العيد في «البهجة الحمراء»، إذ النـاس نـاس والزمـان زمـان، وإذا الشمل جميع، والصفو لا يشوبه كدر. ومع إشراقة العيد أرسل هذه العبرات السخية :

لا فطر يهيــــــج ولا ميــــــلاد
بـــان الصحـــاب فبـــانت الأعيـــاد

عـــودت أعيـــادا يجئن ضـواحكـــا
فبـــأي وجـــه جئت يـــا ميـلاد ؟

قـــد كنت في الحمراء لي عرســـا وفي
إلـــغ تعـــود، وأنت لي إحـــداد

إذ نحن في مراكش زهر الربـــــــــا
طلتـــه تحت يـــد النسيم عهـــاد
نغـــدو ونمـي في السرور كـــأنمـــا
يطـوي بنـــا آفـــاقـــه منطـــاد
أنستني الحمراء إلـــــــــــغ وأنست
حتى لأحسب أن بهـــا الميـــلاد
وأشـــاد لي أبنـــاؤهـــا من بينهم
مـــا ليس بين الأقربين يشـــاد
هم ـ لا بنـو أمي ـ أشقـــائي وهـل
لي غيرهم بين الـــورى أعضـــاد
ولـــدتهم الحمراء لي فـــأنـــا بهم
لا بـــالألي ولـــدتهم أجـــداد
هم إخـوتي وصحـــابتي وأقـــاربي
وعشيرتي والأهـــــــل والأولاد
تـــاللـــه لا أرضى سـواهم مـــا بـدت
شمس الضحى وتـــوالت الآمـــاد
وجرت دمـــــــائي في شراييني وإن
كره العـــــدو وغيظت الحســـاد
فـــاللـــه والمـلأ الكرام وكـل من
يتلـو القصيـد ـ وقـد كبـوا ـ أشهـاد

وما أسدت إليه الحمراء ـ فيما يعلم الله ـ عشر معشار ما يستحق من تقدير وتكريم رغم أنها كانت تفرش خدها لنعليه وتتهافت على تقبيل راحتيه، وتحيطه بما هو أهل لـه من هالات التمجيد التي تليق بأمثالـه من زعماء الاصلاح، وأئمة الهدى.

وأختم هذه الباقة المتضوعة من أدبه بالجانب المرح منه، فقد كان أبعد الناس عن التزمت، وكان يتذوق النكتة البارعة ويطرب لها، قال فيما يعانيه من يخاطب غبيًا :

لَحَمـلُ الصخر في يـوم شـــديـــد
ونقش بـــالأظـــافر في الحـــديـــد
أحبّ إلى من إيصــــــــال معنى
دقيـــق الفهم للـــــذهن البليـــد

وعلم ذات يوم أن أحد أصدقائه مريض فذهب لعيادته، ففوجئ بعدم وجوده بمنزله، فقال على الفور :

وأعجبُ ما قد سمعنا به
مريض يعـاد ولا يـوجـد

وعثرت على رسالة أخوية كتبها من البيضاء إلى صديق له خياط بمراكش، مؤرخة بـ 2 شعبان 1375 هذا نصها :

«الأخ سيدي محمد خياط الشباب وعليكم السلام. أيا مرحبا برسالة تنم عما في قلب الأخ من أشواق ربما توازي أشواقنا إليه، ومن القلوب إلى القلوب دلائل، فقد حركتم الساكن إلى الرميلة وأبناء الرميلة ومسجد الرميلة، وجيران الرميلة، فمن ينسى تلكم الأوطان التي فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، فما شئت من نظفة صافية، وأخلاق دمثة، وإخاء متين، ودين خالص. وكرم، فليتق الله السائلون.

وبعد، فهذه البيضاء يحاول كرمها وسكانها الأماجد أن يعزوكم علي «مختاركم» فعضوا عليه بالنواجذ، وراسلوه في كل وقت وتعهّدوه بالأقلام وبالأقدام قبل أن يعلق الرهن فيصير بيضاوياً، فمن شيمة الإنسان أن يألف الجديد، وإن كان القديم مما لا ينبغي أن ينسى».

وأخيرا فإن شخصية نادرة كشخصية محمد المختار السوسي متعددة الجوانب باهرة الأعمال، عميقة التأثير، جديرة بأن يوقف عندها وقفة التأمل والاعتبار، وأن يستلهم من جهادها ونضالها وإنتاجها، وأن تظل مثالا يحتذى وقدوة تتبع.

فسلام عليه في الخالدين.



إلـهي لا تُعَـذّبني *

للشاعر الأستاذ علي الصقلي

«إلهي لا تعـــذبني، فـــإني» — وإن أفرطت جهـــلا في التجني

فلي ثقـــةٌ بعفـوك، حيث إني — «مُقِرٌّ بـالـذي قـد كـان مِنّي»

«فمـالي حيلـةٌ إلاّ رجـائي» — لجُـــودٍ لا تكـــدره بضَنّ

لبـابك جئت يحدوني ارتقـابي — «لعفوك إن عفـوتَ وحسنُ ظني»

☆ ☆ ☆

«وكم من زلة لي في الخطـايـا» — طحتُ بـالنفس في دَرَك التـدنّي

فقلتُ عَسـاكَ تمحوهـا، ولِمْ لا ؟ — «وأنت عليَّ ذو فضـــل ومَنّ»

«إذا فكرتُ في نَـدَمي عليهـا» — وكـاد الـدهرُ يطـوى جَرْسني

تـــولاني الأسى حتى أراني — «عضضت أنـاملي، وقرعت سني»

☆ ☆ ☆

«أجنُّ بـزهرة الـدنيـا جنـونـا» — وكم عـاقرتهـا دنـا بـدنّ

ولـــو أني اتعظت لكنت أخشى — «وأقنـع طـول عمري بـالتمني»

«فلـو أني غضضت الطرف عنهـا» — وذلـك، لـو أرى، أجـدي لِشـأني

لكنت أمنتُهـا، والحـالُ أني — «قلبت لأهلهـا ظهر المجَن»

☆ ☆ ☆

«يظن النـاس بي خيرا، وإني» — لأشقى الكـون من إنس وجن

وتلـك عقيـدة في النفس... أني — «لشَرّ النـاس إن لم تَعفُ عني»

---

* تشطير لقطعة من نظم أبي العتاهية يتبرك بترد يدها في المحافل الدينية، علما بأن ما بين مزدوجتين للشاعر العباسي.

ليلة القرآن

للشاعر عبد الواحد أخريف

فاح الأريج معطر الأرجاء   متمايلا كتمايل الحسناء
ينساب مابين الخمائل ضاحكا   وبنفسه زهو من الخيلاء
يغشى الربوع قريبها وبعيدها   تطوافه بشرى إلى الأنحاء
في كل ربع عرفه مترقب   والشوق يلفح لفحة الرمضاء
ومواكب العشاق وحدها الهوى   وقفت لتظهر في جميل لقاء
وعلى محياها ابتسامات الرضا   قد عبرت عن كامن البرحاء
مدحت أغانيها بأعذب نغمة   ذابت لرقة لحنها أحشائي
مستبشرات كالربيع طلاقة   مترنحات في سنى وهناء
وأمامها ذهب الأصيل قد انتشى   شكرا بمقدم ضيفه الوضاء
شهر الصيام وقد بدا في أفقه   متلألئا في عزة وسناء
يهب السرور لأمة الإسلام من   عليائه بمحبة وسخاء
نفحاته روح القلوب وبرؤها   نسماته نعم الشفاء لدائي
وافى فوافت ذكريات كلها   مجد يناطح هامة الجوزاء
فرضت على مر الزمان وجودها   وغدت فخار الدهر والأحياء
أنعم بها من ذكريات لم تزل   لماعة كالشهب في العلياء !
هي بلسم الدنيا يعالج جرحها   ويمدها بسلامة ووقاء
وإذا تحدثت الشعوب بنصرها   وبما لها من عزة قعساء
نطق الزمان مرددا أمجادنا   لما جرت في «مكة» الفيحاء

لما بدا نور النبي «محمد» ... متنقلاً من بيته «لحراء»
يمشي بنور الله في أصباحه ... متزودا من هديه بغذاء
يغدو إلى «غار» ليشهد حادثا ... سيصير الدنيا جنان صفاء
وفؤاده بالهدي منساق إلى ... جبل بعيد عن هوى الرقباء
يكسو الجلال صخوره وشعابه ... وسفوحه في هيبة بيضاء
وملائك الرحمن قامت حوله ... لتصد عنه عوادي الأحياء
جدرانه نور تلألأ ساطعا ... نشوان يبدو في بديع كساء
في قلبه رقص السرور معربدا ... ومشى دبيب الزهو في الأحناء
لو كان يملك منطقا لأذاعه ... فرحا بمقدم سيد الكرماء
ذاك الفتى القرشي ذاك «محمد» ... من قد خلا بالنفس كالنبغاء
حتى يسرح طاقة من فكره ... وضميره في الكون : في البطحاء
في الجو طلقا في الفضاء مرصعا ... بالنيرات وساطع الأضواء
في الشمس يغتال الظلام طلوعها ... في البدر يكشف صفحة الزرقاء
في الرمل تلفحه الهجيرة وهو في ... مد يكوّن مشهد الصحراء
في السرب يغدو للمراعي آمنا ... يحدو له الراعي أرق حداء
في النخل في الأعشاب في ماء جرى ... في الناس في الأخلاق في الأشياء
قد كان يعبد ربه بفؤاده ... وبروحه في هدأة وخفاء
في حضن «غار» ضمه فتآنسا ... قضيا السنين على جميل وفاء
حتى دنا نور الرسالة وهو في ... نجواه يتبع سنة الحكماء
نادى منادي الوحي «إقرأ» ياله ... من موقف هز الدنا بنداء
«جبريل» جلجل صوته بدعائه ... في «الغار» لما جاء بالألآء
بالذكر «بالقرآن» ينزل مشرقا ... في ليلة فاقت بحسن رواء
لا الصبح يدرك من ضياء جبينها ... قدرا، ولا رأد الضحى بضياء
الله فضلها فأنزل وحيه ... فيها نديا، وهو خير شفاء
قد جاءنا القرآن تحفة ... وهدية كانت أجل عطاء
فتحت قلوب العالمين على الهدى ... ومحت ظلام الشرك والشحناء
ومشى الرسول بوحيها يدعو إلى ... نهج الرشاد بدعوة النصراء
فالتف حول الدين جمع رافل ... في النور والتقوى وفي النعماء
جعلوا كتاب الله أول ناطق ... حكما ينفذ أمره بمضاء
وفدوه بالأرواح والمهج التي ... استرخصوها في جميل فداء

كانوا حواريي الكتاب وجنده ... فبنوا لدين الله أُس بناء
يتلون آي الذكر في صلواتهم ... ويرجعون مثاني الأسماء
فقلوبهم مفتوحة لحديثه ... يصغون في شوق وفي استحياء
وهم الألى عرفوا البلاغة وارتووا ... من نبعها الصافي بخير ثراء
تجري المقاطع سلسبيلا صافيا ... يُحنى رؤوس مصاقع البلغاء
وجدوا كتاب الله أبلغ ناطق ... يروي الظماء في أنفس الفصحاء
راقت معانيه فكانت بلسما ... للروح من هم ومن لأْواء
واهتزت الأفنان في بستانه ... واخضرت الأغصان بالأنداء
فإذا سمعت حديثه عن جنة الر ... ضوان في وصف بديع ناء
تترنح الأعطاف منك تمايلا ... وتهيم من طرب ومن سراء
وإذا قرأت وعيده وعذابه ... للكافرين ومكثري الإيذاء
وسمعت وصف «جهنم» وزفيرها ... ووفودها في محنة وشقاء
ولهيبها يشوي الإهاب ممزقا ... من ساكنها ضمة الأحشاء
ناديت : رب سلامة وسماحة ... الطف فعبدك أضعف الضعفاء
وإذا مضيت مع الكتاب ممتعا ... إنسان عينك في حلى وبهاء
حمل الكتاب إليك أخبار الأُلى ... بادوا من الكفار والأعداء
فعرفت مصرعهم وسوء مصيرهم ... إذ كذبوا بالوحي والأنباء
وعلمت من سعدوا وسادوا واعتلوا ... متمتعين بوافر النعماء
ووجدت أن صلاتهم إيمانهم ... فهو الضمان لعزة ورخاء
وإذا أردت العدل تدري بنده ... ونصوصه لسعادة الأحياء
جاءتك أحكام الكتاب صريحة ... تضع الحلول بدون أي غطاء
وإذا أردت الوعظ يحيى أنفسا ... ويحول بين كمالها والداء
عرض الكتاب عليك ألوانا بها ... تجد القلوب مراتع الإحياء
متفيئات في ظلال عريشه ... تروى بأعذب من زلال الماء
سبحان ربي ما أجل كلامه ! ... يفنى الزمان وإنه لبقاء
لن يستطيع الواصفون وإن هم ... ملكوا زمام القول والإنشاء
أن يبلغوا في الوصف أدنى ذرة ... فكتاب ربك معجز البلغاء

☆ ☆ ☆

يامعشر الإسلام هل من عودة ... لكتابكم نور الهدى الوضاء ؟
كنز العلوم وتحفة الله التي ... زخرت بكل جلائل الآلاء

لم تهجرون دروســه وعلــومــه ... متجــاهلين مكــانــة القراء ؟!
«الغرب» أصبح مـومنـا بعلـومـه ... و«الشرق» يكفر بعد طول لقاء !
عــودوا إليــه تعــد لكم أمجــادكم ... كــالشمس تكشف غمــة الظلمــاء
وتــدارســوه وعظمــوا آيــاتــه ... شــدوا عليــه ســواعــد الأبنــاء
حتى يشبــوا مسلمين ويحفظــوا ... هــذا الكتــاب كســالف الآبــاء

طبع بأمر من صاحب الجلالة أمير المؤمنين الحسن الثاني نصره الله

المملكة المغربية
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

التمهيد

لما في الموطأ من المعاني والأسانيد

تأليف:
الإمام أبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد
بن عبد البر النمري القرطبي
(368 - 463هـ)

الجزء الحادي عشر

تحقيق:
الأستاذ مولاي مصطفى بن أحمد العلوي

1406 هـ - 1985م

وظيفة القيّم في تاريخ الخزانة المغربيّة

للدكتور
أحمد شوقي
بنبين

إذا كانت كلمة «خزانة» أو «مكتبة» كلمة قديمة فإن المؤسسة التي أطلقت عليها أقدم منها بكثير. وتاريخها الذي هو تاريخ مجموعات الكتب الموضوعة للعلماء شديد الاتصال والقرابة بتاريخ التراث والحضارة. وقد كان اليوم الذي تمكن فيه الناس، بفضل الكتابة، أن يحافظوا على إنتاج الأدباء والعلماء بداية لجمع المخطوطات. وبتوالي الأحقاب وتعاقب العصور تألفت من هذه المخطوطات مجموعات خطيرة يرجع الفضل في ادخارها إلى أرباب البحث والتنقيب عند الأمم الماضية. وهؤلاء العلماء الذين حفظوا لنا هذا التراث الإنساني واعتنوا به والتقطوه من المساجد والمدارس والزوايا والقصور هم الذين سميناهم «الأمناء» أو القيمين أو غيرهما من الأسماء. إن مجموعة العمليات المكتبية التي يطلق عليها اليوم البيبليوتيكونوميا (Bibliothéconomie) في علم المكتبات الحديث ـ وتتلخص في التسيير والتنظيم والفهرسة والتصنيف وما إليها ـ كانت تسند إلى هؤلاء القيمين يمارسونها بأنفسهم أو يتولون الإشراف على من يقوم بها في الخزانات العتيقة. واليوم وقد تشعبت المعارف وتداخلت العلوم، وتعددت التخصصات، وكثرت المؤلفات، فإن الخزانات قد تضخمت وأعمالها العلمية قد تشعبت، وأدى هذا إلى ظهور قيمين جمعوا بين الثقافتين العلمية والتقنية تمكنوا بفضلها من التحكم في محتوياتها الغنية، وجعلوها تلعب الدور المنوط بها في تقدم مسيرة البحث العلمي الحديث. فاعتبارا لما تكتسيه اليوم هذه الوظيفة من أهمية، ونظرا لما يقوم به القيم في الخزانة من عمليات علمية وتقنية وتوجيهية ارتأينا أن نبحث في هذه الوظيفة عند القيمين المغاربة الذين تحملوا هذه المسؤولية العلمية الشريفة على مر العصور.

فما معنى كلمة قيم ؟ ومن أي فئة من الناس كان يتم اختياره ؟ وما هي الوظائف التي كان يقوم بها في خزاناتنا المغربية التي يشهد التاريخ أنها كانت ولا تزال تزخر بنوادر الكتب ونفائس المخطوطات ؟ أسئلة ثلاثة نجيب عنها في هذا العرض الوجيز.

القيم لغة هو السيد، وقيم القوم : الذي يقومهم ويسوس أمرهم[1]، ولم تطلق على المشرف على الخزانة إلا

(1) انظر لسان العرب لابن منظور.

في القرون الأخيرة[2]. ومن المصادر الأولى التي نجد فيها الكلمة بهذا المعنى «جنى زهرة الآس» للجزنائي في القرن الهجري الثامن[3]. أما القدماء فكانوا يلقبون القيم بعدد من الألقاب، أولها «صاحب المصاحف» الذي أطلق على أول قيم تفصح عنه مصادر التراث العربي. يقول المعاني في كتاب «الأنساب» :[4] كان «سعد» صاحب المصاحف بخزانة الوليد بن عبد الملك الأموى (96 هـ).. والمصاحف آنذاك كانت تعنى الكتب المجلدة قبل أن تختص بالقرآن الكريم[5].

وبعد ما أصبحت كلمة «مصحف» علما على القرآن الكريم أصبح القيم يلقب «بصاحب الخزانة» عوض «صاحب المصاحف». ومن العلماء الأوائل الذين نعتوا بهذا اللقب سهل بن هارون الذي تولى الإشراف على خزانة بيت الحكمة في بغداد على عهد المامون العباسي. وبعد ذلك العصر نجد المصادر التي تشير عرضا إلى دور الكتب في القديم سواء في الشرق العربي أو في الغرب الإسلامي تسمى القيم بأسماء مختلفة : فمنها «الخازن» التي أطلقت على قيم الخزانة التي أنشأها سابور بن أردشير في بغداد في أواخر القرن الرابع الهجري (383 هـ)[6]. ومنها «الوكيل» وقد أطلقت على قيم خزانة المدرسة المستنصرية ببغداد في القرن السابع الهجري كما أطلقت هذه التسمية على قيم إحدى خزائن فاس في القرن التاسع الهجري حسب ما جاء في «الرسالة المجازة» لعلى الغماري[7]. وقد لقب القيم كذلك «بالمشرف» على الخزانة و«بالأمين» عليها كما استعملت عبارات أخرى للتعبير عن هذه الوظيفة كقولهم : «ولاه أمر خزانته» أو ألزمه خدمة خزانة الكتب كما قيل عن علي الشابشتي حين جعله العزيز بالله الفاطمي على رأس خزانته بالقاهرة، وعن ابن الصقر لما كلفه الخليفة الموحدى عبد المومن بالخزانة الملكية الموحدية بمراكش.

وقد جرت العادة أن تسند الخزانة إلى قيم واحد يقوم بشؤونها، ويمكن أن تسند إلى قيمين أو ثلاثة إذا دعا حجم الخزانة وضخامة محتوياتها إلى ذلك : يقول «لومبريير» Lemprières. في رحلاته[8] (Voyages) : كانت خزانة السلطان العلوي المولى محمد بن عبد الله تزخر بآلاف المخطوطات مما دعا السلطان إلى تعيين قيم آخر لمساعدة المشرف الأعلى.

وتروي المصادر أن خزانة المدرسة المستنصرية قد أسندت إلى أشخاص ثلاثة : الوكيل وهو المشرف الأعلى، والخازن مساعده، والمناول[9].

أما الفئة التي كان يختار منها القيم للإشراف على الخزانات العلمية فهي فئة العلماء المبرّزين المتضلعين في العلم واللغة والأدب. وهذه الظاهرة تكاد تكون عامة عند القدماء. فالقيمون الذين تولوا الإشراف على أكبر خزانة في العصر القديم خزانة البطالسة بالأسكندرية كانوا من العلماء الأجلاء ومن أرباب اللغة والأدب والفلسفة : نذكر منهم «ديمتريوس» (Demetrios) الذي وضع النواة لهذه الخزانة العظيمة والذي يعده جورج سارتون صاحب «تاريخ العلم» أول قيم في العالم[10]. كما نشير إلى الشاعر الكبير كاليماخوس (Callimacus) الذي ولاه البطالسة أمر هذه الخزانة في القرن الثالث قبل الميلاد، واستمر على رأسها عشرين سنة (260 ـ 240 ق م).

إن هذا القيم هو الذي وضع فهرسها المشهور : «قوائم جميع المؤلفات الهامة في الثقافة اليونانية وأسماء مؤلفيها[11]» الذي لو بقى كاملا لكان أشبه شيء «بالفهرست» لابن النديم

---

2) حتى زمن ابن منظور لم تكن كلمة «قيم» تعنى أمين الخزانة، ولم توجد بهذا المعنى في معجمه «لسان العرب».

3) الجزنائي : **جنى زهرة الآس** ص 76، المطبعة الملكية، الرباط 1967.

4) Eche youssef **Les Bibliothèques Arabes.** P. 18 Damas 1967.

5) هناك نص في كتاب «القصد» لابن عبد البر جاءت فيه كلمة «مصاحف» بمعنى كتب، ويتعلق الأمر بفتح طليطلة وعثور الفاتحين على مصاحف حملت إلى الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك : انظر **«القصد والأمم في التعريف بأصول أنساب العرب والعجم»** لابن عبد البر. ص 34 ط. 1350 هـ. القاهرة.

6) زارها أبو العلاء المعري في القرن الخامس الهجري وتحدث عنها كثيرا. انظر : ياقوت الحموى : **معجم الأدباء** ج 17 ص 267 ـ 268.

7) على الغماري : **الرسالة المجازة في معرفة الإجازة.** انظر رسالة المغرب ب عدد 11 ص 42 ـ 43 عام 1943.

8) Lemprière : **Voyages** P. 202 ed 1790.

9) معروف ناجي : **تاريخ علماء المستنصرية** ص 274 ط 1959.

10) جورج سارتون : **تاريخ العلم** ج 4 ص 259 من الترجمة العربية.

11) المصدر السابق ص 272 ـ 273.

الذي يعتقد بعض الباحثين في الغرب أنه كان أمينا على خزانة بيت الحكمة العباسي، وأن كتابه هذا لم يكن إلا فهرسا شاملا وموسّعا لهذه الخزانة[12].

وعند أسلافنا العرب كان منصب أمين المكتبة يشغله أناس في الذروة علما وفضلا وأدبا ومكانة. فإن لم يثبت تاريخيا أن ابن النديم قد تحمل بالفعل مسؤولية بيت الحكمة، هذه المؤسسة العلمية التي سكت عنها التاريخ في القرن الهجري الرابع فإن المصادر تزودنا بأسماء عدد من العلماء من كبار حملة القلم وذائعي الصيت في ميادين التأليف والمعرفة قد تولوا هذا المنصب : يحدثنا ابن الأبار في «التكملة» أن تليدا الخصى كان خادم الحكم الثاني المستنصر بقرطبة وكان صاحب خزانته العلمية[13]. وتحدثنا النصوص التاريخية أن مسكويه العالم المشهور كان قيّما على خزانة عضد الدولة ثم على خزانة ابن العميد، وأن أبا حيان التوحيدي كان قيما على خزانة ابن عباد، والإسفراييني شغل منصب أول خازن لمكتبة المدرسة النظامية ببغداد[14]، وعلى الشابشتي ولاه العزيز بالله الفاطمي أمر خزانة كتبه[15]، والشريف المرتضى كان وكيلا لمكتبه سابور بن أردشير وزير البويهيين، وهلال الصابى كان مشرفا على دار العلم ببغداد[16]. ومن العلماء الأعلام الذين شغلوا منصب الخازن بمكتبة المدرسة المستنصرية الكاتب والمؤرخ والفيلسوف ابن الفوطي[17] (724 هـ)، ثم المؤرخ واللغوى والمفسّر والفقيه علي بن أنجب ابن الساعي البغدادى الملقب بالخازن[18].

أما فيما يخص المغرب فإن المصادر التي لا تشير إلى هذه المؤسسات العلمية إلا عرضا، كما قلنا، فضلا عن أن تحدثنا عن الأنظمة البيليوتيكونومية (Bibliothéconomique) التي كانت تخضع لها الخزانات، فإنها مع ذلك تجود علينا من حين لآخر بأسماء بعض الذين تحمّلوا هذه المسؤوليات العلمية. وبعد استقرائنا لهذه الأخبار النادرة المتعلقة بهذه الوظيفة نستخلص أن المغاربة لم يخرجوا عن الطريقة المشرقية في اختيار العلماء وتكليفهم بمهام خزاناتهم، بل إن حبهم للعلم وللعلماء وتقديسهم لكل ما هو مكتوب جعلهم يسندون هذه المهمة لا إلى العلماء الأعلام فقط بل أسندوها كذلك إلى القضاة والوزراء والأمراء.

فالنصوص التاريخية تحدثنا أن المكتبات العامة المغربية الملحقة بالمساجد في الغالب الأعم كانت تسند عادة إلى عالم من علماء العصر المبرزين للقيام بشؤونها. فلما انتهى العمل من بناء خزانة مسجد القرويين في أواسط القرن الثامن الهجري يخبرنا الجزنائى أن أبا عنان المريني قد عين لها قيما لضبطها ومناولة ما فيها وأجرى له على ذلك جراية[19]. ولم ينحصر اهتمام هذا الخليفة عند الخزانة الكبرى المخصصة لرجال العلم بل أنشأ خزانة أخرى داخل الجامع وخصصها لقراء القرآن والحديث وعين لها قيما للاهتمام بها. يقول الجزنائى في «زهرة الآس» : «وأما خزانة المصاحف التي جعلها مولانا المتوكل أبو عنان رحمه الله في قبلة صدر هذا الجامع فإنه أعد فيها جملة كثيرة من المصاحف الحسنة الخطوط البهية الجميلة السنية... وعين لها من ينفرد بإخراجها من هذه الخزانة وإبرازها، وردّها لصيانتها في موضعها وإحرازها وذلك عند الفراغ من حاجات الناس إليها»[20].

ولما أعيد بناء هذه الخزانة وأضيف لها جناح جديد على عهد السعديين في أواخر القرن العاشر الهجري ارتأى

---

12) ماهر حمادة : **المكتبات في الاسلام** ص 163. ط 1970.

13) لقد ثبت أن الحكم هذا قد أسند هذه المهمة إلى أخيه الأمير عبد العزيز بن عبد الرحمن الناصر، ومن هنا نستخلص أن هذه الوظيفة كانت تسند إلى الأمراء أنفسهم في الغرب الإسلامي.
انظر المقرى : نفح الطيب : ج 1 ص 184.

14) ياقوت الحموى : **معجم الأدباء** ج 17 ص 237، القاهرة 1936.

15) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج 3 ص 8 القاهرة 1948.

16) شرح سقط الزند للمعري. انظر كذلك **المكتبات الإسلامية** لماهر حمادة ص 153.

17) معروف ناجي : **تاريخ علماء المستنصرية** 296 ـ 297.

18) المصدر السابق : ص 280.

19) الجزنائي : جنى زهرة الآس : ص 76، الرباط 1967.

20) نفس المصدر.

الخليفة المنصور الذهبي أن يعين على رأسها أحد العلماء من أبناء أبى المحاسن يوسف الفاسي غير أن الأخير حسب ما جاء في «مرآة المحاسن» قد اعتذر للخليفة[21].

ومن بين العلماء المبرزين الذين تولوا الإشراف على هذه الخزانة عبر العصور، محمد الطيب بن عبد السلام القادري وأبو الحسن علال بن جلون ومحمد بن التهامي الوزاني وأبو العباس البوعزاوي الذي كان آية في فن الكتب والمكتبات[22].

ومن العلماء الكبار الذين عينوا قيمين على خزانات المساجد أبو عبد الله محمد بن قاسم السجلماسي (شارح العمل الفاسي) الذي أسند له السلطان العلوي المولى محمد ابن عبد الله خزانة المسجد الأعظم بالرباط[23].

أما خزانات الزوايا وخزانات المدارس العتيقة التي كانت مأوى للطلبة الآفاقيين فإن شيخ الزاوية أو أحد شيوخ المدرسة هما اللذان يتكلفان في الغالب الأعم بمهمة الإشراف على الخزانة. يقول الناصري في «المزايا» عن خزانة زاوية تامكروت : «والذي أدركنا عليه من هو أهل للولاية بالزاوية ينظر الأصلح الأقوى الأعلم فيفوض له الأمر في الكتب»[24].

وبالنسبة للزاوية الحمزية يختار القيم من سلالة شيخ الزاوية، ولا تزال هذه العادة قائمة إلى الآن.

وكما كان الخلفاء والملوك المغاربة يختارون كبار العلماء لتكليفهم بمهمة القيمين على الخزانات عامة كانت أو ملكية، فإنهم كانوا يكلفون القضاة كذلك بهذه المهمة، وكلنا يعلم أهمية وظيفة القاضي في العصور السابقة. فالخليفة يوسف بن عبد المومن الموحدي اختار لتسيير خزانته الملكية وضبطها القاضي أبا العباس أحمد بن الصقر[25] الأنصاري. يقول عنه ابن عبد الملك في الذيل والتكملة : «ولما صار الأمر إلى يوسف بن عبد المومن ألزمه خدمة الخزانة العالية، وكانت عندهم من الخطط الجليلة التي لا يعين لتوليتها إلا علية أهل العلم وأكابرهم، واستمر على رأس الخزانة على عهد يعقوب المنصور الموحدي» (جزء الأحمدين)[26].

ومن القضاة الذين تحملوا هذه المسؤولية في المغرب أبو عبد الله محمد بن أحمد ابن السيد العلوي الذي أسند له السلطان سيدي محمد بن عبد الله العلوي خزانته العامرة[27].

ومما نلاحظه عند الملوك المغاربة أنهم يأمرون القضاة بمراقبة الخزانات المسندة إلى العلماء أو بالإشراف على تنظيمها. فالسلطان العلوي المولى عبد الرحمن ابن هشام طلب من القاضي عبد الهادي بن عبد الله التهامي العلوي القيام بمراقبة خزانة القرويين. ولما عزم السلطان المولى الحسن الأول على إدخال إصلاح على هذه الخزانة أرسل ظهيرين إلى قاضيي فاس آنذاك محمد العلوي المدغري وحميد بناني يحثهما على مساعدة القيم والناظر في إصلاح الخزانة وإعادة تنظيمها[28].

ولم يقف الملوك المغاربة عند تسليم مأموريات الخزانات إلى القضاة بل تجاوزوهم إلى الوزراء وعينوهم قيمين على مكتباتهم الخاصة. ومن بين الوزراء الذين أسندت لهم هذه المهمة أبو الحسن علي بن أبي جامع وزير الخليفة العادل الموحدي، ويتضح من نص ابن عبد الملك في «الذيل والتكملة» المتعلق بهذا الشأن أنه لما انتهبت الخزانة الملكية الموحدية في جملة ما نهب بعد الحرب التي دارت بين الأمراء الموحدين فيما بينهم خرج من قبل العادل أمر بتكليف على الوزير المذكور، فظن الحاجب أن الخليفة يقصد علي ابن القطان العالم الكبير وأحد مفاخر المغرب في العصر الموحدي.

---

21) العربي الفاسي : مرآة المحاسن. ص 30 فاس 1905.

22) محمد العابد الفاسي : فهرست خزانة القرويين ص 25 ج 1 ط 1979 انظر كذلك العابد الفاسي : **الخزانة العلمية بالمغرب** ص : 67 ـ 68.

23) أبو جندار محمد : **مقدمة الفتح** ص 149 الرباط 1926.

24) ابن عبد السلام الناصري : **المزايا** ص 47 مخطوط الخزانة الحسنية رقم 4297.

25) كان قاضيا بغرناطة واشبيلية ومراكش.

26) ابن عبد الملك : **الذيل والتكملة**. جزء الأحمدين. وانظر كذلك **الإعلام** للمراكشي الجزء الثاني. ص 76 الرباط 1974.

27) عبد الحي الكتاني : **فهرس الفهارس**. ج 2 ص 381.

28) العابد الفاسي : **الخزانة العلمية بالمغرب** ص 71 ـ 72.

يقول ابن عبد الملك : ولما صار ذلك كله إلى ابن القطان وحازه وحسنت حاله به وسر بما منح منه رفع إلى العادل شاكرا له هذا الإنعام الجزيل، فأنكر العادل ما صدر عن ابن القطان من ذلك ولم يعرف سببه، فسأل وزيره عنه فقال : إنه لما خرج الأمر بنظر علي في ترتيب الكتب لم يخالجه شك في أن المراد يعلى ابن القطان لأنه كان الناظر فيها في المدة المتقدمة.

ومن بين القيمين الوزراء أحمد بن الحسن اليحمدى 1124 هـ وزير السلطان المولى اسماعيل العلوي. تحدثنا المصادر المعاصرة له أن الخزانة الإسماعيلية كانت من الضخامة والأهمية ما جعل السلطان يختار لها أحد كبار عصره من العلماء الوزراء للقيام بشؤونها. يقول عنه مصباح الزويلى في كتابه : سنى المهتدى إلى مفاخر الوزير اليحمدى :

«ولأمر ما خصه مولانا المنصور بالله بأنعم لم يشاركه فيها سواه، واختاره دون سائر البرايا لرتب جليلة ومزايا، وقلده مفاتيح الخزانة المولوية التي حوت من التصانيف، وجمعت من أنواع الدفاتر وأسماء التآليف، ما لم تحوه خزانة بغداد.. وجعله الأمين عليها بعد أن مدت أعناق قوم شتى إليها، علما منه أيده الله أنه ليس في البساط المولوى من يضاهيه، ولا فيه من يقاربه أو يدانيه، في علمه وحزمه وصيانته، وعزمه وثقته، فنسخ اسم ما فيها في صحيفة صدره وارتسمت علومها في مرآة فكره»[30].

وجاء في «أنس السمير في نوادر الفرزدق وجرير» لنفس المؤلف : ولما التقيت مع لسان الدولة الوزير الرئيس أحمد بن الحسن اليحمدى سنة 1124 بدار الخلافة وكان هو قيم الخزانة المولوية المحتوية على ما لا يحصى من كتب الأدب وغيرها...»[31].

هذه نماذج من الفئات التي كانت تسند إليها وظيفة الإشراف على الخزانة، فما هي إذن هذه الوظيفة المكتبية التي كان يقوم بها القيمون ؟.

من خلال اهتمامنا بتاريخ الخزانة المغربية وجولاتنا العلمية فيها وقراءاتنا في محتوياتها اتضح لنا أن القيم كان يقوم بأكثر من وظيفة. ولئن كانت مهمة القيم اليوم تنحصر في اختصاص معين لا تتعداه إلى غيره وأن كل مكتبة تحتاج إلى قيمين للقيام بشؤونها فإن الخزانة القديمة يتولى أمرها أمين واحد ويمارس بنفسه جميع العمليات المكتبية الأساسية التي يجمعها القدماء في كلمة «ضبط» وتعني : التنظيم الشامل لمحتويات الخزانة بما في ذلك مهمة المناول التي لا يقوم بها اليوم إلا مساعدون ذوو ثقافة بسيطة. فصاحب زهرة الآس يقول عن أمين خزانة القرويين : وعين لها أبو عنان قيما لضبطها ومناولة ما فيها[32].

ويقول صاحب الرسالة المجازة : كان الوكيل يعطي الكتب للطلبة[33].

ويتضمن الضبط ترتيب الخزانة وتصنيفها تصنيفا موضوعيا. فصاحب الدرر المرصعة : يحدثنا بأن أبا العباس ابن ناصر رتب محتويات خزانة الزاوية حسب العلوم وجعل لكل نوع علامة تميزه عن غيره[34].

وتتميما لهذه العملية التصنيفية والترتيب الموضوعي كان القيمون يقومون بوضع فهارس مصنفة تعكس التصنيف المطبق في الخزانة. فقد وضع أبو العباس ابن ناصر فهرستا لخزانة تمكروت مرتبا ترتيبا موضوعيا. فحسب النختين المحفوظتين في كل من الخزانة العامة (رقم 5657) والخزانة الحسنية (رقم 975) فإن هذا الفهرس يضم ألفي مخطوط مع عدد من المجاميع. وعلى هذا الشكل وضع

29) المصدر السابق ص 68.

30) مصباح الزرويلي : سنى المهتدى إلى مفاخر الوزير اليحمدي : ص 11 مخطوط الخزانة الحسنية رقم 521.

31) العابد الفاسي : **الخزانة العلمية** ص 68.

32) الجزنائي : جنى زهرة الآس. ص 76.

33) علي العماري : الرسالة المجازة : ميكروفيلم المكتبة العامة رقم 1343.

34) محمد المكي الناصري : **الدرر المرصعة** ص 55 مخطوط الخزانة العامة. ك 265.

شيخ الزاوية الحمزية فهرستا لخزانتها وتوجد منه نسخة محفوظة بالخزانة الوطنية بباريز تحت رقم 4725[35].

وترتيب الكتب وتصنيفها وفهرستها لم يكن العمل الوحيد الذي يقوم به القيمون في هذا الإطار بل كانوا يرتبون الوثائق كذلك.

فالخزانات القديمة لم تكن لتقتصر على حفظ المخطوطات وحدها بل كانت تتجاوزها إلى حفظ الوثائق وترتيبها ضمن هذه المخطوطات. فحتى القرن العشرين كان من العسير على الباحثين والمكتبيين أن يميزوا بين المخطوطات وبين الملفات المحتوية على الوثائق، فإلى جانب أعمالهم المكتبية كان القيمون وثائقيين يرتبون الوثائق حسب العصور والموضوعات.

ويقوم القيم كذلك بعملية اقتناء الكتب التي يرى أنها ضرورية للمؤسسة العلمية التي يرأسها والتي من شأنها أن تلبى رغبات الرواد، إن عددا من شيوخ الزوايا الذي هم في الغالب الأعم قيمو خزاناتها يغتنمون فرص وجودهم في البلدان العربية الإسلامية التي يمرون بها في طريقهم إلى الشرق فيشترون من الكتب ما هو متوقع أن يطلبه الطلبة الذين يرحلون إلى الزوايا من أجل العلم، وتسمى هذه العملية عند العاملين في مجال المكتبات في وقتنا هذا بنظرية العمل المصدري القصوى.. يحدثنا الناصرى في «المزايا» أن الشيخ أبا العباس ابن ناصر اشترى لخزانة الزاوية كتبا بالأحمال من المشرق والمغرب، ولما عثر بمصر على كتب سيحتاجها طلبة الزاوية استسلف آلافا من المثاقيل واشتراها كلها كتبا[36].

ومن وظائف القيم : التربية والتعليم، فبالإضافة إلى عملهم المكتبي كان القيمون يدرسون العلم. ونلاحظ هذه الظاهرة بصفة خاصة عند القيمين على خزانات الزوايا وخزانات المدارس العتيقة. ووظيفة الأستاذية هذه تمكن القيمين الشيوخ من توجيه الطلبة وإرشادهم إلى المصادر الأساسية المتعلقة بالمواد المدروسة..

وبالإضافة إلى هذا كان القيمون يصححون الكتب ويقيدون الفوائد بهوامشها، فنسبة كبيرة من مخطوطاتنا المحفوظة بالمغرب ملأى بالفوائد والتصحيحات والزيادات التي سطرتها أيادي هؤلاء العلماء الذين تحملوا مسؤوليتها..

ولم يكن القيمون ليكتفوا بهذه التصحيحات أو بهذه الإضافات، بل كانوا ينسخون المخطوطات بأيديهم أو يشرفون على نسخها. تحدثنا المصادر أن ابن الصقر خازن المكتبة الملكية الموحدية كان وراقا في فاس، ولما أسندت له مهمة الخزانة بمراكش تابع عملية نسخ المخطوطات بها. يقول صاحب الديباج[37] : كتب ابن الصقر من دواوين العلم ودفاتره ما لا يحصى كثرة. ويقول صاحب الدرر المرصعة «إن أبا عبد الله ابن ناصر قيم خزانة تمكروت قد نسخ بنفسه كتاب القاموس للفيروزبادي والأمالي للقالي وبعض أبواب كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه[38]. وظاهرة النسخ هذه تكاد تكون عامة عند جميع أمناء خزانات الزوايا.

ومما يتميز به القيمون المغاربة في هذا الإطار هو ما يسمى بعملية التنسيخ الجماعي، فالمعروف أن هذه الظاهرة تكاد تختفي عند القيمين والناخين عموما في المشرق العربي. وكانت معروفة عند قدماء اليونان ويطلقون عليها كلمة «La Pecia» وهي عبارة عن نسخ مخطوط على يد جماعة من النساخ بمشاركة القيم أو بإشرافه. والهدف منها هو تهيىء مخطوط جيد قليل الأخطاء وفي أقرب وقت. والخزانة المغربية ملأى بالمخطوطات التي خضعت إلى عملية التنسيخ الجماعي هذه.

35) نسب خطأ هذا الفهرست إلى خزانة القرويين قبل أن يثبت أنه فهرست الخزانة العياشية وهو محفوظ اليوم بقسم المخطوطات بالخزانة الوطنية بباريز تحت الرقم المذكور.

36) محمد بن عبد السلام الناصري : المزايا فيما حدث من البدع بأم الزوايا، ص 46.

37) ابن فرحون : الديباج المذهب ج 1 ص 211 ـ 212.

38) الناصري : الدرر المرصعة ص 57 من المخطوط.

ومن وظائف القيم القيام بعمليات الإعارة سواء بالنسبة لرواد المكتبة أو بالنسبة للخزانات الأخرى. ففي ما يخص إعارة الكتب للباحثين، وهي ظاهرة تكاد تكون عامة في القديم، ليس فقط بالنسبة للمكتبات الملكية والمكتبات العمومية بل حتى بالنسبة للمكتبات الخاصة، التي كان أصحابها وهم عادة من العلماء لا يبخلون بإعارة كتبهم لذويهم ولتلامذتهم ولأصدقائهم من الباحثين. كان القيم على خزانة الزاوية العياشية مثلا يعير الكتاب ويسجل اسم المؤلف والمستعير، ويكاتب هذا الأخير إن اقتضى الحال لمطالبته بإرجاع الكتاب، وتحتوى ملفات هذه الخزانة على أمثلة على هذه الظاهرة.

ويحدثنا الناصري في المزايا عن قيم الخزانة الناصرية فيقول : ويدخل للخزانة حتى يأخذ ما فيه كفاية الطلبة ويعطي كلا من المتعلمين بالزمام ما يحتاجه، وعلى رأس كل سنة في آخر رمضان يحضر الزمام[39] إلخ... ونفس الطريقة كان يطبقها قيم خزانة القرويين وغيرها من المكتبات، لأن الناصري يختم هذه الفقرة من كتاب المزايا بقوله : «وقع هذا كذلك بخزانة القرويين»[40].

أما عملية التبادل والإعارة فيما بين المكتبات وهي من العمليات المهمة والضرورية في المكتبات المعاصرة فتكاد تكون عامة في المكتبات العتيقة : فمكتبات الزوايا تتبادل الكتب فيما بينها من جهة، كما تتبادل المخطوطات مع الخزانات الملكية وغيرها من جهة أخرى، والهدف من هذا التبادل أو هذه الاستعارة هو استنساخ المخطوط والاحتفاظ به ضمن محتويات الخزانة التي استعارته.. والعادة أن القيم هو الذي يتولى هذه العمليات وما تدعو إليه من مراسلات واستنساخ وغيرها. يحدثنا ابن زيدان في «النهضة العلمية» أن أبا بكر بن علي الناصري قيم خزانة تمكروت قد كتب للسلطان المولى عبد الرحمن بن هشام ليرد كتاب حاشية الطيبي على الكشاف للزمخشري فأجاب السلطان : لا تزال النسخة عند الناسخ لأن خطها مشرقي مغلق»[41].

ويشمل نفس مصدر ابن زيدان مراسلة أخرى مفادها أن شيخ الزاوية الناصرية وقيم خزانتها يوسف الناصري يطلب من السلطان المولى محمد بن عبد الله العلوي أن يعيره كتاب «البيان والتحصيل» لابن رشد من أجل الاستنساخ، فأجابه السلطان قائلا : «إننا بصدد نسخ الكتاب وسنرسله مباشرة بعد نسخه»[42].

ومن وظائف القيم أنه يتحوز الكتب المهداة والموصى بها للخزانة، وكلنا يعرف أن الإهداء والوصايا عنصران أساسيان في تكوين الخزانات المغربية قديما. فمن عادة شيوخ الزوايا أن يوصوا بكتبهم لخزاناتها، كما كان العلماء والملوك يهدون المخطوطات المهمة والنادرة لمختلف المكتبات. يحدثنا الشيخ عبد الحي الكتاني في رسالته : «المكتبات الإسلامية» : أن العلاّمة عبد الرحمن المكناسي قد أهدى للشيخ ابن ناصر قيم الخزانة نسخة قديمة ومهمة من صحيح البخاري، كذلك فعل اليوسي فإنه قد أهدى كتبا لنفس الزاوية[43]. أما هدايا الملوك للخزانات وعلى الأخص منها خزانات الزوايا فأكثر من أن تحصى.

ويتحوز القيم كذلك الكتب الموقوفة على الخزانة، فبعد استقرائنا لعدد من الوقفيات المبثوثة على الأوراق الأولى من المخطوطات الموقوفة أمكننا أن نستخلص أن القيم يتحوز الكتب المحبسة من القاضي ومن الناظر ومن عامة الناس. فتلك التي يتحوزها من القاضي أو من الناظر أو منهما معا تكون في الغالب الأعم محبسة على الخزانة من طرف السلطان أو الوزير أو من شخصية بارزة من شخصيات البلد، أما باقي الكتب المحبسة فيتحوزها القيم من الناس العاديين الذين يحبسون المخطوطات أو المصاحف رجاء ثواب الله تعالى، وهذا التحوز يتم بحضور عدلين وبعض الشهود من الأعيان. وقد تذكر الوقفية اسم

39) الناصري : **المزايا** ص 46 من المخطوط بالخزانة الحسنية.

40) نفس المصدر ص 48.

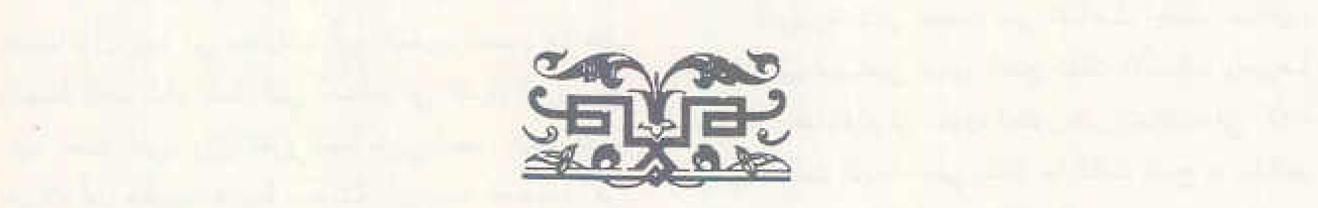
41) ابن زيدان عبد الرحمن : **النهضة العلمية على عهد الدولة العلوية** : مخطوط الخزانة الحسنية رقم 11772.

42) نفس المصدر.

43) عبد الحي الكتاني : **المكتبات الإسلامية**، مخطوط الخزانة العامة رقم ك 3002.

القيم الذي تحوز الوقف وتكتفي أحيانا أخرى بذكر لفظ القيم «دون ذكر الاسم»، هذه بعض الوظائف التي كان يقوم بها القيمون المغاربة أيام ازدهار خزانات الكتب بالمغرب. وفي العصور المتأخرة أفل نجم هذه المؤسسات العلمية تبعا للانهيار الثقافي، وتخلف مناهج التعليم، حيث أصبح الطلاب يكتفون بما لقفوه من أفواه الشيوخ وما استظهروه من منظومات في فنون شتى دون أن يحسوا بالحاجة إلى ارتياد الخزانة لتأكيد ما لقفوه ولاستكمال ما تلقوه من معلومات، فتخلفت من أجل ذلك المكتبات، وأصبح دور القيمين يقتصر على المحافظة على الكتب بعدما كان دورهم أن يجعلوا محتويات الخزانة تتحول إلى مصادر إشعاع للمعرفة، بل انعدم عند بعضهم الضمير المهني وساءت معاملتهم لتلك البقية الباقية من القارئين بعدما كانوا يستعملون أرقى أساليب المعاملات لجذب هؤلاء الناس إلى القراءة والبحث وتحبيبهم فيها.

أما اليوم وقد تعددت المعارف وتضخمت المكتبات فلم يعد بإمكان قيم واحد أن يقوم بجميع العمليات المكتبية كما كان الشأن بالنسبة لأمين الخزانة القديم، فالخزانات اليوم تحتاج إلى عدد من القيمين ذوي اختصاصات مختلفة لتسييرها والقيام بشؤونها. فإلى جانب المشرف الأعلى أو المدير يعمل القيمون من مصنفين ومفهرسين ومختصين بالدوريات، وعاملين في قسم المطبوعات، ومتخصصين في مكتبات الأطفال إلى بالببليوغرافيين مهتمين بالمخطوطات ومسؤولين عن قسم المصادر ومرشدين للباحثين وفنيين مختصين في التصوير ومكلفين بالاقتناء والتبادل إلى غيرها من الاختصاصات.



مظاهر الثقافة والفكر لعهد بني مرين

دراسات في الأدب المغربي
-23-

للأستاذ عبد الكريم التواتي

«أ»

أما وقد ألممنا إلمامة خاطفة بمختلف مظاهر دولة بني مرين التي نرجو أن نكون وفقنا بعض التوفيق لما عالجناه من قضاياها... فنرى أن نومئ إلى مظاهر الثقافة والفكر لعهد هذه الدولة ولمميزاتهما وخصائصهما.

فأولا : الخصائص والمميزات الأدبية :

إذا كان يصعب على أي باحث ـ مهما يكن مستقصيا ضليعا ـ أن يجد في محاولات أدباء المغرب لعصور ما قبل النهضة الحديثة، تلك التي ابتدأت في الشرق العربي مع عهد محمد علي، وإثر الغزو البونا بارتي لمصر، الذي شهد ميلاد أول مطبعة عربية حديثة، أن يجد تجديدا في المضامين أو حتى في المجالات التي ورثوها عما يسمى بعصر الجمود والانحطاط، نتيجة انكفاء القوم على أنفسهم، وداخل قوقعتهم الضيقة الحسيرة ولنتيجة انحسار مد الحضارة الإنسانية التي هي كل لا يتجزأ، في المحيط العربي عامة لعدة أسباب يأتي في مقدمتها أو هو من أبرزها ما يلي :

أ ـ **التعصب الديني** : الذي حل محل العنصريات القبلية والرابطات الدموية مع ما لحق مفهوم الدين من انحرافات، تضافرت عدة عوامل من جهل وشعوبية وانعدام كفاءات على تزويدها بما تحتاج إليه من وقود.

ب ـ **ضيق المجالات الاقتصادية** : التي لم تكن تكفل للناس أرزاقهم وفي مستوى محترم، فقد كانت تلك المجالات في نطاق مجتمعات تلك العهود باستثناء التجارة والفلاحة البدائيتين محصورة في أسلاب الحروب وغنائم الجهاد.

أقول إذا كان يصعب على الباحث إيجاد مضامين جديدة غير مضامين عصور الفتح لتلك الأسباب ولغيرها مما غاب عنا، فإنه لن يعوزه العثور على إشراقات في الأداء الفني لأولئك الأدباء، وفي نطاق ما كانت تسمح به بيئاتهم وما توفره مجتمعاتهم المحدودة المجال.

وتتجلى تلك الإشراقات وخصوصا في العهد المريني الذي هو قمة عهود الثقافة العربية الإسلامية في المغرب فيما يلي :

1) **الزخرفة اللفظية الغنية** بالأصباغ والألوان والمجسمة في المحسنات البديعة، وهذه الزخرفة صورة صوتية تعكس زخرفة العمران والبناء والتأنق في مظاهر الحياة الاجتماعية لباسا وطعاما وسكنى.

2) **في قعقعـــات تلـــك الألفـــاظ**، قعقعـــات مهولـة، هي أيضا صورة صوتية سجلت مبارزات السيوف، وتراشق النبال والرماح، وحمحمة الأفراس، ونداءات الأبطال وتطاير غبار المعارك والملاحم.

3) **في هذا العـديـد من أخيلـة التشبيهات** المجنحـة، ضمنيـة وتمثيليـة، ومن الاستعـارت المركـزة والمتهافتة، تصريحية ومكنية وتخيلية.

4) **وفي محاولات متواصلة لخلق أو ابتكار طرق أخرى** للتناول أو لهذا الأداء الفني نفسـه مما رأينا صورا منه فيما ابتدعه البعض من الموشحات والأزجال، والعروبي والملحون الخ. ولكن ليس معنى ذلك أننا ننكر على أولئك الأدباء والمفكرين أهميـة إسهاماتهم الفعالـة وأحيانا الإيجابيـة في توجيه أحداث مجتمعهم الوجهات الخـاصـة، وفي قيـادتهـا نحـو مـا انتهت إليـه، فـإن هذا غير واقع ولا ممكن.

ذلك لأن الأدباء ـ من حيث مجالات معاناتهم ـ ظلوا أوفياء لأحداث زمـانهم ـ رغم مـا حـاول البعض من اتهامهم بـالاستلاب والانعزاليـة ـ يتفـاعلون معهـا سلبا وإيجـابـا، ويتواجدون مع آثارها وأسبابها وعللها طردا وعكسا.

بل لا نكون مغالين إذا قلنا إنهم كـانوا ـ ولـو إلى حـد مـا ـ ملتزمين، تجاه توجيهها، ومـا يسفر عنه ذلك التوجيه من نتـائج، وبـالمعنى الموضوعي والـذاتي لكلمـة الالتزام، حين كانوا يسجلون ما تقع عليه أبصـارهم، وتحـه أعماقهم وتستشرفه تطلعاتهم ضمن آفاقهـا الزمنكيـة أي تلك التي تخضع للزمان والمكان.

هذه الزمنكية التي كـانت وستظل على الـدوام ـ ومـا دام الإنسان محصورا بين زمان ومكان ـ الإطـار الـذي يرغم الجميع على أن يؤطر نفســه حسب معطيـاتهـا وأبعـادهـا إن عن رضى وطواعية أو اختيار أو عن إكراه وإرغام وقسر.

لأن الإنسان ـ مهما سما عقله، وصفا تفكيره، وتبلورت رؤياه ـ سيظل ابن بيئته وصورة مجتمعه، بكل أخلاط ذلك المجتمع ورسوباته وبكل مكارمـه ومبـاذلـه، بكل عقلانيتـه وتهوره أو حماقاته، ولن يستطيع أحد الإفلات مما يضربـه حولـه مجتمعـه من قيـود، ومـا يفرضـه عليـه من حتميـات والتزامـات ومـا يحفـزه إليـه من تطلعـات واستشرافـات إلا بمقدار وضوح الرؤيا أو عتمتها.

وحتى الطلائعيين وعباقرتهم ما كـان في إمكـانهم أن يشذوا عن هذه القاعدة، إلا من زاوية شفوف أرواحهم، هـذا الشفـوف الـذي يجعلهم أسرع من غيرهم لتلقي التيـارات، وتفهم المعطيـات، وتقبـل الفيـوضـات، ثم لترتيب النتـائج حسب المقـدمـات، ترتيبـا منطقيـا لا يترك مجـالا للمصادفات.

ومن هنا كـان التقيـد بـالزمنكية في النقـد من أولى شروطه الإيجابية وأدائه رسالتـه التي هي البنـاء عن طريق الفرز والتوجيه، وبوسيلة تقريـظ الإيجـابي السمين وشجب الغث التافه وكل ما يميع الحقيقة أو يزيف الواقع الحتمي أو يشوه الجمال.

ومثقفو العهد المريني ـ من هـذه الوجهـة ـ كـانوا في المستوى، فقد هضموا مخلفـات من سبقوهم بعـد أن مضغوهـا مضغـا جيـدا مكنهم من أن يستخلصـوا منهـا مـا يتسـاوق واهتمـامـات عصرهم. تلك الاهتمـامـات التي سجلوهـا في آثارهم بدقـة وأمـانـة، وتواجـدوا والمجـالات الجـديـدة التي تولدت عن تفكك عرى وحدة الامبراطورية الإسلاميـة التي كـانت تمتـد عبر الرقعـة الترابيـة للمغرب العربي الكبير، وسـاهمـوا بـالعقـل والكلمـة، بـالسيف والقلم، في المعـارك المصيريـة التي كـانت تخوضهـا شعوبهم، إذ مـا تخلفـوا عن الاسهام في الجهاد في الأندلس، ولكن سقط الكثيرون منهم شهداء، ولا تقـاعسـوا عن الـدعوة إلى جمع الكلمـة بين المسلمين وتوحيد صفوف حكـامهم، ولكنهم توافـدوا لإصلاح ذات البين، مما رأينا صورا منه في وفادة رسل المغرب إلى الشرق والأندلس وإفريقيا، ورسل تلك البلدان إلى المغرب وكان كل أولئك الرسل من الأدباء والمثقفين والمفكرين.

ونضيف إلى ما تقدم أن هؤلاء الأدبـاء والمفكرين مـا استحسنوا مـا كـان يجب أن يستنكروه، ولا قبلوا مـا كـان ينبغي أن يرفضوه.

وموقف أبي الحسين الصغير من الوزير الوطاسي الذي حاول حماية سفير ابن الأحمر المستهتر الماجن، وإصراره التام على إقامة الحد الشرعي عليه.

وموقف الطبقة الواعية في فاس، من اليهوديين : هارون وشاويل اللذين نصبهما آخر ملوك بني مرين عبد الحق بن أبي سعيد بن أبي العباس : (823 / 868 هـ) كوزيرين له، تأديبا له.

وموقف هذه الطبقة من هذا السلطان نفسه حين تنصلوا من الجميع بالقتل، كل هذه المواقف، وغيرها دليل على التزامية الطبقة المثقفة لعهد بني مرين.

ومن هذه الفكرة انطلقوا في إحداث تحويرات حديثة في الأداء الفني، حين لم تسعفهم زمنكيتهم على إحداث مجالات ومضامين جديدة، فما هي إذن هذه التحويرات المستحدثة التي قد تعتبر خصائص أدب هذه الحقبة من تاريخنا الفكري ؟

من تقصينا لمختلف الآثار الباقية عن هذه الحقبة يمكننا أن نستخلص الميزات أو المظاهر الآتية : حول الجو الثقافي العام لهذه الحقبة.

1) اختفاء الفلسفة إذا قيس وضعها في هذا العهد بما كانت عليه لعهد الموحدين :

إذ قد أصبحت تتخفى في المسارب، وتحتل درجة ثانوية بالنسبة للعلوم الكونية أخواتها وإن استطاع هذا العهد أن يضم ويبرز أسماء فلاسفة لامعين نسبيا، أمثال أبي عبد الله محمد بن هلال السبتي شارح المجسطي، واليهودي خلوف المغيلي الفاسي الذي كان تتلمذ عليه الآبلي أيام لجوئه إليه، واختفائه عنده فرارا من صاحب تلمسان الذي حاول إكراهه على العمل عنده. ولكن إذا كانت الفلسفة قد اضطهدت فاختفت، فإن أخواتها العلوم الكونية ـ كما قلنا ـ شاهدت شيوعا وإقبالا، وبالأخص الطب والكيمياء وعلوم الرياضيات والهيئة والتعديل مما ساعد على ظهور عدد محترم من علماء هذه الفنون المبرزين أمثال :

ـ أبي العباس أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي المراكشي (654 / 721 هـ) الذي لم يكتف بالانتقادات الوجيهة التي صوبها لمن سبقه فحسب، وإنما اخترع تحقيقات فلكية حديثة، وضرب رقما قياسيا في التأليف في هذه الموضوعات، إذ يقال إنه خلف أكثر من مائة مؤلف في الفلك والهيئة والرياضيات، وقد أثنى ابن خلدون على جودة مؤلفاته.

ـ أبي زيد اللجائي المتوفي سنة : (773 هـ).

ـ السطي صاحب جداول الحوفي في الفرائض.

ـ الجادري صاحب كتاب (الروضة في الحساب).

ـ الصيدليين أو الشجارين حسب تعبير كتاب (بلغة الأمنية)

أبي العباس أحمد بن شعيب الجزنائي الكاتب الشاعر الذي يقول فيه ابن خلدون : (نظمه السلطان أبو سعيد المريني في جملة الكتاب وأجرى عليه رزق الأطباء لتقدمه فيه، فكان كاتبه وطبيبه، وكذلك مع السلطان أبي الحسن بعده)...

وأبي الحسن علي بن أبي الحسن العنسي المراكشي صاحب كتاب (الأمراض السرية وعلاجها وطبائع النساء وما يحمد أو يذم منهن) وقد وضعه خصيصا لخزانة أبي الحسن المريني.

ـ عائشة بنت الجيار أبي عبد الله الجيار محتسب سبتة، فقد برعت في الطب إلى الدرجة التي قال عنها في كتاب (بلغة الأمنية) بعد أن ذكر أنه أدركها، وقد بلغت من السن نحو السبعين سنة : (لها تقدم بالطبع، وجزالة في الكلام، عارفة بالطب والعقاقير، وما يرجع إلى ذلك، بصيرة بالماء وعلامته) النبوغ ج 1 ـ ص 215.

2) تقعيد فني للموشحات والأزجال :

وقد تبنى الأولى ـ وقد يكون ذلك تقليدا للسان الدين بن الخطيب، وأيضا لكبار مثقفي وأدباء الأندلس والجزائر الوافدين على بلاط المرينيين ـ نبغاء الأدب أمثال : ابن شجاع التازي، والكفيف الزرهوني ـ وعبد الله

الأندلسي - وعلي بن المؤذن. بينما اختص بالازجال - تقريبا - الشعراء الشعبيون الذين طوروه إلى عدة أصناف، وأطلقوا على كل صنف إسما خاصا : كالكاري : والملعبة والزجل المزدوج.

ويلاحظ أنه إذا كان الزجالون قد تنكبوا التقيد بالإعراب، وربما أيضا التفعيلة الخليلية، فإنهم من جهة أخرى حافظوا إلى حد ما على الفصحى.

ومن أزجال ابن شجاع التازي السياسية، والتي يذكر فيها هزيمة أبي الحسن المريني بإفريقيا وانقطاع خبره عن رعيته تقتطف مع المطلع هذا المقطع.

سبحان مالك خواطر الأمرا
ونواصيها في كل حين وزمان

إن طعنا عطفهم لنا قسرا
وإن عصيناه عاقب بكل هوان

ثم يقول بعد ذلك المطلع عن مصير أبي الحسن :

أمولاي أبو الحسن خطينا الباب
قضية سرنا إلى تونس

فقنا كنا على الجريد والتراب
واش لك في أعراب إفريقيا القونس

ما بلغك من عمر فتى الخطاب
الفاروق فاتح القرى المولس

ملك الشام والحجاز وتاج كسري
وافتح من إفريقيا «وكان» الخ

على أن الاهتمام المتزايد الذي لاقته الموشحات والأزجال في هذه الفترة لا يعني أن مطولات الشعر الفصيح قد أهملت أو ضؤلت مجالاتها، بل لقد تابعت هذه طريقها المعهود، متناولة كل فنون وأغراض الشعر المعروفة، حتى ليقول ابن خلدون عن هذه المطولات في مقدمته :

(... فأما العرب أهل هذا الجيل، فيقرضون الشعر لهذا العهد في سائر الأعاريض، ويأتون منه بالمطولات، مشتملة على مذاهب الشعر وأغراضه من النسيب والمدح والرثاء والهجاء، ويستطردون في الخروج من فن إلى فن في الكلام، وربما هجموا على المقصود لأول كلامهم، ويسمون هذه القصائد الأصبعيات، نسبة إلى الأصعي راوية العرب في أشعارهم).

3) انتشار أدب الرحلات والموسوعات التاريخية :

ففيما يخص الرحلات نعلم الآن أن هذا العهد شهد ميلاد عدة تآليف وضعها أصحابها عن أسفار قاموا بها إلى هنا أو هناك، وخاصة بقصد الحج وزيارة البقاع المقدسة، هذه الزيارة التي ما تزال توحي لمن يقومون بها عديدا من الأفكار والذكريات يشوقهم أن يسجلوها مع بيانات عن المواقع والأماكن التي شاهدوها، وعن الشخصيات العلمية والأدبية والسياسية التي اتصلوا بها، أو تلقوا عنها معلومات.

ومن اشهر رحالي العهد المريني : سفير أبي عنان إلى دول إفريقيا السوداء (ابن بطوطة) صاحب كتاب (تحفة النظار) والعبدري الحاحي - وابن رشيد صاحب (ملء العيبة) - والرغيني الفاسي - والتجيبي الخ.

وأما عن الموسوعات التاريخية التي امتاز بوضعها مثقفو هذا العهد فهي من الكثرة بحيث تفوق العد ومن أشهرها : البيان المغرب لابن عذاري المراكشي - وزهرة الآس في بناء مدينة فاس لأبي الحسن الجزنائي - والقرطاس وأزهار البستان في أخبار الزمان لابن أبي زرع - والذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي.

4) ما اشتهر في هذا العصر من المولديات وقصائد الجهاد :

وقد سبق أن أشرنا إلى بعض أبعاد هذا النوع من الأدب ومعطياته.

وبعد فتلك لمحة خاطفة وجيزة عن بعض المجالات التي امتاز بها الفكر والثقافة لعهد بني مرين، أما كل الخصائص فما ندعي أن في إمكاننا الإحاطة بها في هذه البحوث التي لا تستوعب الموضوعات ونأمل إن نسأ الله في الأجل ـ أن نتعرض لما نقف عليه من خصائص أخرى عندما نأخذ في دارسة وتحليل بعض الشخصيات الأدبية لعصر هذه الدولة دولة العلم وسلطنة العرفان.

ونحاول الآن إلقاء أضواء على بعض المظاهر العامة لهذه الثقافة المرينية في مجالين : مجال مشاركة رجالاتها الرسميين، من ملوك وأمراء في إثراء الجو الأدبي والعلمي بالعطاءات الفكرية، ومجال ما خلفوه وشاهده العهد المريني من مكتبات وخزانات ومدارس العلم.

أ ـ تطور الثقافة من مجرد اهتمام ديني صرف إلى هوى شعبي عام وعارم :

إذا كان من أهم عوامل وأسباب ازدهار الفكر والثقافة العربيين لعهدي المرابطين والموحدين هو :

1) التمازج الدموي والانصهار الجنسي الذي تم بين الأندلسيين والمغاربة.

2) العناية الفائقة والمتزايدة التي كان يوليها ملوك تينك الدولتين لرجال العلم والأدب، وعلى الدوام، بما كانوا يغدقونه عليهم من منح وصلات، أطلقت ألسنة الشعراء بالثناء والمديح، وأسالت مداد المؤلفين، لتسجيل المآثر والمكرمات، وتخليد المواقف الحاسمة، ودفعت بالصاعدين إلى بذل المزيد من الصمود، ومعاناة الإيجابي من الأعمال، وتحمل الكثير من التبعات الشاقة، أملا في الوصول إلى القمة، وتسنم ذروة المجد وتحقيق الصيت والشهرة.

3) وأخيرا ما كان يتوفر عليه أبناء هذه الأرض الطيبة المعطاء من الاستعداد الفطري للتكيف والتلقي الذاتي وإرفاد المد الحضاري بعناصر جديدة من القوة والحيوية... فإن هذه العوامل نفسها كانت ضمن الأسباب التي طورت مجالات الثقافة والفكر لعهد بني مرين من مجرد اهتمام ديني صرف ـ كما في بداية الوجود الإسلامي بالمغرب وفي عصر الفتوح، وعصر الأدارسة إلى أوائل المرابطين عامة ـ أو من مجرد اهتمام دنيوي متستر بضباب الدين، كما كان الشأن بالنسبة لبعض مثقفي عصري المرابطين والموحدين، أقول انه في عهد المرنيين تطورت مجالات الثقافة والفكر من هذا المجرد البسيط نسبيا إلى هوى شعبي عام وعارم أحست كل الطبقات الشعبية بوجوب تحمل رسالة هذا الهوى وضرورة الاضطلاع بمسؤولياته، عن طريق شعور تلك الطبقات بمسؤولية القيادة والتوجيه في هذا الوطن، لأنه ظل منذ الفتح الإسلامي رباطا للعروبة والإسلام، وثغرا أو منفذا لإبلاغ التراث الإسلامي العربي إلى أوروبا عبر الأندلس وإسبانيا، فكان أن تلاحمت رغبة الحاكمين فيه مع رغبة المحكومين لإقامة التزام يتغيا أداء رسالة الإسلام ويتوخى التقيد بما تفرضه تلك الرسالة من مسؤوليات التوجيه والقيادة، وما تتطلبه من تحملات وتقتضيه من تضحيات. وإذ كانت البداية، ومنطلق الشرارة الأولى، في ميادين ومجالات الثقافة والفكر العربيين في هذا البلد ـ وكما أومأنا مرارا ـ هي الإسلام فإن العناية المتزايدة بالعلوم التي تحفظ لشريعة هذا الدين جدتها وروعتها، ولرسالته عطاءاتها وروافدها، قد تتويعت لعهد دولة العلم، دولة المرينيين.

ومن هنا كانت العناية الخاصة، والتعهد الدائم لعلوم العربية وآدابها : وبكل ما لابد منه للمحافظة على سلامتها ونقاوتها من : نحو، وعلوم البلاغة : المعاني ـ البيان ـ والبديع، ومن أصول ومنطق وما تفرع عن كل ذلك، أو اتصل به من علوم وفنون.

وكان مما ضاعف من هذا الاهتمام، وساعد على مواصلة ذلك الجهد العلمي، في هذه الدولة، وفرة مثقفي البيت المالك أنفسهم، ثم كانت ثقافة هؤلاء ثقافة واسعة قريبة من الموسوعية، وهكذا فمن

بين خصوص ملوك هذه الدولة وسلاطينها نجد ما لا يقل عن سبعة أنفار، أجمعت كتب التاريخ على وصفهم بالعلم الواسع، وبمعرفتهم الكاملة لمختلف فنون ثقافة عصرهم، مع عدم إغفال أن عمر الدولة كله لا يتجاوز عمليا قرنا من الزمان على أبعد التقديرات،أي من بداية استئثارهم بالسلطة من يد الموحدين على يد مؤسس دولتهم عبد الحق بن محيو بن أبي بكر بن حمامة المريني سنة : (613 هـ) إلى وفاة أبي عنان (28 ذي الحجة سنة 759هـ)، وان تجاوز عدد الملوك والسلاطين ومن تعاوروا على السلطة الزمنية وتعاقبوا عليها السبعة والعشرين، بما فيهم أولئك الذين كانوا مجرد ظلال لوزرائهم.

إلا أن هناك ثلاثا من ملوك هذه الدولة عدوا فرسان هذا الميدان الثقافي لدى هذا العهد وهم : أبو الحسن علي بن عثمان (731 هـ ـ 749) المعروف عند العامة بالسلطان الأكحل (الأسود) لمكان سمرته المكتسبة من أمه الحبشية، وأخوه الأمير علي، والي سجلماسة ما بين (714 هـ ـ 734) إلى أن أغتيل في سجن أبي الحسن بفاس إثر اعتقاله جزاء تمرده على السلطة المركزية، ومحاولته اغتصاب الملك بطريق غير مشروع على الدوام. وأبو عنان (749 هـ ـ 759) الذي سنخصص له حديثا مطولا.

فأبو الحسن ـ بالإضافة إلى اتقانه الطب الذي كان تخصص فيه لعهد أبيه حتى سلكه في عداد أطبائه الخصوصيين الذين كانت تجرى عليهم الأرزاق والرواتب بهذه الصفة، كان قد هام إثر توليه الملك بالعلم والعلماء، يجالسهم ويذاكرهم ويحادثهم ويؤالفهم ولا يصبر على مفارقتهم، وإلى الدرجة التي سبق أن أشرنا إليها حين تعرضنا إلى غرق أسطوله أثناء عودته من تونس إلى المغرب، حيث غرق ما يزيد على أربعمائة عالم كانوا يصبحونه على الدوام.

ومن باب اهتمامه بالعلماء، واحتضانهم ما كان حدث بينه وبين أخيه أبي علي حول أيهما يستأثر بالكاتب عبد المهيمن الحضرمي حتى كادا يقتتلان عليه لولا تدخل أبيهما الذي استأثر به لنفسه دونهما.

ومن آثار أبي الحسن الشعرية بيتاه الآتيان :

أرتني اللـــــه في سري وجهري
وأحمي العرض من دنس ارتيـــابي

وأعطي الـوفر من مـالي اختيـــارا
وأضرب بـالسيـوف طلى الرقـــاب

ومن بيتيه هـذين يمكن أن نستشف بعض أخلاق الرجل الكريمة أو ما يحب أن يوصف به من محامد، هذه المحامد التي خص لها ابن مرزوق كتابا كاملا أسماه «المسند الصحيح الحسن في مآثر أبي الحسن».

ثم إذا كان حتى هذا الكتاب لا يمكن أن يكون مسندا صحيحا فيما نحاول إثباته للرجل من علو كعب في الميدان الثقافي، فإن اهتمام الرجل بالعلماء، مع ما كان يعرف به المغاربة ـ وإلى اليوم ـ من أن التضلع في العلم ليس هو بمقدار ما يخلفه العالم من تآليف، وإنما هو بمقدار ما يتمتع به من فهم ثاقب وإدراك صائب للنظريات وتحليل قيم لما يعرض له من قضايا ومشاكل.

أما أبو علي فقد كان بصيرا بالبلاغة واللسان، وله ولع بقرظ الشعر مع الاجادة فيه، وكان بالإضافة إلى ذلك ـ كأخيه أبي الحسن ـ محبا للعلم، شغوفا بالعلماء. ومن آثاره الشعرية كلماته الآتية : التي يخاطب بها أخاه أبا الحسن أيام حصاره له، وحين أيقن بزوال أمره هو.

فـلا يغرنـــك الـــدهر الخـؤون فكم
أبـاد من كـان قبلي يـا أبــا الحسن

الـدهر مـذ كـان لا يبقي على صفـة
لابـــد من فرح فيـــه ومن حـــزن

أين الملـوك التي كـــانت تهـــابهم
أسـد العرين ؟ ثـووا في اللحـد والكفن

بعـــد الأسرة والتيجـــان قـــد محيت
رســومهـــا وعفت عن كـل ذي حسن

ومن غزلياته الرقيقة قوله :

أغـــالب فيـــك الشـوق والشـوق أغلب
وأطلب منـــك الـوصـل، والنجم أقرب

ويطمعني قلبي بـــوصـــل، وإنني
لأعلم حقـــا أن قلبي يكـــذب
حيــاتي ومـوتي في يــديــك وإنني
أمـــوت وأحيـــا حين ترضى وتغضب
فـلا الـوصـل يحييني ولا الهجر قـاتلي
ولا منـــك بُـــدّ، لا ولا عنـــك مهرب
ويقول في نفس الموضوع :
مـلْ يـــانسيم على غصـون المنـــدل
وأنعم بتلـــك المـــائـــات الميّـــل
وإذا مررت على الـديـــار فـسل بهـــا
عن راحــل عنهــــا ومن لم يرحـــل
زمّـــوا المطيّ وخلفـــوني يعـــدهم
تجري دمـــوعي في رســـوم المنـــزل
وأما أبو عنان الذي سنخصص لـه ـ كما قلنا إن شـاء الله دراسة مطولة عن حياته الأدبية وآثاره ـ فلا يفوتنا هنـا أن نذكر أنه بالإضافة إلى مساهمته الجيدة في كل ميـادين الأدب، والشعر منه خاصة، فقد عدّ من جهابذة الفقهاء، يناظر العلماء في المنطق وأصول الدين وعلمي العربية والحساب، وفي القرآن وعلومه وفي الحديث رواية ودراية.

وبالإضـافة إلى هؤلاء الملوك الثلاثة كـان كـل من السلطـــان أبي سعيــد عثمـــان بن يعقـوب المنصـــور : (710 ـ 731 هـ) وأخيـه أبي مـالـك الـذي كـان رشـح لولايـة عهد أبيـه يعقوب سنـة : 669 هـ لـولا المنيـة التي اخترمته وعاجلتـه سنـة : 671 هـ إثر قفول أبيـه من حصـار تلـمان، والسلطان أبي العباس أحمد بن أبي سـالم بن أبي الحسـن : (788 ـ 796 هـ) وولـد هــذا أبي فــارس عبـد العزيـز : (768 ـ 774 هـ)، كـان كـل هـؤلاء معدودين في جملة كبار العلماء.

ومن شعر أبي فـارس عبد العزيز مذيّلا لبيتي والده الآنفي الـذكر فيمـا حكـاه ابن أبي الأحمر في كتــابــه (نثير الجمان) هذه الأبيات :

وأرغب خـــالقي في العفـــو عني
وأطلب حلمـــه يـــوم الحســـاب
وأرجـــو عـــونـــه في عـــز نصر
على الأعـــداء ممروس الجنـــاب
وعبـــدك واقف بـــالبـــاب فـــارحم
عبيـــدا خـــائفـــا ألم العقـــاب

وبلـغ من اهتمـام البيت المريني المـالـك بـالعلم، وتقديره لرجاله أن تطامن السلطان أبو الربيع سليمـان بن أبي عامر مع قـاضيه أبي الحسن الصغير صـاحب التقييـد على المدونة ضد وزيره عبد الرحمن بن يعقوب الوطـاسي وسخط عليه بعد أن ضرب أعناق أصحاب هـذا الوزير بسب محاولته تعقب أحكام القـاضي إثر تنفيـذه عمليـا حد شرب الخمر على رسول ابن الأحمر وسفيره. فكانت هذه الرعـاية المتواصلة من البيت المالك للعلم ورجاله، وما احتله أولئك الرجال العلماء بسبب ذلك من المراكز الإجتماعية المرموقة مما سـاعـد على نهضـة الحركـة الثقـافيـة على مختلف المستويات وفي جميع الميادين. وقد تجسمت هـذه النهضة في هـذا العـــدد الضخم من المثقفين الـــذين كـــانـوا يحترفون العلم والثقافة ويمتهنون مجالاتهما ويتخذونهما شغلا وهدفا لحياتهم المادية والأدبية. وجرد بسيـط لأبرز الشخصيات العلمية والأدبية لهذا العهـد، ولمختلف فروع المعرفة التي عالجوها قد يعطينا صورة مصغرة تقريبية عن مدى ازدهار هذا الميدان. وفي هذا المجال يمكن أن نـذكر ـ دون الحصر والاستقصاء وإنما للاستشهاد والتمثيـل ـ ما يأتي :

أولا : في ميدان علوم التشريع :

يمكننـــا أن نـستشهــد بـــأمثـــال : ابن العـــابـــد الفاسي المتوفى سنة : 762 هـ وليس هذا هو الذي كنا عقدنا له بحثا خاصا لدى تناولنا حياة وآثار بعض أدباء دولة الموحدين، وقلنا فيه ـ كما في الإعلام للمراكشي ـ إنه كـان ورد الأنـدلس سنـة 630 هـ، ومن آثـاره اختصـار الكشاف.

ـ وابن البنـاء العـددى (654 ـ 721 هـ) ومن آثـاره في هذا المجال (محشى الكشاف).

ثـانيـا في مجـال القراءات : ويـأتي في طليعـة رجالات هذا الفن : ابن برى التازى 731 ومن آثاره كتاب

(الدرر اللوامع في قراءة نافع) ثم أبو عبد الله الأموي الخراز 818 هـ صاحب كتاب (مورد الظمآن في الرسم).

ثالثا في مجال الحديث : ونذكر في طليعة قطاحله : ابن رشيد الفهري (657-721 هـ) صاحب كتاب (ملء العيبة) ثم ابن منصور المغراوي السجلماسي شارح أحاديث الشهاب وكتاب (الروض الأنيف في شرح الموطا)

رابعا في ميدان التصوف : ونسجل من بين المؤلفين فيه : أحمد زروق البرنوسي (846 - 899 هـ) ومن آثاره (قواعد التصوف) و(عدة المريد) و(النصيحة الكافية) بالإضافة إلى جزء في علم الحديث وتعليق على البخاري - ثم ابن الحاج العبدري الفاسي 737 هـ، صاحب المدخل.

خامسا في مجال علم الكلام : ويبرز أمامنا من قطاحله : ابن الشاط الأنصارى السبتي (643 - 723 هـ) ومن آثاره كتاب (أنوار البروق في تعقب القواعد والفروق) - ثم عبد العزيز اللّمطي ومن آثاره (النظم في الكلام في عداد علماء الكلام).

سادسا في ميدان علوم النحو واللغة :

ونذكر من بين شخصيات هذا المجال : ابن آجروم الصنهاجي (672 - 723 هـ) صاحب مقدمة الأجرومية. ثم أبا زيد بن صالح المكودي 807هـ ويقال إن هذه الشخصية كانت آخر من درس كتاب سيبويه بفاس، ومن آثار المكودى شرحه لألفية ابن مالك وشرحه على الأجرومية كما له مقصورة في مدح الرسول ﷺ مع آثار أخرى كثيرة، ثم ابن هانئ اللخمي السبتي 733 هـ صاحب كتاب (الغرة الطالعة في شعراء المائة السابعة) ثم أبا القاسم الشريف السبتي الغرناطي (697 - 760 هـ) ومن آثاره (شرح مقصورة حازم) و(القصيدة الخزرجية في علم العروض) التي تعرف بالرامزة.

سابعا في ميدان الأدب والنقد : وفي هذا المجال نذكر الشخصيتين التاليتين : ابن المرحل أبا الحكم مالك السبتي (604 - 699 هـ) ومن آثاره في غير ميدان الشعر (غريب القرآن لابن عزيز) و(نظم الثلث الأول من كتاب أدب الكاتب لابن قتيبة) و (فصيح ثعلب) ويقال أنه مخترع ما سمي في أدبنا المغربي بمجزو (الدوبيت) بحذفه تفعلة (فعلن) من فعلن، مفاعلتن، فعولن) الذي يتألف منه الدوبيت أساسا - ثم ابن يجبش التازي 820 هـ.

ثامنا في مجال التاريخ والرحلات : ونذكر في هذا الميدان : ابن عبد الملك المراكشي (634 - 703 هـ) صاحب (الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة) ويقول عنه المرحوم العابد الفاسي : «إن كتاب الذيل والتكملة يقع في تسعة مجلدات مفرقة في مكتبات العالم». ثم ابن بطوطة اللواتي الطنجي(703 - 777 هـ) صاحب الرحلة الشهيرة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) ثم ابن أبي زرع 726 هـ صاحب القرطاس وزهر البستان، ثم ابن عذارى المراكشي صاحب البيان المعرب.

تاسعا في ميدان العلوم والرياضيات والهيئة والتعديل : ومن أبرز شخصياته نذكر : ابن البناء العددى أبا العباس أحمد بن محمد بن عثمان الأزدى المراكشي (654 - 721 هـ) ومن آثاره (التلخيص في الحساب) ثم أبا الربيع اللجائي 773هـ، ومن آثاره الأسطرلاب العجيب وصف بأنه ملصوق على جدار، والماء يدير شبكته على الصحيفة فيأتي الناظر فينظر إلى ارتفاع الشمس كم هو وكم مضى من النهار، وكذلك ينظر ارتفاع الكواكب بالليل. قال علماء الهيئة عن هذا الأسطرلاب إنه من الأعمال الغريبة.

عاشرا في ميدان الفقه : وفي هذا المجال لا يمكن حصر النابغين فيه، أو ما وضعوه من كتب.

ب)

العمران ومدارس العلم

في متابعتنا دراسة مظاهر الثقافة والفكر لعهد بني مرين، وفيما يتعلق بالنقطة الثانية منها، يلاحظ مظهران :

ـ وإن كانا في الحقيقة والواقع وجهين لعملة واحدة ـ : وأحد المظهرين مادي، ونقصد به البنايات والعمران، والآخر معنوي، ونحاول من ورائه إظهار محتوى المظهر المادي أي العلوم، والفنون، ومجالاتهما.

أولا : المظهر المادي :

من المؤكد والمقطوع به أن الحضارة، أي حضارة، ليست في الواقع سوى نتاج مختلف المؤثرات البيئية والمناخية، وكل الرسوبات التي تعاورت على مجتمع ما، وفي ظروف خاصة، فكونت منه كيانا متمايزا عن سواه، وكيفته بأعراف وتقاليد اكتسبت مع مرور الزمن صفة المقومات الذاتية لهذا المجتمع نفسه، وصبغت من اعتبروا فيه الطبقة الواعية بهذا اللون من التفكير أو الإتجاه دون ذاك، وإحاطته باهتمامات ميثولوجية وروحية، أضفى عليها الايمان بالماورائيات مزيدا من القداسة، تبلور كل ذلك، مع تعاقب العصور فيما حمل إسم الفلسفات والايديولوجيات، أو صُنِّف مع شعارات المذاهب والمعتقدات، أو أدرج ضِمنَ ما أنزل من رسالات وديانات.

ومن هنا اختلفت الحضارات تبعا لاختلاف المؤثرات، وتباينت اهتماماتها تبعا لتباين اهتمامات منشئيها أو القيمين على فلسفاتها، والساهرين على توجيه أحداثها.

ولكن، مهما تختلف الحضارات في الظواهر، فإن مفهومها العام، لا يمكن أن يكون له في الحقيقة والأساس إلا مظهران اثنان، ولو في نظرنا على الأقل.

أحدهما مادي مرئي مجسم، ويتجلى في العمران بمعناه الواسع، أو بمفهوم البيت الشعري القائل :

تلك آثارنا تدل علينا

فانظروا بعدنا إلى الآثار

والثاني معنوي مدرك، ويبرز فيما قد يكون حققه المجتمع الحضاري من تفتح واع، ونشاط حي متحرك، في ميادين الفكر والثقافة العامة وفي العلوم المختلفة.

وبنو مرين ـ وكما سنرى ـ أسهموا جديا وإيجابيا في حركة المد الحضاري الذي باشرته مختلف الدول الإسلامية التي تداولت السلطة الزمانية في هذا البقعة من العالم الإسلامي، وبمظهريه الأساسيين ذينك : المادي والمعنوي، وأقاموا حضارة مغربية صميمة، تجلى مظهرها المادي فيما أنشأوه من مدن وقرى، وشيدوه من قصور ومدارس وجسور، كما وضح مظهرها المعنوي فيما أحدثوه من كراسي التدريس، وحبروه بأيديهم من مصاحف قرآنية، وفيما أسسوه من دور العلم وخزانات الكتب، وفيما حبسوه على كل ذلك من أوقاف طائلة عظيمة..

..ثم في ميدان البناء والعمران نسجل لهم :

في عهد يعقوب بن عبد الحق (657 ـ 685 هـ) : سجلت هذه المآثر الثلاث ـ ونوردها كأمثلة ـ

أولا : قصبة العرائش التي شيدها سنة 657 هـ.

ثانيا : إعادة بناء سور سلا الغربي المواجه للوادي سنة 658 هـ وكان عبد المومن بن علي قد هدمه مع بقية أسوار قواعد المغرب : فاس ـ سبتة، ويمتد هذا السور من دار الصناعة التي كانت ورشا لبناء الاساطيل البحرية والمراكب الجهادية.

ثالثا : إحداث مدينة فاس الجديد، أو المدينة البيضاء كما كانوا يسمونها سنة 674 هـ.

وفي عهد يوسف بن يعقوب (685 ـ 706) شهدت البلاد فيما يخص العمران :

أولا : تشييد قصبة تطوان سنة : 685 هـ.

ثانيا : أقيمت مدينة باسم «المنصورة» حول تلمسان سنة 702 هـ، حين كان يحاصر بها الثائر (يغمرا سن الزناتي) وقد حطم أبناء هذا الأخير هذه المدينة، حين اغتيل السلطان أبو سالم بن يوسف، بعد اختلال أمره، ضاربين عُرض الحائط بكل العهود التي كانوا قطعوها على أنفسهم بالمحافظة على هذه المدينة.

وفي عهد أبي عنان (749 ـ 759 هـ) شهدت حركة العمران مآثر عديدة، من أهمها ما أشرف على تشييده وزيره (فارس بن ميمون)، أعني المدينة التي أسماها (القاهرة) بسفح ساحل جبل السودر، هذا الجبل الذي كان حاول الإعتصام به، أخو أبي عنان المدعو (أبو الفضل) بعد

أن تمكن من الافلات من الإقامة الجبرية المفروضة عليه من أبي عنان، وفي كنف أبي الحجاج بن الأحمر النصري، وقد استطاع بعد هذا الإفلات أن يتصل بملك الاسبان (شانجة) يستنجد به لاستخلاص ما كان يسميه حقوقه المغصوبة.

وفي عهد أبي سعيد عثمان بن يعقوب (710 - 731 هـ) وضعت الأحجار الأساسية لقلعتي : (دَبْدو) و(شالة الحديثة) واللتين أتم بناء هما السلطان المنصور أبو الحسن ابن عثمان (731 - 749 هـ) وذلك سنة 739 هـ. كما شيد أبو حسون - والمرينيون في أخريات أيامهم - قلعتي : (كرسيف) و(شفشاون) سنة 866 هـ.

وأما القناطر والجسور التي شيدها رجال هذه الدولة، فهي من الكثرة بحيث لا يحصيها عد، ونذكر منها على الخصوص - وفيما يخص فاس عاصمتهم العلمية والسياسية - قنطرة (الرصيف) الرابطة بين العدوتين : عدوة القيروان - القرويين - وعدوة الأندلس. وبالمناسبة نذكر أن هذه القنطرة كانت قد تعرضت للتصدع في عهد الوطاسيين فجددوها في عهد أبي العباس تجديدا سجله الشعراء في كلمات وأبيات ومقاطع شيقة.

ثم في نفس هذا النطاق العمراني وتشييد خوالد المآثر، باشر بنو مرين - بنفس الروح والعزيمة رفع تلك المآثرات الروحية الشامخة المتجلية في العديد من المدارس العلمية والمساجد، ثم في تلك المقبرة التاريخية الخالدة : مقبرة شالة.

وفي مجال تشييد المدارس العلمية بالخصوص، نستطيع أن نؤكد أن هذه الدولة لم تقتصر فيه على خصوص رعاية الحركة العلمية عن طريق مجرد إنشاء بعض المدارس بالمدن أو الفلوات القاصية أو اغداق المرتبات المنتظمة على العلماء الملزمين بالإقامة بالعاصمة (فاس) كما على طلبتهم، وإنما زادوا على ذلك بتعميم إنشاء هذه المدارس في كل مكان، وترتيب جليل الأوقاف عليها.

والغريب أن هذه السياسة الهادفة لتعميم دور العلم ومدارسه بإغداق أسنى العطايا على روادها والوافدين عليها من طلبة وتلامذة وأساتذة، وارفاد خصوص من يقفون أنفسهم على التعليم بعديد من المنح والافضالات قد أثارت معارضة عنيفة وحادة من بعض كبار علماء ذلك العصر إذ رأوا فيها أنها حولت العمل العلمي الذي كان يستلزم - في نظر هؤلاء العلماء المعارضين - بذل المزيد من العناء، مع اعتبار هذا العناء بابا من أبواب الجهاد الذي لا ينتظر منه ثواب أو جزاء الاّ من الله، رأوا أنها حولته إلى عمل وظيفي يتقاضى عليه العلماء رواتب معينة، والطلبة منحا مغرية، حولته إلى عمل دنيوي صرف وهكذا ذكر صاحب (نيل الابتهاج)، كيف أن كلا من العبدرى الآبلي أستاذ ابن خلدون، ومن أحمد بابا السوداني ثارا ضد بناء المدارس الممنوح كل روادها والموظفين من أساتذتها، ملاحظين أن بناءها - في نطاق هذه السياسة - اذهب هيبة العلم، وقلل من الإقبال على التعمق والدرس الحق، وشجع من لا يحسن العلم والتعليم على الاقراء على الكراسي، وحتى صار ذلك بالتوارث.

ويبدو مما ذكره عبد السلام القادري في كتابه (الأخوان في شرفاء وزان) إن أول مدرسة علمية أسست بمدينة فاس هي مدرسة (الصابرين) التي كان أنشأها يوسف ابن تاشفين. وإن لاحظ ابن مرزوق - وأيده ابن القاضي صاحب الجذوة) أن إنشاء المدارس العامة لم يكن معروفا بالمغرب قبل إنشاء مدرسة (الحلفائيين).. الصفارين سنة : (670 هـ. ويؤيد هذا الرأي ما في زهرة الآس للجزنائي صفحتي : 4/75/ طبع الجزائر.

وكانت أنشئت على يد أبي يوسف يعقوب المريني، وحبس على هذه المدرسة جميع ما كان استرده من كتب المغرب التي كان فر بها قراصنة فرنسيون، وأهدوها على يد ملكهم إلى كنائس الأندلس، والتي بلغت - فيما قيل - 13 حملا، وكان استردها من ملك الاسبان (شانجه) مقابل قبول أبي يوسف توقيع هدنة مع هذا الملك الإسباني إثر الغزوات المظفرة التي شنها يعقوب على اسبانيا ما بين سنتي 684 و685 هـ ويقال أنه من بين الكتب التي استردت جملة من مصاحف القرآن الكريم وتفسير ابن عطية وتفسير الثعلبي المسمى (الكشف والبيان) وكتاب

التهذيب في الحديث والاستذكار، كما كان فيها كثير من كتب الأصول والفروع واللغة العربية والأدب وغير ذلك.

وهكذا يكون المؤرخون قد أصابوا المحز وكبد الصواب إذا كانوا قد وصفوا دولة بني مرين بدولة العلم، وهذا الوصف هو أقل ما يمكن أن يطلق على هذه المنجزات الضخمة التي حققوها في ميادين نشر العلم والعرفان، بإحداث دورها، وإنشاء معاهدها وبالدعوة في تشجيع، لإلقاء المحاضرات وإقامة المناظرة التي كانوا يتوجونها بحضور ملوكهم بأنفسهم فيها، وعلى اعتبار أنها ـ وكما سبق أن قلنا ـ إحدى اهتمامات الدولة الأساسية التي تستحق مزيد العناية والتقدير، وتستوجب فائق المساعدة والتشجيع. وإذا كان أبو يوسف يعقوب قد دشن سياسة تبني الدولة شؤون العلم ورجاله، وسن مبدأ تشييد شوامخ المدارس لإيواء طلبة العلم وحفاظه، حين رفع بناية مدرسة الحلفائيين (الصفارين) بفاس، فإن الذين جاءوا بعده واصلوا تلك السياسة، ولم يتقاعسوا عن مجاراته في هذا الميدان،

ذلك أن إنشاء تلك المدرسة كان الشرارة الأولى لإذكاء همم ملوك هذه الدولة للمضي قدما في هذه الخطة التي أصبحت ميزة ذاتية لوجودهم نفسه، إذ بعد الصفارين شمخت مثيلاتها بمختلف قواعد المغرب كما أشرنا قبل وكما سنذكر بعد.

على أن عاصمة الدولة (فاس) حفلت بالعدد الأكثر من هذه المدارس، وبكيفية لم تكن في بقية القواعد المغربية سواها، فبالإضافة إلى مدرسة الصفارين الآنفة الذكر كانت هناك المدارس الآتية :

ـ المدرسة البيضاء، التي كان قد شيدها أبو سعيد عثمان بن عبد الحق ثاني ملوك هذه الدولة سنة 720 هـ.

ـ مدرستا : الصهريج، وجامع الأندلس، وشيدتا سنة 721 هـ على يد أبي الحسن علي ابن عثمان.

ـ مدرستا : الوادى، والعطارين، وهما من إنشاء أبي سعيد عثمان بن يعقوب عاشر ملوك هذه الأسرة، وقد شيدا في تاريخ واحد ومعا، سنة 723 هـ.

ـ المدرسة المصباحية، أو مدرسة الرخام، كما كانت تسمى لدى تشييدها، وهذه المؤسسة من حيث التفكير فيها، ومن حيث المنطلق، هي من عمل أبي الحسن مشيد مدرستي الصهريج وجامع الأندلس، إذ شرع في بنائها سنة 725 هـ، ولكن الأشغال لم تنته فيها في عهده، كما لم يبدأ فيها بإلقاء الدروس إلا في سنة 750 هـ أي في عهد أبي عنان.

وكان أول من تصدى فيها للاقراء الفقيه العالم أبو الضياء، مصباح بن عبد الله اليَلْصُوتي الذي حملت اسمه من يومئذ، تخليدا لذكراه، بعد أن كان يطلق عليها قبل اسم مدرسة (الرخام) لما كان أحيطت به جدرانها وخصتها من رخام، ما تزال آثاره باقية إلى الآن.

ـ المدرسة العنانية : وكان شيدها هذا السلطان الذي تحمل اسمه حتى الآن، أي أبو عنان، سنة 758 هـ، وقد بذل فيها من المجهود : عمرانا، وزخرفة، ونقوشا، ما جعلها تحفة فنية رائعة، ما زالت بسببه كعبة القصاد والزوار والسياح من مختلف اصقاع الدنيا الذين تستهويهم زخارف البناء وهندسة عصور الأندلس الزاهرة.

وفي شأن روعة بنائها الفخم، وما نقش على جدرانها من زخارف ومن آيات قرآنية وأبيات شعرية يقول الرحالة المغربي ابن بطوطة الطنجي الذي كان يومئذ في ركاب أبي عنان : (ومدارس خراسان والعراق ودمشق وبغداد ومصر، وإن بلغت الغاية من الاتقان والحسن، فكلها تقصر عن المدرسة التي عمرها أبو عنان، وهي التي عند القصبة من حضرة فاس، فإنها لا نظير لها سعة وارتفاعا، ونقش الجبص بها لا قدرة لأهل المشرق عليه، وزينها بالساعة المائية العجيبة، التي من اختراع علي بن أحمد التلمساني).

ثم يجب أن لا ننسى ـ وفي نطاق سياسة هذه الدولة فيما يخص إقامة المدارس العلمية ـ أن هذه الدولة، وهي تباشر هذه السياسة، وتحوطها بأكبر قسط من الإهتمام، استهدفت في منهجية التعليم، استقطاب كل المعارف والعلوم والفنون التي عرفت لعهدها، والتي استوعبت كل ما تقدمها من مجالات ثقافية وفكرية.

وهكذا، فبالإضافة إلى المدارس العلمية الدينية التي سبق أن عرجنا على ذكر بعضها، أست معاهد خاصة للفنون التطبيقية والتجريبية، وهكذا أست مدرسة خاصة لتخريج المهندسين مبكرا، وحتى قبل غيرها من المدارس العلمية النظرية والدينية، إذ أست هذه المدرسة سنة 684 هـ في ولاية يعقوب بن عبد الحق (657 ـ 685 هـ) باني سور سلا والمدينة البيضاء أي فاس الجديد ومدرسة الحلفائيين بالصفارين. كما كانت إلى جانب كل ذلك مدرسة خاصة بتخريج القراء والمجودين بمختلف القراءات السبع المجمع عليها والمشهورة والمتواترة، كانت تحمل هذه المدرسة وما تزال إسم (مدرسة السبعيين).

أما فيما يخص الميزانيات والاعتمادات المالية التي كانت الدولة تخصصها لهذه المشاريع العلمية، فقد اتسمت بالضخامة، وإلى ما بعد حدود التبذير أحيانا إلى الاسراف، وبالأخص فيما يتعلق بأبهة البناء وفخامته وكان رجال هذه الدولة في هذا الباب مضرب الامثال، فيحكون عن أبي الحسن أنه استعظم ضخامة المبلغ المستنزف في تشييد مدرسة الأندلس بفاس أول ما عرضت عليه رقاع الميزانية المصروفة، إذ بلغت ـ فيما قيل ـ مائة ألف دينار ذهبا ـ كما كان فعل حين رفعت إليه حسابات بناء المدرسة الجديدة بمكناس، قالوا : ولكنه عندما وقف بنفسه على مدى الروعة الفنية التي أبرزت فيها هاتان المدرستان لم يستحسن فحسب ما أنجز فيهما من أعمال، وإنما مزق ـ إظهارا لكامل رضاه وعظيم إعجابه بما أنجز ـ كشوف الاعتمادات المصروفة، وغرق بيده جذاذات تلك الكشوف في الصهريج المقام وسط المدرسة، ثم أخذ يردد ـ ونشوة الفرح بالفن المعماري الرائع الماثل أمامه تهزه ـ قول الشاعر :

لا بأس بالغالي إذا قيل حسن
ليس لما تستحسن العين ثمن

ويذكر المؤرخون ـ تأييدا وتأكيدا الإهتمام هذه الدولة بالحركة العمرانية عموما ـ أنه في أيام أبي الربيع سليمان بن أبي عامر (708 ـ 710 هـ) تاسع ملوك هذه الدولة : (استبحر العمران، وانفتحت أبواب المعاش، وتنافس الناس في البناء، وتأنقوا في الزخرف، وتنوقوا في لباس الحرير..) كما هو تعبير ابن أبي زرع لهذا العهد وانظر مظاهر الحضارة المغربية ج 2 / ص : 58 فيما يخص فن البناء وشكله، من حيث المواد المستعملة والهندسة العامة، كما تصور ذلك الآثار الباقية من ذلك العمران، الذي يمتاز على العموم : (باستعمال الطابية والآجر، والحجر غير المنحوت، والنقش على الخشب والجبص، والأدهان البديعة، والشماسيات الملونة، والنحاس المموه، وترصيع المنارات بالزليج، وزخرفة الثريات، وكل المصنوعات الجلدية والخزفية وغيرها...) وكل من مدرسة أبي عنان بفاس، ومقبرة شالة بالرباط قد يصلح نموذجا حيا ومثالا ناطقا لهذا الفن المعماري المريني. حتى فيما يخص الاعتناء بعالم أمواتهم، إذ أن مقبرة شالة كانت تضم عظام ملوكهم، ورفات أمهات بعض أولئك الملوك، فقد دفن بها كل من :

يوسف الأول، وأبي سعيد، ورفات أبي الحسن الذي نقل من مراكش حيث كانت أدركته الوفاة هناك، ورفات المنصور الذي جيء به من الجزيرة، كما دفنت هناك أيضا أم أبي عنان حليلة أبي الحسن. ويقال أن هذه المقبرة كانت آية رائعة من فن الزخرفة وروعة فن البناء... وأن أبا الحسن كان قد أقام حولها سورا، وشاد بها قبة كبيرة، زركشها بنقوش ذهبية، والصق أحجارها بالرصاص، ثم أوقف عليها عددا من الأوقاف الحبسية لصيانتها، وإطعام كل المساكين الوافدين عليها، ولرواتب قراء القرآن الذين كانوا يرتلون القرآن يوميا وطيلة السنة : وقد خُرِّبت هذه المآثر الرائعة على يد الثائر اللّحْياني الورتاجني، الذي كان ثار على السلطة المركزية، واستولى لمدة على أقاليم : مكناس والرباط، وسلا، وحين تم استيلاؤه على الرباط نهب هذه المقبرة، وسلب كنوزها وذخائرها، بعد أن شرد منها من كان هناك من السدنة والحفاظ. على أن اهتمام المرينيين بأبهة المنشآت العمرانية وضخامتها يتجلى في كل ما شادوه.

ثانيا : المظهر المعنوي للعمران ومدارس العلم

...أما المظهر المعنوي للحضارة المرينية، والذي نعني به الإهتمام بشؤون الفكر والثقافة العامة ونشر العلوم بمختلف الوسائل، فيتجلى - بالإضافة إلى مدارس العلم التي تحدثنا عنها، أو بالأحرى عن بعضها قبل - في المظاهر الآتية :

أولا : كراسي العلم التي أحدثت، إما باسم علوم خاصة، أو باسم مدرسي هذه العلوم من الأساتذة المبرزين.

ثانيا : استقدام هؤلاء العلماء المبرزين، واستدعاء المحاضرين الممتازين من خارج المغرب، وربطهم - على الدوام - بالركب الملكي، في الحل والترحال، في الظعن والإقامة.

ثالثا : نشر الخزانات العلمية، وبالأخص بث خزانات المصاحف القرآنية بمختلف مساجد المملكة.

رابعا : البعث بنسخ من المصاحف القرآنية : التي يحبرها ملوك هذه الدولة بأيديهم إلى المساجد الثلاثة الإسلامية المقدسة التي لا تشد الرحال إلا إليها - كما يقول سيدنا محمد ﷺ أي المسجد الحرام بمكة، ومسجده ﷺ بالمدينة، ومسجد بيت المقدس صانه الله من رجس اليهود.

ثم فيما يخص النقطة الأولى نشير - بادئ ذي بدء - إلى الكراسي التالية، ولمجرد الاستشهاد والتمثيل لا الحصر أو التحديد :

أولا : كرسي أبي الربيع سليمان الونشريسي الفاسي المتوفي سنة 705 هـ وكان مخصصا للتفريع على المدونة.

ثانيا : كرسي أبي الحسن الصغير علي بن محمد بن عبد الحق الزرويلي الفاسي المتوفي سنة 719 هـ، وكان هذا الكرسي مزدوج الغاية والهدف : تدريس المدونة، وتدريس كتاب التهذيب للبرادعي، وكان مكانه بحي فندق اليهودي من مدينة فاس.

ثالثا : كرسي أبي الحسن الصرصري الذي كان يلقي بمدرسة أبي عنان دون تحديد مسبق للمادة المعالجة والمتدارسة فيه، إذ كان شبه كشكول.

وكان ظهور أمثال هذه الكراسي مما أضفى على القرويين من يومئذ صفة الجامعة العلمية شبه رسمية، الشيء الذي رأت معه الدولة أن عليها رسالة أخرى لا تتم جامعة مّا بدونها، وأعني بها ما جعلناه مظهرا ثانيا من مظاهر الحضارة أي استقدام العلماء المدرسين والأساتذة المحاضرين.

وفي هذا المضمار بذل المرينيون مشكور الجهود، وجبّار الأعمال بعد استقدام أولئك العلماء، لتوفير الجو الملائم والمغري لإقامتهم، لا لخصوص من استقدمتهم الدولة، وإنما كذلك للذين وفدوا على المغرب لعهد المرينيين يتفيأون ظلال دولته الوارفة، ويتنعمون بعطاءاتها السنية.

وكان على رأس هؤلاء العلماء الوافدين - كما نعلم جميعا - العلامة ابن خلدون عبد الرحمن صاحب التاريخ ومقدمته، وابن رضوان، وابن مرزوق، والمقرى وابن جزى وأخيرا لسان الدين بن الخطيب. وهكذا توافد العلماء على عاصمة المرينيين فاس الفيحاء، وبالأخص غداة سقوط سبتة في يد البرتغاليين سنة : (811 هـ - 1418م) حيث أصبحت فاس يومئذ، تضارع إن لم تكن تفوق - أرقى وأزهى عواصم التمدن والحضارة الإسلاميين، وأصبحت من أهم المراكز الثقافية الإسلامية في هذا القرن.

حتى صح (لباديا لبليبس) المعروف بأبي العباس، و(رينو) في كتابه (الطب القديم) في المغرب ان سمياها أي فاس بأثينا افريقيا، ذلك أنها أمست كعبة القاصدين من مختلف بلدان الدنيا وأممها وأجناسها.

وكان مما زاد في شهرة فاس لأيامئذ وفي تدعيم مركزها الجامعي اهتمام ملوك بني مرين - قطعا - بالعلماء واستصحابهم معهم أينما حلوا أو حيثما ارتحلوا، إذ بلغ من كلف أبي الحسن بالعلماء ومجالسهم - كما ذكرنا قبل - للمناظرة والمذاكرة أنه كان لا يسافر إلا وجلتهم بجانبه، حتى قيل أن مجلسه لما كان بتونس كان يضم نحوا من أربعمائة من أكابر العلماء، ولعل أكثريتهم ممن غرقوا عند ما هبّت على أسطوله زوبعة عاتية وهو في طريق عودته

إلى المغرب إثر انتقاض ابنه عليه وتمالؤ بني عبد الواد والحفصيين وزناتي تلمسان ضده، بقرارهم جميعا سد الطريق البرية في وجهه.

ويذكرون أن من بين العلماء الذين كانوا يلازمون مجلسه، ظعنا وإقامة الإمامين المغربيين : أبا عبد الله الطى، وأبا عبد الله محمد بن الصباغ، والعالميين التونسيين أبا علي عمر عبد الرفيع وأبا عبد الله بن هارون.

إذا كانت هذه الدولة قد آمنت منذ منطلقها الأول ـ وكما رأينا ـ بأن العلم لا يزدهر الآ بالرعاية، ولا يثمر الآ بالتعهد، ولا يترعرع الآ إذا سقي بصيبّات العطاء، ولا يعطي النتائج الإيجابية إلا إذا حصّن بالمعاهد والكليات، وغذي بالمحاضرات والمناظرات، فإنها من جهة أخرى آمنت بأساس كل ذلك، أي العلم في مفهومه المطلق والعام، فشجعت حامليه، وقدّرت قيمة نتاجه، أي الكتاب والآثار البعيدة التي له في تخليد المآثر والأخبار، فأنشأت ترويجه ولجعله في متناول الجميع المكتبات العامة، وأقامت لحمايته من عاديات الاتلاف، بشرية أو غيرها الخزانات الخاصة المحصنة بالقيمين والحفظة والحراس. وإذا كانت قواعد المغرب الكبير، بما فيها فاس، وباستثناء سبتة لم تعرف بصورة عملية ومنظمة خزائن كتب، بمفهومها الفني، قبل بناء مدرسة الصفارين بفاس التي احتضنت أول مجموعة كتب، تلك التي كانت ـ قطعا ـ النواة لخزانة القرويين الحالية، فإن سبتة ـ كما ذكر المرحوم أستاذنا العابد بن عبد الله الفاسي في كتابه (خزائن العلمية بالمغرب) كانت أول مدينة مغربية تعرفت على هذا المجال الفكري الذي يهتم بتنظيم الإنتاج الثقافي المدوّن وتجميعه في دور خاصة، حملت إسم الخزانات العلمية أو المكتبات.

ذلك أن أبا الحسن علي بن محمد بن علي الشارى السبتي ولادة ومنبتا، الفاسي دراسة وتفقها، المتوفى سنة 648 هـ غريبا عن وطنه كان قد أحدث خزانة وضع لها من الأنظمة ما قد يضفي عليها شبها مّا بالخزانات العامة التي انتشرت فيما بعد.

ومترجمو هذه الشخصية العلمية المرموقة، يجمعون على أن الشارى أنشأ مدرسة علمية بسبتة، وجعلها مركزا للدراسة والتلقين، ومأوى للطلبة الوافدين عليها، وأنه دشن إلقاء الدروس فيها بنفسه سنة : 635 هـ.

ويتحدثون بأن الرجل أقام بهذه المؤسسة خزانة كتب، تمد الراغبين في الدراسة بما يحتاجونه من كتب، في مختلف فنون المعرفة المتداولة في تلك العهود.

وأن تلك الخزانة كانت تضم بين محتويات رفوفها من الذخائر والنفائس الشيء الكثير، مما أشار إلى بعضه القاضي أبو القاسم بن عمران في قصيدته التي يهنئ فيها أبا الحسن الشارى صاحبنا على إنشائه كلا من المدرسة والخزانة :

ومما جاء في تلك القصيدة ممّا له اتصال بالموضوع هذه الأبيات :

تخيرت أعلاق الدواوين معرضا
بإدنائها منكم عن الغرض الأدنى
ألا إن علما لا تكشف حجبه
لأهليه، مستودع له ولهم غبنا
وديوان علم، في الخزانة دهره
كجسم بلا روح ولفظ بلا معنى

وللفقيه الحسن بن اسمعيل الأغماتي هو الآخر، وفي نفس المناسبة، قصيدة مطولة نقتطف منها مما يتصل ببحثنا الأبيات التالية ـ وهي موجهة للشارى أيضا :

ومدرسة للعلم قلدت جيدها
من الكتب الأعلاق درا منضدا
نسخت بها حسن (النظامية) التي
أغارثناها في البلاد وأنجدا
نفائس كتب لو تصدى لجمعها
أخو مرة فذ المعارف أجهدا

وتصدى الأغماتي في قصيدته هذه لذكر بعض محتويات الخزانة الشارية فقال :

..فمن كتب التفير أعظمها غني
وأنفسها قدرا وأرجحها رفدا

ومن سنن المختـــار مـــا صـح نقلـــه
وجــاء بــه أهــل العــدالـــة مسنـــدا

ومن منتقى الكتب المهـــذب جملـــة
إلى مهيـع الارشـاد تهـدي وتستهـــدى

على أن من المقطوع به، حتى، الآن، أن أول خزانة مرينية أنشئت للعموم ولغرض تعميم الوعي الثقافي ونشر العلم بين الناس، كانت خزانة أبي يوسف يعقوب المريني التي كان حبسها على مدرسته اليعقوبية مدرسة الصفارين، والتي أودعها ـ كما أشرنا قبل ـ ما استعاده من كتب المغرب والأندلس، التي كانت لدى ملك اسبانيا، والتي بلغت فيما قيل ثلاثة عشر حملا من نفائس المخطوطات، مع التذكير بأن معظم محتوياتها هو من المصاحف وكتب التفسير والحديث والفقه واللغة.

ثم تتابعت حركة إرفاد الخزانة المرينية بالكتب مع تعاقب الملوك والسلاطين وإن اشتهرت بالخصوص خزانة يعقوب، ثم خزانة أبي عنان التي أسست سنة : 750 هـ، والتي ضمت إليها ما تقدمها من خزائن، كما تؤكده عبارات سجلت على بعض الموجود من بقايا هذه الخزانة.

يقول الأستاذ العابد الفاسي في تعليقه على منشأ خزانة أبي عنان : (وبها جملة من الكتب مرسوم في أول ورقة منها الإشارة إلى أنها من كتب مدرسة الحلفاويين، وما أشبه هذه العبارة).

ومحتويات المكتبة العنانية أو أكثرها من نوادر مخطوطات الأندلس ومكتوبة في رق الغزال.

ويصف الجزنائي في كتابه : (زهرة الآس) تلك المحتويات فيقول : (..فيها الكثير من الكتب المحتوية على أنواع من علوم الأبدان والأديان واللسان والأذهان، وغير ذلك من العلوم على اختلافها، وتنوع ضروبها وأجناسها ووقفها ابتغاء الزلفى، ورجاء ثواب الله الأوفى، وعيّن لها قيما لضبطها ومناولة ما فيها، وتوصيلها لمن له رغبة، وأجرى له على ذلك جراية مؤبدة تكرمة وعناية).

وإلى جانب هذه الخزانة العلمية، أسس أبو عنان كذلك خزانة مصاحف قرآنية بمسجد القرويين، ضمن جملة وافرة، مكتوبة بخط حسن جميل، واحتفل بها وفي بنائها وتشييدها بما لم يسبق إليه، وكلّف بها من يتولى أمرها على أحسن الشروط).

على أن هذا السلطان ـ من خصوص سلاطين بني مرين ـ لم يكتف في هذا الميدان بما أنشأه وسهر عليه، وإنما انهمك شخصيا على كتابة ثلاثة مصاحف بخط يده، ثم زينها بما ارتآه الخطاطون والنقاشون والقراء، ثم وضعها في حال مزينة من الفن المغربي الأصيل، ثم أرسلها وقفا على المساجد الثلاثة المقدسة : مسجد مكة ـ ومسجد المدينة ـ ومسجد بيت المقدس، وحبّس عليها هناك من الضياع والرباع، ما يقوم بكفاية القائمين عليها والقارئين فيها). النبوغ المغربي : ج/1 ص/186.

ومما اشتهر عن كلف أبي عنان بالكتب أنه كان يحمل معه في أسفاره خزانة ضخمة، تبلغ مجلداتها المئات، وتضم أنفس الكتب.

ويقال أن من بين تلك النفائس : (أنوار الفجر) وهو كتاب تفسير القاضي أبي بكر بن العربي بلغت مجلداته ثمانين مجلدا، وبلغت أوراقه ثمانين ألف ورقة، وقضى في إعداده وتأليفه عشرين سنة : الخزانة للعابد الفاسي : ص/33.

ولعلّ مما أعان على تنشيط الحركة العلمية والإهتمام بالخزانات ما اشتهر من رغبة الملوك المرينيين في عقد المجالس العلمية، واصرارهم على أن تضم أجود العناصر وأكثرها كفاءة واستعدادا وإدراكا.

ولإعطاء صورة تقريبية للشخصيات العلمية التي كان يضمها مجلس أبي عنان العلمي يكفي أن ننقل بدورنا اللوحة الزيتية التي سبقنا إلى نقلها الأستاذ العابد الفاسي عن أبي عبد الرحمن الجادرى مختصر أبي الوليد اسمعيل بن الأحمر على بردة البوصيري، حيث قال الجادرى لدى تعليقه على كلمة البوصيرى (لعل رحمة ربي حين يرسلها) : (قال شيخنا أبو الوليد، قد وقع الكلام بين يدي السلطان أبي عنان فارس بمحضر الفقهاء والعلماء والأساتيذ والقضاة والخطباء وأصحاب العلوم والشرفاء الخ، ثم عدّ من

هؤلاء الحضور نحوا من الثلاثين، كلهم فطحيل جليل مبرز منهم.

1) أبو عبد الله محمد بن محمد القرشي التلمساني المقرى.

2) وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد المالك بن شعيب القشتالي الصنهاجي الحميرى.

3) وأبو عبد الله محمد بن الحسن الصدراتي.

4) وأبو عبد الله المعارفي التلمساني.

5) وأبو العباس أحمد بن محمد الجذامي المعروف بالقباب.

6) والمحدث أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن مرزوق العجيسي الخ.

ويضاف إلى ذلك اهتمام أبي عنان نفسه بالعلم قراءة ومناقشة ومناظرة، وفي هذا الموضوع نورد فقرة ابن بطوطة حيث يقول : (وأما اشتغاله بالعلم، فهاهو يعقد مجالس العلم في كل يوم بعد صلاة الصبح، ويحضر لذلك أعلام الفقهاء ونجباء الطلبة بمسجد قصره الكريم، فيقرأ بين يديه تفسير القرآن، وحديث المصطفى ﷺ، وفروع مذهب مالك وكتب المتصوفة، وفي كل علم منها له القدح المعلى، يجلي مشكلاته بنور فهمه، ويلقي نكتة الرائقة من حفظه، ولم أر من ملوك الدنيا من بلغت عنايته بالعلم إلى هذه النهاية).

وسنرى لدى تخصيصنا الحديث عن أبي عنان وآثاره الأدبية اهتمامات هذا السلطان بالميادين الثقافية التي ليست الأ صورة لاهتمامات عصره.



الفكر والأدب في عهد الموحدين

للأستاذ حسن جلاب

إذا كانت الحركة الفكرية في المغرب قد نمت وترعرعت في عهد الدولة المرابطية، فإنها قد بلغت أوج عظمتها وازدهارها في العصر الموحدي.

وقد توفرت لها عوامل ساعدت على ذلك أهمها :

1) **حريـة الفكر :** كان من الطبيعي أن يحرر الموحدون الفكر من بعض القيود التي فرضها عليه الفقهاء المرابطون، والحالة أنهم ثاروا على مظاهر الضعف والانحلال والتعصب التي أصابت الدولة المرابطية. فنشطت لذلك الفلسفة وعلم الكلام، وكثر المشتغلون بهما وذاع صيت المغاربة في ذلك إلى درجة أن فريدريك الثاني ملك إيطاليا (1194 ـ 1250م) وجّه أسئلة فلسفية إلى علماء سبتة للإجابة عنها، فأجاب عنها الفيلسوف عبد الحق بن سبعين (614 ـ 669 هـ) وضمنها كتابه (المسائل العقلية).

2) **هجرة العلماء إلى المغرب :** فقد اجتمع فيه أعلام من الأندلس والقيروان، يضاف إليهم الجم الغفير من العرب الذين دخلوا المغرب في عهد عبد المومن، وقاسموا البرابرة الأرض، وكان من أثر هذا أن طبع المغرب بصفة نهائية بالطابع العربي[1].

3) **انتشار الأمن :** وقد تم ذلك للموحدين بفضل عدلهم، وحرصهم على أمن السكان وسلامتهم، بلغ ذلك حدا قال معه صاحب القرطاس : «بأن الظعينة تخرج من نول إلى برقة دون أن تضيع»[2].

4) **تدفق الأموال على الدولة :** فقد بلغ خراج افريقية 150 بغلا من الفضة، وأنفق الناصر على غزو افريقية 120 حملا، وبيع زيتون بستان عبد المومن بمراكش بمبلغ 30 ألف دينار على رخص الغلة بها، وزيتون بحيرة مكناس بمبلغ 35 ألف، وزيتون بحيرة فاس بمبلغ 50 ألف دينار. وفرق يعقوب المنصور يوم بيعته على الضعفاء 100 ألف دينار، وتصدق قبل خروجه لوقعة الأرك بأربعين ألف دينار، وفرق على الجنود والفقراء في عيد سنة 594 هـ 73 ألف شاة. هذا بالإضافة إلى عطاياهم السخية للعلماء[3].

5) **انتشار المعاهد :** اعتنى الموحدون بالمراكز الثقافية التي وجدوها والتي تتمثّل في مدن فاس ومراكش وطنجة وسبتة والقصر الصغير وبجاية والقيروان وباقي مدن الأندلس، فقد أنفقوا على علمائها وطلبتها بسخاء. وحاربوا الأمية بأن كلفوا الطلبة المصامدة بالانتشار في البوادي ونشر العلم بها.

وأسس عبد المومن مدارس بمراكش وعلى رأسها المدرسة العامة لتخرج الموظفين، والمدرسة الملكية لتعليم الأمراء الموحدين، ومدرسة تعليم فن الملاحة.

وأسس يعقوب المنصور مدارس أخرى بمراكش وسلا وإفريقية والأندلس.

---

1) المعجب 238 والاستقصا 166/1.

2) 138/2.

3) انظر فصل العوامل التي أثرت في نهضة المعارف على عهد الموحدين من كتاب العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين لمحمد المنوني.

كما اعتنوا بالكتب والخزانات وتوفيرها للدارسين، وكانت ليوسف خزانة تضاهي خزانة الحكم المستنصر بالأندلس[4].

6) استدعاء العلماء وعقد المجالس العلمية : وكان عبد المومن يستدعي طائفة من العلماء للتدريس بالمغرب وحضور المجالس التي كان يقيمها، وكذا كان شأن أبي يعقوب يوسف ابنه، ويعقوب المنصور حفيده، وفي هذا يقول المراكشي : «فقد جرت عادتهم بالكتب إلى البلاد واستجلاب العلماء إلى حضرتهم على أهل كل فن»[5]. وكانوا يقيمون المجالس العلمية في قصورهم يستدعون لها الأمراء والعلماء وطلبة الموحدين فيجزلون لهم العطاء. وأول ما يفتتح به الخليفة مجلسه مسألة من العلم يلقيها بنفسه أو تلقى بإذنه فيناقشها العلماء ويشاركهم الخلفاء في ذلك. وتختم المجالس بالدعاء للخليفة[6].

وكان الخلفاء على درجة كبيرة من العلم، فالمهدي درس بالمشرق والأندلس على كبار أئمة العصر، وعبد المومن تلميذه وعلى يده تثقف. وكان يوسف من أعلم الناس بالكلام والفلسفة، فقد كان يحاور فيها ابن رشد، وكلّفه بأن يلخص له : «كتب أرسطو».

ولعل يعقوب المنصور أعلمهم جميعا، فقد قال عنه المراكشي «كان أحسن الناس ألفاظا بالقرآن، وأسرعهم نفوذ خاطر في غامض مسائل النحو، وأحفظهم للغة العربية... صح عندي أنه كان يحفظ أحد الصحيحين... وكان له مشاركة في علم الأدب، واتساع في حفظ اللغة وتبحر في علم النحو».

ويحدثنا بعد ذلك أنه تعلم الطب والفلسفة[7].

وكان لهذه العوامل أثر في نهضة العلوم وازدهارها بالأندلس والمغرب ازدهارا لم تعرفه من قبل، أما بالنسبة للأندلس فنكتفي بالإحالة على كتاب الأستاذ عبد الله عنان : «عصر المرابطين والموحدين في الأندلس والمغرب»[8] للوقوف على مدى أهمية هذه النهضة. وأما بالنسبة للمغرب فنبادر إلى القول بأن المغاربة قد ألفوا في مختلف أصناف العلوم، وخلفوا لنا تراثا هائلا يشهد على هذا الازدهار الفكري الذي عرفه العصر الموحدي :

1) التفسير والقراءات : نشطت في عهدهم حركة التأليف مستفيدة من دعوتهم للرجوع إلى الكتاب والسنة، ومن الذين نبغوا في التفسير :

- أبو الحسن علي بن أحمد التجيبي الحرالي المراكشي (ت 637 هـ) له تفسير سماه «مفتاح اللب المقفل، على فهم القرآن المنزل».

- أبو عبد الله محمد بن علي بن عابد الأنصاري الفاسي (ت 622 هـ) اختصر كتاب الكشاف مزيلا عنه الاعتزال، وشرح الأسماء الحسنى وألف كتابه المسمى «شعب الايمان».

- محمد بن يوسف المزدغي (ت 655 هـ) له كتاب في تفسير القرآن انتهى فيه إلى «سورة الفتح». وكان عالما بالأصول والكلام، وله معرفة باللسان وتصرف في جميع العلوم.

- أبو محمد عبد الله بن زغبوش المكناسي، كان له علم بما يسمى بالتفسير بالإشارة، فقد استخرج بحساب الجمل من آية ﴿**إنا فتحنا لك...**﴾ انتصار الجيش الإسلامي في معركة الأرك سنة 591 هـ.

- أبو عبد الله محمد بن حسن بن محمد بن يوسف الفاسي (ت 656 هـ)، كان من أعلم الناس بالتجويد والقراءات له شرح على الشاطبية.

2) الحديث : فبالإضافة إلى المهدي الذي درس هذا العلم بالمشرق وبرز فيه، كان يوسف يحفظ متون الأحاديث ويتقنها، وكان يعقوب يحفظ أحد الصحيحين، كما كان المامون معدودا من حفاظه، لم يزل في أيام خلافته يسرد «البخاري والموطأ وسنن أبي داوود». وكذا

4) انظر دفاعا عن الثقافة المغربية للحسن السايح ص 136، والدولة الموحدية بالمغرب لعلام من 281 إلى 381.

5) المعجب 242.

6) العلوم والآداب والفنون 40/40.

7) المعجب 238.

8) ج 646/2 ـ 726.

كان شأن إبراهيم بن يوسف بن عبد المومن، وقد ظهر بالمغرب محدثون بلغت شهرتهم المشرق، ونال بعضهم به المكانة الرفيعة :

- فهذا أبو الخطاب عمر بن الحسن ابن دحية الكلبي، الذي كان يحفظ صحيح مسلم كله، قد رحل إلى المشرق فاختبر علماء مصر حفظه، فأدهشهم وأعجب به الكامل الأيوبي فأنشأ له «المدرسة الكاملية» للحديث سنة 622 هـ، وتولاها من بعده أخوه أبو عثمان ثم ابنه شرف الدين.

- القاضي أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي السبتي (ت 544 هـ)، كان مبرزا في الحديث ومشاركا في باقي علوم عصره، وهو مفخرة هذا العصر والذي قبله، وقد قيل فيه (لولا عياض لما ذكر المغرب)، له كتاب «الشفا في التعريف بحقوق المصطفى»، و«مشارق الأنوار في غريب الحديث والآثار»، و«ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك».

- محمد بن قاسم التميمي (ت 604 هـ)، أقام مدة طويلة بالمشرق ودرس على علمائه، وله فهرسة كبيرة ذكرهم فيها سماها «النجوم المشرقة».

- أبو عبد الله محمد بن يحي بن صاف المعروف بالمواق المراكشي، شرح «مقدمة صحيح مسلم»، وجملة من «الموطأ». وغيرهم كثير[9].

3) **الفقه :** تشبث فقهاء العصر بالمالكية، رغم ظهور مذهب المهدي، وسيطرته، ورغم محاولات يعقوب المنصور استبداله بالمذهب الظاهري. ونذكر من فقهاء المالكية :

- القاضي عياض السابق الذكر، وابنه أبو عبد الله محمد.

- أبو الحسن علي بن سعيد الرجراجي له : «مناهج التحصيل فيما للأئمة على المدونة من التأويل».

- إسحاق بن ابراهيم الغماري السعيدي الجابري، قاضي فاس وسبتة وشلب (ت 609).

- أبو زيد عبد الرحمن بن يوسف الفاسي الشهير بابن زانيف (ت 612 هـ)، كانت تشد إليه الرحال في مذهب مالك.

- عبد الله بن محمد التادلي، كان حيا سنة 623 هـ، وكان يحفظ المدونة[10].

4) **الأصول والكلام :** شجع الموحدون تدريس هذين العلمين بعدما كان الأول - كما قال ابن رشد في فصل المقال - يروج في جميع البلاد ما عدا المغرب، وكان الثاني كاسدا لا يجرؤ أحد على الاشتغال به. وكان من نتائج هذا التشجيع أن الأندلسيين صاروا يرحلون إلى المغرب لدراستهما.

- فهذا أبو عبد الله بن باديس اليحصبي المتوفى سنة 622 هـ يأتي من جزيرة شقر إلى فاس للسماع عن أبي الحجاج بن نموي وطبقته من علماء الأصول والكلام. ثم عاد إلى بلنسية للتدريس بها.

- ومن علماء المغرب كذلك أبوعمرو عثمان بن عبد الله القيسي القرشي المعروف بالسلاليجي (ت 564 هـ)، كان مرجع أهل فاس في علم الكلام، له مختصر في التوحيد اسمه «العقيدة البرهانية».

- أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم الفندلاوي الفاسي المعروف بابن الكتاني، (ت 596 هـ) كان إماما في العلمين، وله «رجز في الأصول».

- أبو الحسن علي بن محمد الخزرجي الاشبيلي الفاسي المعروف بابن الحصار، (ت 611 هـ)، له كتاب «الناسخ والمنسوخ»، وكتاب «البيان في تنقيح البرهان»، و«أرجوزة في أصول الدين».

---

9) العلوم والآداب والفنون ص 42 وما بعدها، والنبوغ 158/1.

10) انظر باقي فقهاء المالكية في هذا العصر في نيل الابتهاج لبابا التنبكتي السوداني، والديباج المذهب لابن فرحون.

5) **العلوم اللسانية :** (اللغة، النحو، العروض).

عني الموحدون باللغة العربية رغم اعتماد المهدي على البربرية كذلك في نشر دعوته، إذ كان يوسف من أحفظ الناس للعربية وأسرعهم نفوذ خاطر في غامض مسائل النحو. ومن علمائها في هذا العصر :

- محمد بن عيسى بن أصبغ المعروف بابن المناصف (ت 620 هـ) بسط اللغة للطلاب في أرجوزته (المذهبة في الحلي والنيات).

- أبو زيد عبد الرحمن السهيلي المالقي الذي شرح ما في سيرة ابن هشام من لفظ غريب، وأعرب غامضه ومستغلقه في كتابه : «الروض الأنف».

- أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم الصنهاجي الحميري السبتي وكان من أكثر الناس استظهارا للغة.

- ويعتبر أبو موسى عيسى بن عبد العزيز الجزولي المراكشي أعظم نحاة العصر (ت 607) له «المقدمة الجزولية في النحو» وتعرف بالقانون والاعتماد، لها شروح عديدة أشهرها شرح ابن عصفور (ت 663 هـ) وشرح الشلوبين (ت 660 هـ).

- وتلميذه أبو زكريا يحي الزواوي المعروف بابن معط (ت 628 هـ)، له العقود والقوانين في النحو، والحواشي على أصول ابن السراج في النحو، وغيرهما.

- أبو العباس أحمد بن محمد بن خلف البكري السلوي (ت 641 هـ)، له شرح المفصل، وشرح الجزولية.

- أبو عبد الله محمد بن هشام اللخمي السبتي (ت 570 هـ)، له «الفصول والجمل في شرح أبيات الجمل»، و«لحن العامة»، و«شرح فصيح ثعلب»، و«شرح مقصورة ابن دريد».

- ومن اعتناء المغاربة بالعروض وضع ضياء الدين الخزرجي السبتي «منظومته الخزرجية» التي لقيت شهرة في المشرق.

6) **التاريخ :** ازدهر هذا العلم بكل فروعه في هذا العصر، وألفت كتب تشهد بتقدم المغاربة.

- فقد ألف أبو العباس أحمد بن محمد العزفي اللخمي (ت 633 هـ) كتابا في المولد النبوي (الدر المنظم في مولد النبي المعظم).

- وألف أبو الخطاب عمر بن حسن بن دحية الكلبي (ت 633 هـ) كتاب (التنوير في مولد السراج المنير).

- وألف ابن فرتون السلمي (ت 660 هـ) ذيلا على صلة ابن بشكوال.

- واختصر أبو عبد الله بن حماد السبتي تلميذ القاضي عياض كتاب «ترتيب المدارك».

- ولابن دحية كتاب «النبراس في أخبار خلفاء بني العباس».

- وألف أبو بكر على الصنهاجي الشهير بالبيذق في تاريخ الموحدين.

- كما ألف عبد الواحد المراكشي (ت 625 هـ) كتابه «المعجب في تلخيص أخبار المغرب».

7) **الجغرافية :** ويكفي للدلالة على ازدهار هذا العلم ذكر إسم أبي عبد الله محمد بن محمد الادريسي (ت 560 أو 562 هـ) بصقلية، والذي اشتهر برحلاته التي خلدها في كتابه «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» وبخريطته الحائطية للعالم، وخريطته على الكرة الفضية التي صنعها للملك الصقلي «روجير الثاني» وله كذلك «المسالك والممالك»، وكتاب «الاستبصار في عجائب الأمصار».

8) **الفلسفة والتصوف :** سبق أن أوضحنا أن الموحدين قد شجعوا تدريس الفلسفة وساعدوا على نشرها بالاشتغال بها، وخاصة في عهد يوسف، أما في عهد يعقوب فكان الاهتمام بالتصوف أكبر. ومن الفلاسفة الذين عرفهم البلاط الموحدي :

- ابن طفيل صاحب رسالة حي بن يقظان، ورسالة في النفس وغيرهما.

- وابن رشد الذي ترجم مؤلفات أرسطو وبسطها، والذي قال فيه المستشرق رينان (ت 1892) : «لولاه لما فهمت فلسفة ارسطو».

- ونضيف إلى القائمة ابن سبعين الذي أجاب على أسئلة ملك إيطاليا الموجهة إلى فلاسفة سبتة.

وأما التصوف فنبغ فيه :

- أبو محمد صالح بن محمد بن حرزهم.

- أبو العباس أحمد بن جعفر السبتي دفين مراكش سنة 601 هـ، وصاحب مذهب خاص في الصدقة.

- وأبو محمد عبد السلام بن مشيش، دفين جبل العلم بين 622 و625 هـ، وهو شيخ أبي الحسن الشاذلي الشهير المتوفى سنة 656 هـ.

9) **العلوم العددية :** (الحساب، الهندسة، التنجيم)، ازدهر علم الحساب في العصر الموحدي وكثر عدد المشتغلين به، ويعتبر كتاب «اللباب في مسائل الحساب» من الكتب التي كانت معتمدة آنذاك، وهو من تأليف أبي الحسن علي بن فرحون القرطبي الذي كان يدرس الحساب والفرائض بفاس.

ومن المغاربة المشتغلين به :

- أبو عبد الله محمد بن علي الأنصاري الفاسي (ت 662 هـ).

- وأبو محمد عبد الله بن محمد بن حجاج المعروف بابن الياسمين (ت 601 هـ)، له أرجوزة في الجبر والمقابلة.

وقد أثبت العلماء المغاربة مدى تقدمهم في علم الهندسة عندما صنع المهندس أبو إسحاق بزار بن محمد مقصورة ميكانيكية متحركة يصلي فيها الخليفة وتتسع لألف شخص[11].

- ومنهم الحاج يعيش المعروف بالأحوص المالقي الذي أشرف على بناء قاعدة جبل طارق مع أبي اسحق بزار المذكور.

وأما في علم التنجيم فيعتبر برج إشبيلية الذي بناه يعقوب المنصور في مسجدها أول مرصد بني في أوربا لرصد النجوم.

وللمنصور دراسات فلكية عن كسوف الشمس. وكانت بباب جامع الكتبيين ساعة ترتفع في الهواء خمسين ذراعا، تتحرك أجراسها كل ساعة فيسمع وقعها من بعيد، كما كان بالقرب من باب الجيسة بفاس برج لمراقبة الهلال به نوافذ على عدد شهور السنة.

واشتهر عدد كبير من المنجمين تركوا ذخيرة هائلة في هذا العلم[12].

10) **الطب :** كان المنصور من المشتغلين بالطب والمحبين لهذا العلم، ولذا اعتنى بالصحة العامة، فبنى مارستانات للمرضى والمجانين في مراكش وشالة والقصر، وأنفق عليها وعلى نزلائها بسخاء. ومن مديري مارستانات مراكش أبو إسحاق إبراهيم الداني، وولده أبو محمد، ولو أردنا أن نذكر كل أطباء العصر لطال بنا المجال، ولذا نكتفي بذكر المشاهير منهم :

- أبو الحسن علي بن يقظان السبْتي المتوفى سنة 544 هـ.

- أبو بكر يحي بن محمد بن بقي السلوي المتوفى سنة 563 هـ.

- أبو الحجاج يوسف بن يحي الفاسي المتوفى سنة 623 هـ، له كتاب في الأغذية، وآخر في شرح الفصول لأبقراط.

- أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن محمد السلمي، رحل إلى بلاد العجم حيث توفي سنة 618 هـ، أخذ عن الإمام الرازي بالمشرق، وله شرح الكليات من كتاب القانون لابن سينا[13].

وإذا أضفنا إلى هذا، الازدهار العمراني المتمثل في بناء مدينة الرباط بأسوارها وأقواسها، وصومعة الكتبيين ومسجدها، وصومعة الجير الدا بإشبيلية، وحسان بالرباط، ومسجد تنملل، وتازا، وقصبة مراكش، تبين لنا أن الازدهار

---

11) انظر تفاصيل هذه المقصورة في النفح 163/2، والحلل الموشية 109.

12) انظر العلوم والآداب والفنون للمنوني 109 وما بعدها.

13) انظر أسماء باقي الأطباء المغاربة في الجزء 2 من طبقات الأطباء، وانظر لائحة بأسماء أطباء العصر الموحدي وطبيباته في كتاب العلوم والآداب والفنون، فصل الطب والصيدلة.

14) أصداء في الأدب الموحدي لابن تاويت، مجلة دعوة الحق غشت 1968.

الفكري والعمراني في عصر الموحدين كان عظيما وشاملا لم يعرف المغرب نظيره قبلهم.

حالة الأدب :

تعتبر الدولة الموحدية أول دولة مغربية حرصت على أن يخلد الشعر مفاخرها ويسجل عظمتها[14]. ولذلك كانت تبذل للشعراء المال بسخاء. فهذا عبد المومن يعطي للتيفاشي ألف دينار على بيت واحد، مدحه به :

ما هز عطفيه بين البيض والأسل
مثل الخليفة عبد المومن بن علي

وأعطى المنصور لابن منقذ رسول صلاح الدين أربعين ألف دينار على قصيدة مدحه بها من أربعين بيتا، منها :

إلى معدن التقوى، إلى كعبة الندى
إلى بحر جود ما لأخراه ساحل
إليك أمير المؤمنين ولم تزل
إلى بابك المأمول تزجى الرواحل

وكان الخلفاء يقيمون ندوات ومجالس يستدعون إليها الشعراء، ويستمعون إليهم، أشهرها الندوة التي أقامها عبد المومن على ظهر جبل الفتح (جبل طارق) بعدما أعاد الأمن إلى الأندلس، أبان فيها على شعور مرهف بالجمال وتذوق كبير للشعر. فقد مدحه ابن حبوس بقصيدة جيدة أعجب بها، مطلعها :

بلغ الزمان بهديكم ما أملا
وتعلمت أيامه أن تعدلا

وأنشده الأصم المرواني بائية قال فيها :

ما للعدا جنة أوقى من الهرب

. . . .

فقال عبد المومن : إلى أين ؟ إلى أين ؟ فقال الشاعر :

. . . .

أين المفر وخيل الله في الطلب ؟
وأين يذهب من في رأس شاهقة
وقد رمته سماء الله بالشهب !؟

فلما أتمها طرب عبد المومن وقال : بمثل هذا يمدح الخلفاء.

وأنشده أحمد بن سيد الكناني المعروف باللص قصيدة مطلعها :

غمض عن الشمس واستقصر مدى زحل
وانظر إلى الجبل الراسي على جبل
أنى استقر به، أنى استقل به
أنى رأى شخصه العالي فلم يزل

فقال له عبد المومن : لقد أثقلتنا يا رجل، فأمر به وأجلس.

وقد أقام المنصور ندوة عظيمة بعد رجوعه من وقعة الأرك، حيث ورد عليه الشعراء من كل قطر من مملكته، فلم يمكن لكثرتهم أن ينشد كل شاعر قصيدته، بل كان يختص بإنشاد البيتين أو الثلاثة المختارة، وانتهت رقاع القصائد في هذا اليوم أن حالت بين يعقوب وبين من كان أمامه لكثرتها[15].

ومن تذوق المنصور للشعر اقتراحه على الشعراء أن ينشدوا في «الخبب» فأنشد علي بن حزمون قصيدة في هذا البحر بعد وقعة الأرك :

حيتك معطرة النفس
نفحات المسك بأندلس
قدر الكفار ومأتمهم
إن الاسلام لفي عرس

فأعجب بها المنصور وأطربته[16].

15) نفح الطيب 430/2.

16) انظر القصيدة كاملة في المعجب 393، (40 بيتا).

ولا عجب أن يتذوق الخلفاء والأمراء الشعر، فقد كانوا شعراء نسبت لهم أبيات ومقطعات :

- فقد نسبت للمهدي بن تومرت أبيات في وفيات الأعيان[17].

- ونسبت لعبد المومن مقطوعة من 12 بيتا في المعجب[18]، وبيتان في الحلل الموشيه[19] وبيتان في شذرات الذهب[20].

- ولموسى بن عبد المومن ثلاثة أبيات في القرطاس[21].

- وأورد صاحب نفح الطيب عشرة أبيات للمنصور[22].

- أما الأمير أبو الربيع سليمان الموحدي فشاعر مشهور له ديوان مطبوع.

- ويضاف إلى هذا عدد آخر من الأمراء عرفوا بقول الشعر ومصاحبة الشعراء[23].

ونتيجة لهذه العناية عرف العصر 48 شاعرا مغربيا[24]، نظموا في مختلف الأغراض الشعرية المعروفة. وقد لاحظ الدكتور الجراري أن هؤلاء الشعراء يمثلون خمسة اتجاهات شعرية، هي[25] :

1) شعراء العصر المرابطي الذين أدركوا عهد الموحدين ولكنهم لم يتجاوبوا مع مذهبه فضلا عن أن يتأثروا به، فظلوا في شعرهم ذاتيين، تلح عليهم موضوعات الوصف والغزل، في أسلوب تبدو عليه ملامح الصنعة القائمة على المحسنات البديعية : وأبرز شعراء هذه الطائفة «القاضي عياض».

2) شعراء عاصروا عهدي المرابطين والموحدين وانتصروا لهؤلاء وساروا في تيارهم المذهبي، يمدحون الخلفاء ويصفون فتوحاتهم وانتصاراتهم، ويمثل الاتجاه ابن حبوس الفاسي الذي أسرع بالإيمان بالدعوة الموحدية، وله في عبد المومن خاصة عدة قصائد.

3) شعراء نشأوا في أحضان الدولة، ووهبوا نفسهم وشعرهم لها، فكانوا لسان حالها المعبر عن مواقفها والمدافع عن كيانها من خلال مدح الخلفاء والإشادة بانتصاراتهم وفتوحاتهم. ويأتي أبو العباس الجراوي في طليعتهم، ويعتبر شاعر الدولة الرسمي، إذ يكاد يكون كل شعره فيها، مما جعل عبد المومن يقول له : (يا أبا العباس إنا نباهي بك أهل الأندلس).

له في عبد المومن وابنه يوسف عدة قصائد، وبرز أكثر في عهد المنصور[26] وقال فيه قصائد تعتبر من أحسن شعره، منها بائيته في فتح بجاية والتي مطلعها :

لواؤك منصور وسعدك غالب

وحزبك للأعداء عنك محارب

وقصيدته في معركة الأرك، ومطلعها :

هو الفتح أعيا وصفه النظم والنثرا

وعمّت جميع المسلمين به البشرى

4) شعراء ذاتيون ساروا في الاتجاه الذي سار فيه أدباء العصر المرابطي من قبل، والذي يلح على موضوعات الغزل والوصف وعلى أسلوب الصنعة القائم على المحسنات البديعية، وتأثر بعضهم بفني الموشحات والأزجال المزدهرة بالأندلس.

17) ج 53/2.

18) ص 145.

19) ص 119.

20) ج 183/4.

21) ص 129.

22) ج 99/2.

23) أنظر نماذج من أشعارهم في «أمراؤنا الشعراء» لكنون، وفي العلوم والآداب والفنون 159 وما بعدها.

24) أحصاهم الأستاذ المنوني في المرجع السابق ص 159 وما بعدها.

25) أبو الربيع سليمان الموحدي للجراري ص 100 وما بعدها.

26) انظر كتاب (شاعر الخلافة الموحدية، أبو العباس الجراوي) لمحمد القاضي.

وعلى رأس هؤلاء **ابن غرلة**[27] الذي كان معاصرا لعبد المومن وتغزل في ابنته **رميلة** فأعدم.

وكان بعضهم لا يغفل الاتجاه الرسمي فيعلن وجوده بمدح الخليفة مثل أبي حفص عمر السلمي الأغماتي (530 - 603 هـ). فقد كان هذا الشاعر في غاية من الظرف والتأنق له منزل كأنه الجنة، يتجمل في لباسه ويكثر من استعمال الطيب، وله في مدح يوسف وتهنئته ببيعته الثانية قصيدة مطلعها :

ألا هكـــذا تبنى العـــلا والمـــآثر
وتسمـــو إلى الأمر الكبير الأكـــابر

ومن أشهر قصائده في يوسف ميميته التي أدارها ببراعة على عدد **سبعة** الذي يرمز إلى أسرار كثيرة عند الشيعة، منها :[28]

اللـــه حسبـــك والسبـع الحـواميم
تغـزو بهـا سبعـة وهي الأقـاليم
وأنت بـالسـور السبـع الطـوال على
كـل الـورى حـاكم بـاللـه محكـوم
وسبعـة الشهب لم تحفـل بهـا ثقـة
بـوعـد ربـك هيهـات التنـاجيم
أنـوار عـدلـك في الآفـاق داعيـة
هـل في البسيطـة ظـلام ومظلـوم
أعلى بـك الله أعلامـا هـديت بهـا
فـأنت فيهن اكمـال وتتميم
عليـك أهـل الهـدى والحـق متفـق
وحبـل من فـارق الإجمـاع مصروم
إن الخليفـة سر اللـه ظـاهـرة
آيـاتـه وهـو عنـد اللـه معلـوم
فسلمـوا واخلعـوا الآراء واتبعـوا
حكم الإمـام، فعلي الـدين تحكيم
عـر الإمـام فـلا تضرب بـه مثـلا
من ذا يقـاس بـه والمثـل معـدوم
أعطى الورى فضل مـا أعطـاه خـالقـه
عليـه من ربـه بشرى وتسليم
صـل بـالصلاة عليـه صدق مـدحتـه
ذاك الرحيـق بهـذا المسـك مختـوم

5) شعراء كانوا يسيرون في الخط المذهبي ولكنهم أدركوا الاضطراب الذي تعرضت له دعوة المهدي ولا سيما في عهد المامون، فاتجهوا بدل ذلك إلى مدح الرسول ﷺ، ويمثل هذا الاتجاه ميمون بن خبازة (ت 637 هـ)[29]، له في السخرية بالمهدي والمهدوية أبيات منها :

وجـد النبـوة حلـة مطـويـة
لا يستطيـع الخلـق نسـج مثـالهـا
فـأسر حسـوا في ارتغـاء يبتغي
بحـالـه نسجـا على منـوالهـا

وله قصيدة رائعة في مدح الرسول ﷺ تقع في 150 بيتا منها :

حقيـق علينـا أن نجيب المعـاليـا
لنفنى في مـدح الحبيب المعـانيـا
ونجمـع أشتـات الأعـاريض حسبـة
ونحشر في ذات الإلاه القـوافيـا
لنطلـع من أمـداح أحمـد أنجمـا
تلـوح فتجلـو من سنـاه الـديـاجيـا
كـواكب إيمـان تلـوح فيهتـدي
بـأنـوارهـا من بـات يـدلـج ساريـا
رسـول براه اللـه من صفـو نـوره
وألبسـه بردا من النـور ضـافيـا
وأنقـذنـا من نـاره بظهـوره
ولـولاه كـان الكـل بـالكفر صـاليـا

27) انظر في ترجمة ابن غرلة وشعره كتاب القصيدة للجراري ص 537، وكتابه موشحات مغربية 115، والنبوغ 131/1 و297/3.

28) انظر شرحها في مقالة محمد بن تاويت (مبادىء التشيع في الأدب الموحدي)، دعوة الحق، يبراير 1965.

29) ذكريات مشاهير رجال المغرب رقم 7.

والدارس للشعر الموحدي يلاحظ تميزه بمميزات وخصائص تختلف كثيرا عما كان عليه الشعر المرابطي، أبرزها :

1) خضوع كثير منه للتيار المذهبي الموحدي وسيره في اتجاهه، وهو تيار إصلاحي تحرري، رفض كل مظاهر المجون والخلاعة، فقلّ فيه شعر الخمرة وانعدم الغزل الشاذ وما إلى ذلك من الأغراض التي كانت منتشرة في الأندلس والمشرق. ونذكر في هذا المقام طرد عبد المومن لابن ميمون العبدري لتغزله في شاب من أغمات في مجلسه، كما أعفاه من مهمة تعليم أبنائه الأمراء.

2) بروز التيار الشيعي فيه، وخاصة عند أبي حفص الأغماتي.

3) وكثرة المبالغات والتهويلات والإطناب خلال عهدي عبد المومن ويوسف خاصة.

4) وخلا من ذلك كله مع ظهور المنصور والمأمون : اللذين حاربا هذا الاتجاه، وأمرا الشعراء بالنزوع نحو التبسيط ونبذ السفاسف. فاتجه الشعر لذلك إلى المدح النبوي، وخاصة عند ابن خبازة كما رأينا.

5) وأخيرا نلاحظ أن أثر الشعر الأندلسي كان بارزا في هذا الشعر وخاصة عند ابن حبوس المتأثر بابن هانيء، والجراوي المتأثر بابن دراج، وعند ابن غرلة في موشحاته.

وإذا كانت الرسائل المرابطية لم يكتب لها أن تجمع، فإن المستشرق الفرنسي ليفي بروفنصال قد جمع الرسائل الموحدية ونشرها بالرباط سنة 1941. وعددها 37 رسالة، تضاف إليها 6 رسائل جاءت في كتاب المن بالامامة، و5 في نظم الجمان. وبهذا يكون مجموع الرسائل الموحدية 48 رسالة. كتبتها نخبة من أشهر كتاب العصر منهم : أبو جعفر بن عطية القضاعي المراكشي (قتل سنة 553)، وأبو الحسن بن عياش (ت 568 هـ)، وأبو الفضل جعفر بن محشرة (ت 598 هـ)، وأبو عبد الله محمد بن عبد العزيز بن عياش التجيبي (ت 618 هـ)، وأبو الحكم بن المرخي، وأبو القاسم ابن عبد الرحمن القالمي. ويعتبرون إلى جانب عدد آخر من الكتاب من حاملي عبء الكتابة الديوانية لدى الموحدين[30].

وكانت رسائلهم مائلة إلى الإطناب والتوسع، وذات أسلوب جزل مزخرف بالسجع في الغالب. وعند صاحب المعجب أن ابن عياش التجيبي السابق الذكر سار على هذه الطريقة (ثم جرى الكتاب من بعده على أسلوبه، وسلكوا مسلكه، لما رأوا من استحسان لتلك الطريقة)[31].

وتسير رسائلهم على هذا المنوال : تبدأ بعبارة من أمير المؤمنين ـ مع الدعاء له ـ، ثم البعدية (أي أما بعد)، فالتحميد، والصلاة على الرسول ﷺ، والترضية عن الصحابة وعن الإمام المهدي، ثم يؤتى على المقصود من الرسالة، ويذكر مكان الإرسال، ويختم بالسلام والتاريخ[32].

وهذا نموذج من رسالة لابن عطية كتبها عن عبد المومن إلى طلبة تلمسان بمناسبة فتح قسنطينة. يقول فيها :

(من أمير المؤمنين... إلى الطلبة الذين بتلمسان... **أما بعد، فالحمد لله** الذي وسعت رحمته كل شيء على العموم والإطلاق، وجمعت عصمته أهل الاجتماع على طاعته والاتفاق، وتمت نعمته تماما على أبلغ وجوه الانتظام والاتساق، **والصلاة على محمد** نبيه المبتعث لتتميم مكارم الأخلاق، وعلى **آله الطاهرين وصحبه المتوازرين** أولي البواء إلى مرضاته والاستباق، **والرضى عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم** علم الأعلام، وذخيرة الإيمان والإسلام، وبدر الكمال والتمام، الطالع بأشرف مطالع الاشراق، الفارع عن تطاول الرؤوس والأعناق، الجامع أشتات الفضل وأجناسه على الاستيفاء والاستغراق.

30) انظر أسماء كتاب كل خليفة على حدة في المعجب، صفحات : 198، 244، 263، 311، 325.

31) ص 174.

32) انظر رسائل موحدية من نشر بروفنصال، والعلوم والآداب والفنون، قسم النثر.

وهذا كتابنا إليكم كتب الله لكم فيما خولكم النما والزيادة، ومكن في تمكينكم وإصلاح شؤونكم الأناة والإفادة، وبسط في أرجائكم اليمن والسعادة، من حضرة بجاية - حرسها الله - عن أحوال ترتب صلاحها على أفضل وجوده، وفتوح تتابع افتتاحها في قريب المعمور وبعيده، وبشائر ينزه بشرها وسماعها عن الجري على معتاد الدأب المألوف ومعهوده، وآيات بينات أحنى تخيلها واتضاحها عن كل برهان ووجوده، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها في المسؤولية محصى العدد ومعدوده، نسأل الله سبحانه وقد بهرت البواطن والظواهر، وتعمى الأبصار والبصائر، تعظيم ما نشاهد ونعاين عونا يعين وينهض، وعملا يتخلص بشكر الآية الباهرة ويمحض، وقوة لا تنتكث بالعجز عن أداء حقوقه ولا تنتقض.

وقد تقدم إعلامكم، وصل الله سروركم، وضاعف شكوركم، بما كان من صنع الله تعالى في فتح هذه البلاد التي يسر مرامها بحوله واقتداره، ونور ظلامها بأضواء هذا الأمر السعيد وأنواره، وصير أباطحها وآكامها من مواطيء أوليائه وأنصاره...).

ثم تشرع الرسالة في تصوير هذا الفتح وذكر قصته بتفصيل، فإذا ما قارناها برسالة يوسف في ذكر الزلاقة - مع الفرق العظيم في الأهمية - فإننا نجد هذه تطولها أربع مرات، وتفوقها في تفصيل ما لا يستحق التفصيل[33].

وأعاد الموحدون إلى الخطابة رونقها بعدما كادت تندثر من العالم الإسلامي وذلك بما أحيوا من الخطابة السياسية الصادرة عن المهدي وعبد المومن والمامون، وكذا خطابة الجهاد في مثل موقعة الأرك وغيرها، والخطابة عن الوفود وفي النوازل المهمة.

وجاء نثرهم في خطبهم على غرار نثرهم في الرسائل، فهذه افتتاحيتهم في خطبة الجمعة التي بعد الحمدلة فيها والصلاة على النبي، يتبعونها بالصلاة (على الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، أبي عبد الله محمد بن عبد الله العربي القرشي الهاشمي الحسني الفاطمي المحمدي الذي أيد بالعصمة، فكان أمره حكما، واكتشف بالنور اللائح والعدل الواضح الذي يملأ البسيطة حتى لا يدع فيها ظلاما ولا ظلما، وعلى وارث شرفه الصميم، سميه رضي الله عنه في النسب الكريم، المجتبى لوراثة مقامه العلي، الخليفة الإمام أبي محمد عبد المومن بن علي، وعلى أبي يعقوب ولي ذلك الاستخلاص ومستوجب شرف الاجتبا والاختصاص، اللهم وارض عن المجاهد في سبيلك، المحيي سنة رسولك الخليفة الإمام أبي يوسف أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين وعلى الخليفة أبي عبد الله بن الخلفاء الراشدين)[34].

كما ازدهر عندهم فن المناظرات لأنهم شجعوا النقاش، وأطلقوا حرية الرأي وكان المهدي فارس هذا الميدان، واشتهر بعده عبد المومن والمنصور.

وقد ألف أبو عبد الرحمن بن طاهر مناظرة على مستوى بعيد من الخيال أقامها بين النفس المطمئنة والنفس الأمارة بالسوء، وغايته منها إثبات المهدوية وتفضيلها.

اما بعد، فإذا كانت دعائم الفكر المغربي قد ركزت وأثبتت في العهد المرابطي، فإنه قد بلغ شأوا كبيرا من الازدهار في العصر الموحدي. وكان هذا الازدهار عاما وشاملا عمّ مختلف العلوم والآداب والفنون بدون استثناء.

وقد طبع هذا الفكر بطابع الدولة المتمثل في النزوع نحو العظمة والأبهة والجلال، ظهر ذلك في المؤلفات العلمية الجليلة، وفي الأدب بمبالغاته وتهويلاته وجزالته، وفي العمارة بضخامتها وعظمتها.

33) انظر دراسة عن الرسائل الموحدية للدباغ، دعوة الحق دجنبر 64 وفبراير 1965.

34) نفس المرجع.

من ذخائر التراث

فصل الخطاب في ترسيل الفقيه أبي بكر ابن خطاب

عرض وتقديم : الأستاذ العلوي البلغيثي.

حظي فن الرسائل باهتمام ملوك الأندلس والمغرب منذ الفتح الإسلامي إلى عهد الدولة العلوية المجيدة[1] ومن ثم حرصوا على تقريب أرباب صناعته إليهم، وتخليدهم بأجياد فخارهم، وتوليتهم أعلى المناصب في جهاز الدولة.

وكم كان ملوك المغرب يجلبون مشاهير الكتاب من عدوة الأندلس، إلى بلاطاتهم، لتقليدهم مهام الكتابة في دواوينهم، وقد اجتمع للأمراء المرابطين من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه، في عصر من الأعصار[2]، وكانت عنايتهم بهم فائقة الحد، حتى لم يبق منهم أديب مرموق لم ينط به عمل، في بلاط أمير المسلمين بمراكش أو في ديوان الأمراء بالأقاليم[3].

وصرف ملوك الدولة الموحدية عنايتهم إلى هذا الفن، فكانوا يحسنون انتقاء كتاب دواوينهم، ويشترطون فيهم أن يكونوا من خيرة المثقفين الأدباء، وأسهم العديد من الملوك في تراث الرسائل، نخص بالذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر : «عبد المؤمن» وابنه «يعقوب».

وقد بلغت الكتابة في عهد عبد المومن ذروتها، بفضل ما كان يتعهدها به من رعاية، ويوليه من بر للكتاب، فضلا عن إحاطتهم بهالات من التبجيل والوقار، وتجدر الإشارة هنا إلى أن المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال نشر له ثلاثا وعشرين رسالة من بين سبع وثلاثين في مجموعه المشهور[4].

ولما كانت هذه الرسائل تحتل لدى الملوك المغاربة مقام الإعجاب والتقدير، وتمثل نموذجا للأدب الرفيع المتميز بالجودة، فإنهم شجعوا على جمعها وتدوينها في مجاميع خاصة، شبيهة بدواوين الشعر المأثورة وكتب المختارات، وذلك لحفظها وتداولها بين المتأدبين، لينسجوا على منوالها، ويسيروا على نهجها القويم.

وتثير هذه الظاهرة إعجابنا، وتستوقف نظرنا، وتؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن النثر الكتابي عرف نهضة كبرى في المغرب العربي، حيث ازدهرت الرسائل بنوعيها : الديوانية والإخوانية، وتنوعت طريقتها[5] واتسمت بالتجديد والأصالة خصوصا في العصر الموحدي[6]، الذي توطدت فيه وشيجة الوحدة بين المغرب والأندلس.

ومن بين الرسائل التي احتفى بها الأدباء في العدوتين، وعنوابها أشد العناية، المجموع الذي يضم بين دفتيه رسائل ابن خطاب الأندلسي، قدمه جامعه الذي لم يذكر اسمه ـ ولعله أحد كتاب الدواوين ـ إلى ذي

---

1) بلغ عدد الرسائل العلوية التي تم جمعها بالخزانة الحسنية بالرباط ما يقرب من 150 ألف.
2) عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص 243.
3) عبد الله كنون، النبوغ، ص 78.
4) E. LÉVI PROVINCAL، مجموع رسائل موحدية، الرباط 1941.
5) القلقشندي، صبح الأعشى، مج/6، ص 443.
6) محمد المنوني، العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، ص 142.

الوزارتين ابن الحكيم[7]. ويحفزنا الوقوف على هذا المجموع النفيس لعرضه وتقديمه لتعم فائدته المهتمين بالنثر الكتابي، وترتسم في أذهانهم صورة واضحة المعالم عن فن الرسائل في الجزء الغربي من الوطن العربي الإسلامي، الذي غفل عن ذكر حركاته الأدبية كثير من الباحثين والدارسين.

ومن شأن هذه الرؤية أن تزود الدارس بالكثير من المعلومات، والعديد من الحقائق، مما خفى طوال حقب من الدهر.

وقبل البدء في عرض خطوط الكتاب العامة، يجدر بنا التعريف بصاحبه، إنه أبو بكر محمد بن بن عبد الله بن دواد بن خطاب الغافقي[8] ولد بمرسية[9] الواقعة جنوب شرق الأندلس، في شهر ربيع الأول عام ثلاثة عشر وستمائة، تتلمذ على كبار شيوخ بلده وجها بذته : كأبي عيسى بن أبي السداد، وأبي بكر بن محرز، وأبي بكر القرشي، وقد نبغ في الكتابة، وشهد له بطول الباع فيها أساتذته كأبي الربيع ابن سالم.

جمع بين صناعتي الكتابة والشعر، وقد وصفه ابن الزبير فقال[10] : «كان كاتبا بارعا، وشاعرا مجيدا، له مشاركة في أصول الفقه وعلم الكلام...».

وقال عنه ابن خلدون في تاريخه[11] : «وكان مرسلا بليغا، وكاتبا مجيدا، وشاعرا محسنا». تنقل بين حواضر الأندلس، إلى أن وضع عصا التسيار، واستقر به المطاف آخر حياته بتلمسان. تقلد كتابة الدواوين لدى ملوك غرناطة، وسلطان تلمسان أبي يحيى يغمراسن بن زيان[12]، وقد تألق نجمه، وذاع صيته.

يقول عنه جامع رسائله :[13] «وإن من أرفع أهل عصره في ذلك شأنا[14]، وأعلاهم رتبة ومكانا، شيخ المعارف والدارية، وبقية أهل الإسناد في وقته والرواية، الفقيه الأجل، الكاتب الأبرع المحدث المتقن، المفرق المتفنن».

وبقي ابن خطاب بحضرة تلمسان مقيما، إلى أن اختطفته يد المنون في تاسع محرم سنة ست وثمانين وستمائة (686 هـ) مخلفا وراءه آثارا أدبية جليلة، تتمثل في رسائله الديوانية والإخوانية، وأشعاره التي تولى جامع رسائله جمعها في ديوان خاص : «وأفردت نظمه في الكتاب الذي سميته المستطاب»[15].

وقد بوأته هذه الآثار مقاما رفيعا بين الأدباء اللامعين والكتاب المترسلين في عالم الأدب.

وصف الكتاب :

والكتاب مخطوط بالخزانة الحسنية بالرباط[16]، مغلف بالورق المقوى، يقع في 93 ورقة، مسطرته 22، ومقياسه 11/23، كتب بخط مغربي جميل ملون بالأسود والأحمر، وغير مشكول، ناسخه هو محمد بن عبد الرحمان الثعالبي[17]، فرغ من نسخة سنة تسع وتسعين وألف هـ.

وتعد هذه النسخة، برغم ما يعتريها من محو وخروم، أهم ما كشف حتى الآن عن ابن خطاب[18] مما لم تتناوله

---

7) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمان بن إبراهيم بن يحيى اللخمي الرندي، الوزير الكاتب، والأديب المتفنن. [illegible] بسنة 660 هـ. ووفاته بغرناطة سنة 708 هـ.
ترجمته في : ابن الخطيب، الإحاطة [illegible] 267 ـ المقري، نفح الطيب 5، 497 ـ أزهار الرياض 340/2 ـ الدرر الكامنة 495/3.

8) مقدمة فصل الخطاب ـ الإحاطة 2، ص 426.

9) MURCIA.

10) نقله صاحب الإحاطة عن الصلة.

11) تاريخه مج/7، ص 163.

12) تولى إمارة الدولة الزيانية العبد الوادية عام 631 هـ وتوفى سنة 681 هـ، روضة النسرين، ص 45.

13) مقدمة فصل الخطاب.

14) يقصد في صناعة الإنشاء.

15) مقدمة فصل الخطاب ص 4.

16) يحمل رقم ج/4605.

17) الفقيه الكاتب النساخ التطواني (؟ ـ 1688) ـ محمد المنوني، دعوة الحق ع/10، س/16 مارس 1975 ص 80.

18) عثرت بعد إعداد هذا البحث بالخزانة العامة بالرباط على نسخة نادرة، ورقاتها : 85 مسطرتها 31، مقياسها 15/20، ناسخها : محمد ابن التهامي أجانا المكناسي، فرغ منها سنة 1939 رقمها : د/3787.
ويوجد بجانب هذه النسخة مجموع ورقات تحت رقم د/773، يضم 12 ورقة في نثر ابن خطاب.

يد البحث والتحقيق، فهو لا يزال ينتظر من يتولاه بالبعث والإحياء، ويتعهده بالكشف والدراسة ليخرج إلى عالم النور من جديد، فيفيد منه المتأدبون عامة، والمترسلون خاصة.

أقسام الكتاب :

ويتكون الكتاب من مقدمة وعشرة أبواب رتبت بحسب أهمية الرسائل المجموعة، ويذكر الجامع في المقدمة ما حمله على تأليفه فيقول : «وحللت من حماه[19] بالمنزل الخصيب، والمحل الرحيب، وتلقاني فضله بالبر والترحيب، ورأيت منه دام سعده واتصل عضده، اعتناء بكلام الفقيه أبي بكر المذكور، وتشوفا إلى ما صدر عنه من منظوم أو منثور، واستحسانا لما وقع له في بعض رسائله من إصابة الأغراض، إجادة المقاصد، السالم أكثرها من الانتقاد والاعتراض، فحملني الجد المنجد، والجد المسدد المرشد، على أن جمعت له أعزه الله من إنشائه هذا الكتاب المشرف بذكره، عملا على ما يجب من الجرى على أغراضه الكريمة لقدره، وأداء لبعض ما تعين من شكره، ورعيا لما غمرني، بل تملكني من اعتنائه وبره، وثنائه الذي لم أزل أتعرف عنه عرف نشره».

ويحدد في فقرة أخرى طبيعة الموضوع، والتسمية التي اختارها للكتاب، والمنهج الذي سلكه فيه قائلا : «واقتصرت في هذا الكتاب على النثر دون النظم إلا ما ارتبط به منه... وسميت هذا «فصل الخطاب»، ورتبته على عشرة أبواب».

أبواب الكتاب :

ينقسم الكتاب إلى عشرة أبواب هي :

الباب الأول :[20]

يدور حول البيعات، ويضم أربع رسائل، من بينها بيعة الأمير أبي سعيد بن الأمير أبي يحيى يغمراسن للأمير أبي فارس الحفصي، يقول في مستهلها :

«الحمد لله الذي رضى لنا الإسلام دينا ملة إبراهيم حنيفا، وبرحنا أبصار الأفكار في مجال الاعتبار، فرأينا ملكه وملكه محيطا بنا مطيفا... وأثبت للخلافة مكانة منيفة، حين قال : **إني جاعل في الأرض خليفة**، وكفى بنسبتها منه تعظيما لشأنها وتشريفا، حكما خفيت مداركه... والحمد لله الذي أسعد الإمامة الحفصية ببيعة معزها، وأسندها من كنفه الأحمى إلى معقلها الأسمى وحرزها، وصير حقها العظيم وعهدها الكريم إلى من كان كنزا لذخرها وذخرا لكنزها... ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة نتوقى بها المهالك، وتترقى برسالتها إلى محل القبول الملائك... ونصلي على سيدنا محمد رسوله الذي بعثه داعيا إلى سبيله ونعم الداعي، وأنزل عليه الكتاب والحكمة فطوبى للقلب الواعي، وجعل شريعته أكمل الشرائع... فصلى الله عليه وعلى آله الطيبين الأطهار، وأصحابه الرحماء بينهم الأشداء على الكفار، ورضي الله عن الإمام المهدي المعلوم، المحتل في ذروة الشرف الهاشمي النبوي والفخار».

ويتخلص من مقدمات الحمدلة والتصلية والدعاء للخليفة على العادة المألوفة في مثل هذا المقام بقوله : «أما بعد، فإن الله تعالى بسابق قضائه وقدره، ومقتضى مشيئته، التي لا يدرك الخلق من مكنون سرها غير أثره، قيض لهذه الأمة ولاة أمرهم أن يسوسونهم بالسنة». ويستردف ذاكرا البيعة : «وكان ممن ولي أمورهم فنظر لهم نظر الشفيق، وسلك من الاحتياط عليهم وتحسين العاقبة لهم سواء الطريق، مولانا الأمير الأجل أبو إسحاق ابن مولانا الأمير الأجل أبي زكريا بن ساداتنا وموالينا الأمراء الراشدين... فوضع مقاليد ملكه في يديه، وفوض أمور جميع المسلمين إليه، بعد أن استخار الله سبحانه، وسأله المعونة على إمضاء ما رآه من ذلك فأنجده لرضاه به،

---

19) يقصد به ذا الوزارتين ابن الحكيم.

20) يمتد من صفحة 4 إلى 18.

وأعانه على ذلك لما علم من كمال ابنه الإمام هذا... فبايعه أعلى الله أمره على السمع والطاعة».

ويختمها بقوله : «وأشهد بذلك كله على نفسه من سمعه منه، وهو على أكمل الحالات، التي ينفذ معها الأشهاد في الناس لمحرم سنة اثنين وثمانين وستمائة هـ».

الباب الثاني :[21]

ويتناول فيه البشائر والفتوحات والاستصراخ، والاستمداد والإصراخ والإنجاد والظهائر، ويشمل ثلاث عشرة رسالة، خمس في البشائر.

أولاها كتبها عن الأمير الغالب بالله إلى أهل مرسية.

وثانيتها كتبها إلى الرئيس أبي محمد.

والثلاث الأخر إلى العالم الفذ أبي القاسم العزفي.

ونقتطف من الرسالة الأولى ما يلي :

«...فإنا كتبناه كتب الله لكم من البشائر أحسنها مرأى ومسعى، وأكرمها من قلب الإيمان موقعا، من حضرة غرناطة حرسها الله... فقد علمتم أن العدو طاغية قشتالة - أهانه الله - لم يزل منذ مدة يحشد في البر والبحر احتشاد الموتور، ويروم - لا يسر الله مرامه - أن يطفئ بظلام الكفر ما للإسلام من ضياء النور».

ويذكر تكسر شوكة العدو، ومطاردة الأسطول المغربي العتيد لأساطيله العديدة :

«وبعد تفرق شملها، وتشعب طرقها في تلك اللجج وسبلها، ركدت الريح العاصف، وسكن الموج القاصف، فتبعها أسطولنا وأسطول سبتة الميمونان، فلما رأى العدو (رايات)[22] الإسلام قد أطلت، وأن غواشي الله منه قد أظلت، طار بأجنحة غربانه».

ويتلقى جيش العدو البري ضربات قاضية بفضل رباطة جأش المسلمين وشدة بأسهم :

«وأما جيشه البري، دمره الله، فقصد به إلى حضرتنا، مهدها الله، فما من بلد من بلادنا تصدى له في طريقه بالقتال، ودنا للنيل منه بالاقتال، إلا انقلب عنه[23] خاسر الصفقة، خاسئ الفرقة، حتى انتهى إليها، وعند قربه منها، أمرنا من هنا من فرسان القبائل والأندلس أنجدهم الله، فخرجوا إلى الطريق احتياطا على من يكون[24] هنالك من الرعايا، فتقدمت قطعة من جند القبائل إلى العدو، فضربوا في أحد جناحي[25] عسكره، فقتلوا منهم جملة عديدة...».

ويزف نبأ الانتصار إلى الرعية :

«فتلقوا يا معشر أوليائنا هذه البشائر العاطرة النواسم، الوافرة المقاسم، بالصدور المنشرحة، والثغور البواسم، ووالوا من شكر الله تعالى عليها، ما يضمن لكم من فضله مزيدا، ويحق لكم من المبشرات جديدا، وتجدون به ما تسألون من النصر على عدوكم حاضرا عتيدا».

ويختمها بالإشادة بموقف أبناء القبائل الشجعان البطولي :

«وهؤلاء قبائل الغزاة أعزهم الله، قد تزاحمت على الساحل منهم جموع يضيق بها الفضاء، ويحيق بالثليث وأهله عند وصولهم الانقراض والانقضاء، بمعاضدتهم يستأصل أمر الصليب وتيسر ما وعد به المسلمون من الفتح القريب... وإنا لنشكر رجاحة أحلامكم وثبات إقدامكم... والله لا يضيع أجر من أحسن عملا إن شاء الله، وهو تعالى يديم عزتكم وجورتكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته في الحادي عشر لشهر رمضان المعظم من سنة ثلاث وستين وستمائة».

وكتب في الفتوحات رسالتين يعلم فيهما بفتح قصر مرسية، نورد من أولاهما هذا المقتطف :

«أما بعد حمد الله ميسر كل مرام، والصلاة على سيدنا محمد رسوله الذي صدع بنوره كل ظلام، وعلى آله وصحبه

---

21) يبتدئ من صفحة 18 إلى ص 40.

22) سقط من الأصل حرف التاء.

23) سقوط حرفي النون والهاء.

24) سقوط حرف النون.

25) سقوط الياء.

الذين كان لهم من العزم في نصر دينه وحماية عرينه ما لم يوثر عن محام، والدعاء للمقام الأعلى بسعد يصعد بأمره من الظهور... فكتب كتب الله له نصرا وحيا، وفتحا هنيا، من مرسية... وهذا فتح جليل لـه مـا بعده، وصنع جميل يدل (على مـا)[26] ادخر الله لمقامكم من الاعتناء بـه وأعـده، ويتلوه من البشرى المنثالة، والنصر المردية للكفر القتالة، ما لا نستطيع حصره ولا عده، والحمد لله الذي جعل أمركم الوارث، ورفع بدعوتكم العالية عز الإسلام، وأهلك الخطوب الكوارث، وبادر العبد إلى تعريف الباب الشريف بهذا الخبر الشارح للصدور، الشارق كوكبه، الملألأ النور وقوفا عند رسم الخدمة، وعملا بمقتضى طاعته التي هي سبب النجاة والعصمة... والله يبقيه منصور اللواء، مقهور الأعداء، بمنه، والسلام الكريم عليه، ورحمة الله تعالى وبركاته».

وكتب في الاستصراخ والاستمداد رسـالتين، وفي الإصراخ والإنجاد رسالتين، ويختم هـذا الباب بكتابة ظهيرين.

الأول عن المقام العالي الغالبي.

والثاني عن الأمير أبي يحيى يغمراسن بن زيان.

وفيما يلي نص الظهير الثاني :

«هذا ظهير عناية مديدة الظلال، وكرامة رحيبة المجال، وحماية لا يخشى على عقدها المبرم، وعهدها المحكم من الانحلال والاختيال، أمر به فلان أنجد الله أمره وأيد عصره لجميع أهل الأندلس المستوطنين بحضرة تلمسان حرسها الله أحلهم بـه من رعيه الجميل أكنافا، وبوأهم من اهتمامه الكريم، وأنعامه العميم، جنات ألفافا[27]، ووطأ لهم جناب احترامه تأنيسا لقلوبهم المتحاشة، إلى جانبه العلي واستيلافا، وأشاد بمالـه فيهم من المقاصد الكرام، وأضفى عليهم من جنن حمايته ما يدفع عنهم طوارق الاضطهاد والاهتضام حين اختبر خدمتهم، فشكر عما تولوا فيها من الجد والاجتهاد، واطلع على أغراضهم السديدة في اختيار حضرته السعيدة للسكنى على سائر البلاد، فلحظ لهم هذه النية، وأعتبرها، واظهر عليهم مزايا ما لهم من هذه المناحي الحميدة..».

الباب الثالث :[28]

ويقدم في هذا الباب الذي خصصه للمجاملة والمواصلة والمهاداة والتعريفات ثلاث عشرة رسالة، موزعة على الشكل التالي :

ثلاث في المجاملة.

وست في المواصلة.

وواحدة في الإهداء.

ورسالتان في التعريفات.

ومما نختاره من مجموع هذه الرسائل، الرسالة الخامسة التي كتبها عن الأمير أبي يحيى يغمارسن بن زيان رحمه الله إلى حضرة تونس، وهي من النوع القصير، نورد نصها الكامل :

«الحضرة الكريمة حضرة مولانا الأمير الأعلى أبي إسحاق بن مولانا الأعلى الأمير أبي زكرياء بن ساداتنا وموالينا الأمراء الراشدين أدام الله أيامها، ونصر بنودها وأعلامها، عبد نعمتها المستند إلى ظل حرمتها، الموالي شكر جزيل إحسانها وعظيم منتها، فلان سلام، وبعد، فكتبه العبد كتب الله لها سعدا قائما، وعضدا لظهر مناوئها الخائن قاصا. من تلمسان حرسها الله، والعبد سالك من العبودية لها سننا واضحا، موال من خدمتها ونصيحتها عملا يعتقده صالحا رابحا، شاكر لإحسانها الذي لم يزل غاديا عليه رائحا، لا يزال يدب على ذلكم ليله ونهاره، وينظر إلى ما يوافق رضاها فيتبع آثاره، والله يعينه عليه، وإن العبد أصدر خدمته هذه إلى الحضرة العلية أيدها الله مقررا ما لديه من

---

26) بياض، لعل السياق يقوم بما وضع بين حاصرتين.

27) سقوط الفاء الأولى.

28) يبتدئ من ص 40 إلى 61.

الخدمة لبابها، والتعلق بأسبابها، والانضواء إلى كنفها المنيع وجنابها، متيقنا أن خدمتها أمر، لمتوليها من النوائب، ويمن في المبادئ من أمره والعواقب، وسبب يدنى إليه ما نأي من الآمال والمآرب، وببركة الاستناد إلى الحضرة الكريمة أيدها الله تدرك المنى، وتنقاد لطالبها الدني، وترتقي المراتب العلى، أبقاها الله وبابها موفور السعود، مقهور الحسود، منصور الجنود، معمور بالوفود، بمنه، والسلام».

الباب الرابع :[29]

ويدور هذا الباب حول العنايات، وما يتعلق بها من الأجوبة عنها، والمراجعات، والتوسل والاستعطاف والتخدم، ويضم ثمان عشرة رسالة مرتبة على النحو التالي :

رسالتان في الجواب عن عناية. نورد النص الكامل للثانية منهما :

«وبعد حمد الله على جزيل نعمته، والصلاة على سيدنا محمد رسوله الذي صدع بنور هداه ما تكاثف من الضلال وظلمته، وعلى آله وصحبه وأعلام الإسلام حماة سنته وهداة أمته، والدعاء للمولى أمير المسلمين بنصر يقود له الصنع الجميل بأزمته، والفتح الجليل برمته. فكتبناه كتب الله لكم من السعادة أحماها موئلا، وأصفاها منهلا من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى، وليس إلا خير دائم، ويسر ملائم، والحمد لله وعن إجلال لجانبكم يوفي نصيبه، واعتداد بولائكم الكريم مشهده ومغيبه، وشكر لمجدكم الذي زهر خلالا، وبهر كمالا، يتضوع طيبه، وإلى هذا وصل الله علاءكم. فإنه وصل كتابكم المكرم جميلا منزعه، نميرا مشرعه، منيرا في أفق سروكم الصميم مطلعه، ونور من خلوصكم لنا ما تبين كالصباح، وثبت خبره في الحسان الصحاح، ولدينا ذلكم حب لعلائكم لا يحول رونقه، ولا يقيد مطلقه، مقرون بالوفاء لا يتأخر عنه ولا يسبقه، ونبهتم على ثقتكم فلان أكرمه الله، ونحن لما نعلم من اختصاصه بجانبكم واختياركم إياه، للتصرف في مذاهبكم، لا نزال متى ورد علينا نقرب منا منزله، وننهضه على ما تولاه من أشغالكم وتكفله حتى يتخلص منها ما أسندتم إلى نظره، وينفصل واعتناؤنا معه على أثره، وكلما يرد علينا من أوطاركم قلنا به الاحتباء التام والاهتمام، وكل ما ينضاف إليكم تتم رعيه، وإن كان حكم المضاف أن يحذف منها التمام، والله يديم عزتكم، ويصل سعادتكم، والسلام».

وكتب الرسالتين التاليتين في العناية عن صاحب مرسية إلى صاحب منرقة وعن الوزير أبي بكر بن وضاح إلى ابن الفضل.

وأطرف ما في هذا الباب الرسالة الملتزمة الراء التي نجترئ منها ما يلي :

«الإمارة النصرية بشرف ربها، ورب شرفها، راقية المراتب، راتبة الراقي بالمشارق، والمغارب، مشرقة الأنوار، مشرعة سفارها لنحور الكفار، مسرعة لنصر الصارخ المذعور بالعسكر الجرار، مأثورة المكارم، كريمة المآثر والآثار، غرة قمرية، وسيرة عمرية، وضريبة ضربية، وصرامة عربية، يذر كرمها، والمعصرات معسرة، فنرد بحره فراتا قراحا، وتقطر صوارمها الضارية بتقطير الأقران الضاربة.

فرغت لنصرك قدرة تجرى المقادر باقتراحك
فالروم راموا غدرة أردتهم دربا براحك

الباب الخامس :[30]

ويخصص هذا الباب للإخوانيات، وفيه يعرض سبع عشرة رسالة.

منها ست عشرة رسالة إلى أصدقائه بمرسية وسبتة وتونس.

---

29) من ص 61 إلى ص 84.

30) يمتد من ص 84 إلى 109.

ومن إخوانياته الرسالة التي كتبها إلى ابن الخطيب أبي بكر بن أبي جمرة المعروف بالنجيب جوابا عن كتاب اعتذر فيه إليه عن كلام بلغه عنه، وهو أحد تلاميذه، وهي متوسطة الحجم تفيض بأنبل عواطفه وأخلصها، متضمنة بعض صور الطبيعة الحية، وهذا نصها :

«كتبته أيها الولد النجيب، والحبيب الذي لـه من قلبي المحل القريب، من غرناطة حرسها الله، وودي لكم صفة لا تتغير، ومعرفة لا تتنكر، وشكري لخلالكم السنية كما نفح الروض الأعطر، وقد وصل، وصل الله عزتكم، كتابكم الكريم، زهرة جاء بها زمن الربيع، وجلل في صفحتها رواء الحسن البديع، أنشقتني ريح الشباب، وعطفت على عنان أنس كان مزمعا للذهاب، فاهتززت لوارده اشتياقا، وذكرني بعهد جرت دموعي بذكره سباقا، وتضمن الكتاب التنصل من أمور اقتضتها الفتنة، ولحقت فيها غير المتهم الظنة، وقد انصرمت تلك الأمور، وتطهرت من دنس أضغانها الصدور، فأنا أرى ألا نرجع إليها القهقرى، وأن نلقي ما قيل كان الصادق من الحديث أو المفترى، فلا تخطروها بخاطركم، ولا تتكلفوا في البراءة منها ما تلكفتم من معاذركم، فجانبكم أعتقد أنه برئ، وأغار عليه أن يقال إنه مسئ، واعلموا أن بيني وبينكم نسبة تسليمية، اتفق على رعيها جميع الملل، وعن إهمال واجبها من الزلل، فمن أضاعها خرق إجماعا، وضاق بالإنصاف ذراعا، ومن كان في اقتناء المحامد غالبا، فهو برعاية حقها أبصر، وعلى القيام بوظيفتها أصبر، أما أنا فليس لكم عندي إلا حب يستوي فيه الإعلان والإسرار، ويرمي جمرة بيتكم بالحمد والثناء، وإن لم ترم إلا بحصى الخزف الجمار، وقد وفئت إلى الحسنى كما فئتم، وفتحت أبواب المواصلة، فادخلوا من أيها شئتم، بحول الله، وهو تعالى يديم عزتكم، ويصل رفقتكم، والسلام».

ومما يستوقف النظر في هذا الباب وجود رسالتين ملتزمتين هما : الرسالة السابعة التي التزم فيها حرفي الحاء والعين، والرسالة الثامنة التي التزم فيها حرفا واحدا هو السين.

ومن مقتطفات الرسالة الأولى :

عمدي أبا العباس أحمد شرعة حظت على محتومها علياء

نفحت لأشعاري حدائق عطرت نفحاته بنعوته وحلاه

طالعتني رياحينك المتضوعة تحيى بعرفها القرائح، وراجعتني حسانك المتنوعة تحل العصم الأباطح، فاعتمدتها بمستحق التعظيم والترحيب، وسعدت بواحدة العصر الساحرة العروب، تفارح عنبر الشحر، وتستعير حسنها عقود النحر، فجعلتها سبحة تعبدي، ومحل تعهدي، وارتحت فخلع حبرها علي حبرا، واستدعيت محاورتها فأودعتني حكمها عبرا، منحت جوامع الفصاحة والبراعة، وتحدت طاعتها حروف المعجم حين عصت فحول الصناعة، فحشرت عيناتها حشرا، واستوعبت آحادها عدا وحصرا، فالعين تحسد عليها حاسة السمع، وصحة معانيها وحلاوة منازعها ومناحيها تتعدى حد الوسع، «فالصاحب» عنها يحجم، و«عبد الحميد» ببدائعها مفحم».

وخاتمة المطاف في هذا الباب رسالة كتبها الكاتب إثر مرض ألم به فخال فيه نهايته، وهي قصيرة، وهذا نصها :

«سيدي الذي أحدث عن فضائله الباهرة، ومآثر جلاله الزاهرة، ولا أغفل عن مخاطبته في الدنيا كنت أوفي الآخرة، رسمت هذه العجالة إليكم من تلمسان حرسها الله، والحامل واقف مستحث للقلم، مستقل من الكلم، وأناقد طارعني الترب والكفن، وصيرني إحدى أعاجيب هذا الزمن، والإرجاف كما قيل مقدمة الكون، والنفوس إلى مواقيتها محفوفة بالكلاءة والصون، وكنت في الشهر الفارط قد هجم علي مرض صفراوي في غاية الحدة وأحل بجسمي، وأيأسني من نفسي، وأشرف بي على الفوت، ثم أفلت من أظافر الموت، وسأنشب فيها فلا أستطيع الإفلات، ويصدق من يقول فلان مات، والله يجعل من صبابة العمر في طاعته، ويكتبني فيمن كانت التقوى رأس بضاعته، بمنه والسلام».

الباب السادس :[31]

ويتناول فيه التهاني، ويبلغ عدد رسائله تسعا.

ثلاث منها مكررة في التهنئة بفتح حصن، وفيما يلي نص الرسالة الأولى، وقد كتبها إلى أمير المسلمين الغالب بالله عن صاحب مرسية مهنئا بتولية العهد :

«أما بعد فكتب، كتب الله لكم إسعاد المقادير وشفع لديكم التهاني بالبشائر. من مرسية ولحضرتكم السعيدة مهدها الله جمال يبدو رواؤه في وجوه الأيام، وصيال يشتد به ما وهى من ركن الإسلام، واستغلال يبلغ بمصالح العباد والبلاد أقصى مبالغ الكمال والتمام، مآثر تتجلى منيرة منيفة كالنار في رأس العلم، بل كالشهب في حدس الظلم... فالحمد لله على أن وهب لمقامكم السعيد من قم نعمه، وزاده وأفاده من عوارف اعتنائه، الذي بنى على أسه أمره العلي وشاده، ما نبه على علو درجته لديه ومقداره، وثبت المتقلد لطاعته على طريق استبصاره، وأوجب تهنئته بإفراده بهذه الآلاء الجسيمة والمزايا وإيثاره وخصوصا بما من به سبحانه من حراسة حوبائه، حتى قر عينا بنجابة الأمراء الأمجاد أبنائه، وقلد عهد خلافته منهم من ينهض نهوض المطيق بأعبائه، نجله الماجد أبا فلان اقتداء بفعل من سلف من الملوك الجلة والله يبقى مقامكم العلى وقلوب الأعداء ترجف من حقيقته، ويريه عقد الإمارة البهية الشارة بخليفة خليفة خليفته إضافة لا تنقطع لها سلسلة وإخافة لا تطيش لها سهام مرسلة بمنه والسلام».

الباب السابع :[32]

ويخصصه للتعازي، ويضم خمس عشرة رسالة.

أربع مكررة في تعزية الأمير أبي سعيد.

وثلاث في الإمام العالم ابن العزفي.

ومما جاء في تعزية الأمير أبي سعيد الرابعة :

«وقد فجأني من وفاة الأمير الأجل أبي سعيد رحمة الله عليه ما أسكب الجفون دما، وصير وجوه السرور عدما، فإنا لله وإنا إليه راجعون، تأدبا مع الرب، وتخفيفا من ثقل الكرب، فلقد صرمت منيته سبب أملي، وكسفت وجه أنسي وجذلي، فالدينا لناظري مظلمة، والأنباء كلها بعد هذا النبأ موحشة مؤلمة. استغفر الله إلا الحديث عن بقاء مولاي أيده الله، فإنه مسل عن كل مفقود، وإن سا مكانا، وأجرى شئونا، وجل شأنا على أني ما أعزي عنه إلا نفسا لفقده مروعة، وكبدا بوجده مصدوعة، وقلبا أخذ من أوصاب مصابه وأشجانه، قدر ما أخذت من إحسان مولاي أبيه ومن إحسانه...».

ومن بليغ تعازيه هذه التعزية التي هي خاتمة الباب :

«لقد مضى منه الحمام بشهاب ثاقب، وحسام ضارب، فارس الهيجاء، وحارس العلياء، بعيد الهمم، مبيد في الحرب للقمم، يسد الخلة، ويسود الأكابر الجلة، فمن للكتائب يقودها فتقرن بالظفر فقودها، أم من للمعالي يرفع مبانيها، ويجمع معانيها، ويعمر مغانيها، والله يعلم أني أصبت من فقده بأعظم مصاب، وأخذه الدهر من يدى أخذ اعتصاب، فلولا أن أملي في مجدكم قوي، وسنني في الاعتداد بكم سوي، لقلت إني دون أمل بقيت، ولم أجد عذرا لنفسي بعد كاس فقده الذي به سُقيت، ولو لا أنه يجل عن الفداء لفديته بالنفس، وحللت بدلا منه في ذلك الرمس، وأن في سلامة ذاتكم العلية ما يخفف من الرزية ويعين على تحمل البلية، والله تعالى يجعل هذا الرزء آخر أرزائكم، ويتولى وقاية علائكم، ويجزل ثوابكم عليه، ويجعله لكم ذخرا كريما لديه، والسلام».

الباب الثامن :[33]

ويتناول فيه الصدقات، ويحتوي على ست رسائل، تتسم في معظمها بالطول.

31) من ص 109 إلى ص 128.

32) من ص 128 إلى 151.

33) من ص 151 إلى ص 181.

ونجتزئ من الأولى ما يلي :

«الحمد لله الذي سوغنا من موارد توفيقه، السالك بنا على نهج الرشد وطريقه صفوا عذبا، واستقينا درر سحائب إحسانه، الصادقة الأقواء، الصادعة الأضواء، فانهلت علينا بالنعماء سكبا، وأظهر في صنعه الذي بهر من لطائف أسراره، لمن تأمل بعين اعتباره، ما أزال به الريب عن المرتاب، ورسم فيه أثر فعله الذي لا يتصف[34] بالجبر والاكتساب، ورفع عن غيب إرادته التي لا تتوقف على سبب، ولا تصدر عنها الموجودات لغرض ولا أرب، ستورا من الأعراض زالت دونها وحجبا، ونادي العقول التي انجاب عنها عماء العماية، وانجلى لتبليغ لسان حكمته الكافية للكافة. والحمد لله الذي سدد إلى معرفته الألباب حين أنزل على عبده الكتاب، وكتب في التنزيل من التحريم والتحليل، ما فصل جمله أجمل التفصيل، ولم يدع من أبواب متعبداته بابا مبهما ولا قسما من أقسام مشروعاته إلا وضع عليه من أمره ونهيه علما جعله لفلك الأحكام الدائر بالنقض والإبرام قطبا، وضمن فيه من دلائل أزلية ثبوته وشواهد استغنائه في سلطانه وانفراده بعزة ملكوته ما شفى بهداه، ونفى أن يكون معه سواه نظيرا أو ظهيرا، ضدا وندا وتربا، وسرح منه قلب المومن المنشرح بالسنة في روضة مونقة من رياض الجنة، تتفيأ ظلالها عن اليمين والشمال. والحمد لله الذي أبدع الإنشاء، ونظم شل العالم بمقتضى حكمه كما شاء، ورتب الوجود ترتيبا أرى فيه من أحكام الوصف وتناسب الاتقان واتقان المناسبة المنظر كل إبهام العجائب المحيطة به من جميع الجوانب، ونشهد أنه الله الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له شهادة من اهتدى من أعلام السنة بمنيره وأجاب الداعي إليه على بصيرة فأصبح لمنادى الحق ملبيا، ونصلي على من انتخبه من أشرف بيوت العرب نسبا، وأطهرها أما وأبا، وأسمحها بما ملكته نفوسا وقشبا، وأصدقها[35] مصاعا وأطولها إذا وصلت الأسياف بالخطاب وأعلاها يوم الجود يدا وكعبا سيدنا محمد رسوله الذي اجتباه لحمل إمامة وحيه، واختاره ورفع له ذكره، ووضع عنه أوزاره، وجاءه الملك فشق عن قلبه، ونزع منه حظ الشيطان وطهره... فصلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين ما دارت الكواكب، ودرت السواكب، وسارت بذكره الركائب، غورا ونجدا وشرقا وغربا. أما بعد هذا القول الذي رقم صفحات القراطيس بيد الإجادة والإحسان، وسقى أرضها من نواشئ إنشاء البراعة المنعذية بردها رواضع اليراعة، ما أبان عن العلم بعلم البيان، فترى أديمها بأنيق منظرهم وتنميق غرره وطرره، كأنما ينبت ديباجا ووشيا وعصبا. فإن فلانا من له العلاء الصميم، والثناء الحديث والقديم، وأنجبه البيت الباسق، عماد الناسق، من صدور الأعيان، أكابر أمجادا آباء وأولادا نعدهم حسيبا حسيبا، ونجيبا نجيبا، وندبا ندبا فخطب إليه بنته المباركة زهرة الفرع الناضر، ودرة عقد الحرائر، المسماة بفلانة حفظها الله خطبة سفرت عن السعد محيا راق سناء واستحسن إقبالها فتقبلها قبولا حسنا، وقوم ما عرضت من الرغبة ببذل الإسعاف والاغتباط لها ثمنا...».

وهي طويلة جدا تشغل الحيز الأكبر من الباب، تبلغ عدد صفحاتها ما يقرب من ست عشرة وتتميز بظاهرة الإطناب.

ومن أقصر رسائل هذا الباب، الرسالة التالية :

«الحمد لله ذي الجلال والإكرام، المفضل بسوابغ الإحسان والإنعام، العليم بما أكنته السرائر واشتملت عليه الأرحام، الخبير بخفيات الضمائر، وما يتردد في طي الخواطر والأوهام، المنزه عن الاتصال والانفصال والانفصام، المقدس عن صفات الحدوث وممات الأجسام، الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم وأكمل قوام، وأفاض عليه من إحسانه ولطيف امتنانه ما بهر العقول الراجحة والأحلام، نحمده سبحانه حمد مقر بالإذعان لعظمته والاستسلام، ونشكره جل وعلا على أن أباح النكاح وجعله من شعائر الإسلام، وحض عليه في كتابه العزيز، وجعله سببا

34) سقوط حرف الصاد.

35) سقوط حرف الهاء.

للاعتصام، وحرم السفاح، تحريما متصل الدوام، وأوعد بالعقاب على التلبس به إيعادا يوجب النفور عنه والإحجام، ونصلي على سيدنا ومولانا محمد رسوله سيد الأنام، المخصوص بالكمال الباهر والتمام، المجتبى من أطهر عنصر وأرفع مقام. صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الأئمة الأعلام، البررة الكرام، الذين أيد الله بهم الدين الحنفي وأذل بهم عبدة الأوثان والأصنام، وسلم عليه وعليهم تسليما كثيرا موال لليالي والأيام، وبعد فإن النكاح مورد عذب المناهل محمود الأواخر والأوائل، واضح الإعلام والدلائل، وسبب يسوق إلى (....)[36] المتصلة والخير الشامل، وقد أوجب الشيخ الوزير أبي فلان النكاح في البنت المباركة (......)[37] مكفولة من صغرها إلى كبرها، فلانة لفلان على بركة الله تعالى، وحسن عونه وتوفيقه وتسديده ويمنه، هـ».

الباب التاسع :[38]

ويعرض فيه أربع رسائل قصيرة في الألغاز، وهي جد طريفة، تكشف عن مدى ثقافة الكاتب في علوم اللسان، ونورد فيما يلي بعض المقتطفات منها :

«ما ضرب من المعطوفات، له نظير في المبهمات والمبنيات على الفتح، والموقوفات يمد ويقصر، ويحدث عنه ويخبر، تفصيله بعد وصله وتثنيه حين تضم واحدا منه إلى مثله، وعند التثنية تتغير ألفه بالانقلاب، ويجرى مجرى أمثاله».

الباب العاشر :[39]

ويخصص الباب العاشر والأخير لمعارضة أبي الفرج[40]، ويتألف من عشرة فصول قصار تمثل مجموعة نظرات حصيفة، وتأملات عميقة، تنطوي على كثير من النصائح والتوجيهات، استخلصها من تجارب الحياة، يتوجه بها إلى الإنسان.

ونجتزئ من الفصل الأول ما يلي :

«يا خاطب الدنيا أما علمت أنها مومسة لا ترد يد لامس، ولا تدع شارة زينتها على قريبة العرس من المأتم، شبيهة المغنم بالمغرم، معروفة الفرك، مخومة الفتك والبتك، طالما خدعت صاحبها، وصرعت طالبها هـ».

ويقول في الفصل الثاني بأسلوب البيان، مخاطبا الإنسان الذي شغلته الدنيا بأهوائها وترهاتها، واستحوذت على مجامع نفسه :

«يا من لج في البطالة وتمادى، يا أسير الشهوات متى تفادى، يا طويل الأمل، يا قصير الأجل، يا قليل العمل، يا كثير الزلل، إلى كم تنادى، وسمعك على الموعظة محرم، وقلبك لدى التذكرة جمادى، إذا خلوت بنفسك فأدبها بالخلوة، وأنبها على القسوة، وقل لها ما هذا الجمود.

أصخرة أنـــا مـــالي لا تطربني
هـذي المـدام ولا هـذي الأغـاريـد[41]

إن لم تليني فلا تليني، ما عاتب الرجل اللبيب كنفسه، كان العقل والهوى شريكين فيك، لكل منهما نصيب مما تولاه بيدك وفيك، فكانت حالك بينهما ممزوجة الصلاح بالفساد، مخدومة الغي والرشاد، فما لبث الهوى أن تعدى فنقض عهد الشركة أسوأ نقض وانفرد بسلكك، وإن كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض، فصار أبلغك بهيما، وشقك السليم سقيما، جاهد مع عقلك المحسن هواك المسيء، أو ما قرأت : **فقاتلوا التي تبغى حتى تفئ** ؟ إن لم تكن في هذا الجهاد ذا عزم قوي، قتلتك الفئة الباغية ولست من أصحاب علي».

36) محو بمقدار كلمة.
37) محو بمقدار كلمتين.
38) من ص 181 إلى 183.
39) من ص 183 إلى 191.

40) أبو الفرج عبد الرحمان بن جعفر الجوزي (508 - 597 هـ) - انظر ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج/3، ص 104.
41) البيت من قصيدة لأبي الطيب المتنبي في هجاء كافور الأخشيدي. ديوانه 2 : 169، تحقيق البرقوقي.

ويعود في الفصل السابع إلى مخاطبة الإنسان داعيا إياه إلى الأخذ بمبدإ العقل، وتحكيمه في حياته وترجيحه على جانب الهوى :

«أيها الإنسان فيك شيئان متضادان لا متوادان، أحدهما شريف وهو العقل، والآخر وضيع وهو الهوى، فلا تحكم هواك على عقلك... روي أن موسى عليه السلام، دعا على قوم بالعذاب، فأوحى الله إليه إني قد ملكت سفلتهم على عليتهم، فقال يا رب أردت لهم عذابا عاجلا، فأوحى الله إليه أو ليس هذا كل العذاب العاجل، يا هذا غمرك الله بالنعم، وأوجدك بعد العدم، تفضلا منه عليك، لا لاحتياجه إليك، وجعل لك السمع والبصر والفؤاد، مع سائر الحواس الخمس لتصرفها فيما يرقيك، إلى حضرة القدس رفقا بك، وتلطفا وحنانا عليك وتعطفا.

ثم سألك حظا يسيرا من قلبك فما سمحت به **إن الإنسان لربه لكنود.**

ما أقبح البخل على سائل كل الذي تملك من منحه، صنيعه أفرط في حسنه، وصنعك المفرط في قبحه، ما عذرك يوم يلقاك، وقد بخلت عليه مما أعطاك يا معرضا عنا، يا مستوحشا منا، ما سبب هذه الوحشة ؟ أترانا بعناك ؟ أترانا أضعناك ؟، رحمتنا إليك تنزل، وخيرنا عليك يسترسل، وحفرتنا معدة وفيها كل ما يستحسن ويستجمل لكن إضرارك عاقك عن الوصول، وشيطانك خدعك عن الفاضل بالمفضول، ومع هذا فلا تيأس من هدى، إن مع اليوم غدا، الندم توبة، والمذنب مقبول متى كانت له أوبة، فإن ندمت قدمت، وإن استطلت الطريق وخشيت ذلك المضيق فاشرع في السلوك بعزيمة، تفز من ثوابنا بغنيمة، قف لنا في الطريق ان لم تزرنا، وقفة في الطريق تصف الزيارة».

ويتحفنا في خاتمة هذا الباب بالحديث عن الحب والمحبين في الفصلين التاسع والعاشر وبهما يختم الكتاب. ولطرافة الفصلين نورد مقتطفات منهما.

قال في الفصل التاسع عن الحب والمحبين :

«الحب بحر زاخر، ركوبه خطر، والسلامة فيه غريبة، والمحب بقطعه في سفينة، الحذر بريح الأمل، فإن كان جو الوصل صابيا وهواء الهوى معتلا أوشك أن يبلغ مدينة النجاة، وإن عرضت في جو الوصل سحابة أعراض، لعب موج القلق بالسفينة، وعصفت رياح الزفرات فعدلت بها عن سمت تلك المدينة، وأخرجتها بالقسر عن القصد، وأبقتها في بحر ظلمة الوجد، فعمي الأثر وانقطع الخبر. المحبون وإن جمعتهم صفة واحدة، فأحوالهم مختلفة، لو رأيتهم في مواقف الغرام، تحت رواق الظلام، قد مزقوا ثياب الكتمان، وقاموا على بساط الهوان، واكتحلوا بالسهد، ومزجوا بالدموع خمر الوجد، تقلهم ذكر الحبيب، وغناؤهم نغمات النحيب، فإذا دبت الحميا فيهم، صرحوا ببلبالهم، وصرخوا بحسب أحوالهم».

وقال في الفصل العاشر والآخير عن الحبيب والمحب :

«كان الحبيب قد أنس المحب بحبه، وأسكنه جنة قربه، واختصه بإيلافه، ونهاه ابتلاء أن يقرب شجرة خلافه، والهوى خداع، وعرف أن وجدنا نزاع، فلما تمكن بالمحب التأنيس حباه إبليس فمناه بزور، ودلاه بغرور، وجلب إلى عين مراقبته وسنا، ووسوسه حتى دنا، فهصر منها غصنا، فزلت به القدم، وندم حين لا ينفع الندم، فعوض البلوي من عافيته، وسحب من ظل الوصل إلى رمضاء البحر بناصيته، فخرج يغض بعبرته، ويعض بنانه لفرط حسرته، وحشاه من جمر الأسى يتململ...».

☆ ☆ ☆

ويظل كتاب «فصل الخطاب» لابن خطاب، مع قيمته التراثية، ميدانا فسيحا، وخصبا للدراسة المستفيضة والمتعمقة التي تسبر أغواره، وتحدد أبعاده الأدبية والتاريخية، وتكشف عن مميزاته الفنية، وتعكس صورة صاحبه، وعمق تجربته في فن الترسيل، وهو ما أتمنى أن يتحقق على يد أحد الباحثين المتخصصين في المستقبل القريب، وليس ذلك على ذوي الهمم بعزيز.

أثر القرآن الكريم في شعر أبي تمام
مضموناً وأسلوباً

للأستاذ أحمد أبو زيد

تمهيد :

نزل القرآن الكريم باللسان العربي المبين فتمثلت فيه الصورة المثلى للبيان العربي، ورأى فيه فصحاء العرب وبلغاؤهم جوهر فطرتهم في اللغة والبيان، وأدركوا منذ أن استمعوا إلى آياته البينات، أنه فاق المستوى الذي تعارفوه في بيانهم وأشعارهم، فكانوا أول من شهد بإعجازه.

رُوي أن الوليد بن المغيرة ـ وكان من فحصاء العرب وذوي الرئاسة فيهم ـ ذهب إلى رسول الله ﷺ، عندما بدأ القرآن ينزل عليه، فسأله أن يتلو عليه من القرآن، فتلا عليه. ولما عاد إلى قومه قال : «والله لقد سمعت من محمد كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن. إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق وإن أعلاه لمثمر» وهناك روايات أخرى مماثلة لما رُوي عن الوليد بن المغيرة، يشهد فيها فصحاء قريش ـ وهم على كفرهم ـ بسموّ القرآن ويشهدون بذلك على أنفسهم بالعجز.

كان القرآن يروع أولئك الفصحاء بسحر بيانه، ويشدّ إليه أسماعهم، ويهزّ مشاعرهم هزّاً قويّاً، وينفذ إلى نفوسهم فيؤثر فيها، ثم تختلف استجاباتهم.

فالجاحدون يتأخرون ويجفلون خوفاً منه ﴿**كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة**﴾،[1] والمومنون يجدون فيه برداً وسلاماً لقلوبهم، وغذاء روحيّا لنفوسهم. ويحيون فيه وبه حياة مفعمة بأحاسيس الرهبة والرجاء ﴿**تقشعرّ منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله**﴾.[2]

فضل القرآن على الأدباء وأهل البيان

وعندما ثبتت دعائم الإسلام أقبل الناس على القرآن يحفظونه ويرتلونه، ويدرسونه ويتعلمون علومه. فأصبح القرآن أساساً رئيساً في التربية والتعليم، وعنصراً هاماً في الثقافة والتكوين لعامة أبناء المسلمين. ثم غدا مصدراً لاستنباط العلوم، ومرجعا لاستخلاص القواعد والشواهد، ومثالا يستضاء بنوره في البيان وطرق التعبير. كل يجد فيه بغيته. قال الراغب الأصفهاني في مقدمة كتابه «المفردات في غريب القرآن» : «فألفاظ القرآن هي لبّ كلام العرب، وزبدته وواسطته وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء الحكماء في أحكامهم وحكمهم، وإليها مفزع حذاق

1) سورة المدثر : 50 ـ 51.
2) سورة الزمر : 23.

الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم».[3] وقال السيوطي في مقدمة كتابه «الإتقان في علوم القرآن» : «وإن كتابنا القرآن لهو مفجر العلوم ومنبعها، ودائرة شمسها ومطلعها، فترى كل ذي فن منه يستمد، وعليه يعتمد. فالفقيه منه يستنبط الأحكام، ويستخرج حكم الحلال والحرام، والنحويّ يبني منه قواعد إعرابه، يرجع إليه في معرفة خطأ القول من صوابه، والبيانيّ يهتدي به إلى حسن النظام، ويعتبر مسالك البلاغة في صوغ الكلام»[4].

ونظم ابن أبي الأصبع المصري شعراً يصف فيه القرآن، فأوضح ما له من قيمة في البيان، وما له من تأثير في هداية الناس، إلى بديع القول نظما ونثراً، وما له من فضل في زيادة بهاء كلام البلغاء، وزيادة رونقه في الأسماع فقال :

وفي نظمه بعد الغرابة معجزٌ
محاسنه لم تنحصر فتعدد

هدى الناس منه للبديع بديعه
فصاغوا حليّ القول منه وولّدوا

بمعنى يزينُ المرءَ منه كلامه
فيحلو بأسماع الورى حين يُورد

ويضحى لها يأتي به أي رونق
يُعظّمه المصغي له ويمجّد[5]

هذه الأقوال توضح قيمة القرآن في مجال العلوم الشرعية واللسانية، وفي مجال البيان والبلاغة على السواء، ولئن كان العلماء والدارسون قد عنوا بدراسة تأثير القرآن في وضع تلك العلوم بما فيها علم البلاغة والبيان، فإن أحدا، فيما نعلم، لم يُعن بدراسة تأثير القرآن في فن البيان ذاته. وأعني تأثيره في فن القول وأساليب البيان، في الشعر والنثر. مع أن الأقوال التي تقدمت تشهد بأن القرآن «هو مفزع حذّاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم»، وأن «البياني يهتدي به إلى حسن النظام، ويعتبر مسالك البلاغة في صوغ الكلام» ولقد اهتم الدارسون بالبحث عن المؤثرات المختلفة التي أثرت في الأدب العربي شكلا ومضموناً، ولكنا لم نجد حتى الآن بحثاً يُعنى ببيان موقع القرآن بين غيره من المؤثرات.

وفي هذا المقال سنحاول بحول الله إثارة الانتباه إلى شيء من نواحي أثر القرآن في البيان نثره وشعره.

قياس فصاحة الكلام بمدى موافقته لما ورد في القرآن

اتخذ الناس من القرآن مقياسا للفصاحة، وجعلوه مرآة يعرضون عليه ألفاظهم، ومرجعاً يرجعون إليه في المفاضلة بين الألفاظ المستعملة في الأمصار المختلفة وقد روى لنا الجاحظ جانبا من المفاضلة بين لغة أهل مكة ولغة أهل البصرة، قال : حدثني أبو سعيد عبد الكريم بن روح قال : قال : أهل مكة لمحمد بن المناذر الشاعر : ليست لكم، معاشر أهل البصرة، لغة فصيحة، إنما الفصاحة لنا أهل مكة. فقال ابن المناذر : أما ألفاظنا فأحكى الألفاظ للقرآن وأكثرها له موافقة، فضعوا القرآن بعد هذا حيث شئتم، أنتم تسمون القِدْرَ بُرمة وتجمعون البُرمة على برام، ونحن نقول قدْر، ونجمعها على قدور. وقال الله عز وجل : ﴿**وجفان كالجوابي وقدور راسيات**﴾[6]. وأنتم تسمون البيت إذا كان فوق البيت عُلّية، وتجمعون هذا الإسم على علالي، ونحن نسميه غرفة، ونجمعها على غُرُفات وغُرَف. وقال الله تبارك وتعالى : ﴿**غرف من فوقها غرف مبنية**﴾[7]. وقال عز وجل : ﴿**وهم في الغرفات آمنون**﴾[8]. وأنتم تسمون الطلع الكافور والإغريض، ونحن نسميه الطلع. وقال الله تبارك وتعالى : ﴿**ونخل طلعها هضيم**﴾[9].

---

3) المفردات في غريب القرآن ص 6.
4) الإتقان في علوم القرآن ص 2 ط المكتبة الثقافية - بيروت.
5) بديع القرآن لابن أبي الأصبع ص 82، ط/3 دار نهضة مصر - القاهرة.
6) سورة سبأ : 13
7) سورة الزمر : 20.
8) سورة سبأ : 37.
9) سورة الشعراء : 148.

قال الجاحظ: فعدّ عشر كلمات لم أحفظ منها إلا هذا[10] فهذا ردّ مفحم لأهل مكة، صدر من رجل شاعر خبير بصناعة الكلام، كثير الممارسة لفن القول، كثير التفكير في انتقاء أحسن الألفاظ وأفصحها. والانشغال الطويل بذلك هو الذي قاده إلى معرفة أفضل اللغات اعتمادا على المثل الأعلى للفصاحة. وهو القرآن.

واتخذ علماء اللغة بدورهم من القرآن مقياساً للفصاحة يشهد لذلك ما رُوي من أن الأصمعي كان ينكر «زوجة» بالتاء. ويقول: الصواب «زوج» ويحتج بقوله تعالى ﴿أمسك عليك زوجك﴾ فقيل له إنها وردت في شعر ذي الرمة:

أذو زوجة بالمصر أم ذو خصومة
أراك لها في البصرة اليوم ثاويا

فقال: ليس ذو الرمة بحجة، إذ طالما أكل البقل والملح في حوانيت البقاليس»[11].

ووجد الخطباء من جهتهم في القرآن ما يزيد من حسن خطبهم، فكان الخطيب منهم يحرص على أن يُرصّع كلامه بآي من القرآن. وتعارف أهل البيان على استحسان ذلك، لأنه مما يزيد من بهاء الكلام يقول الجاحظ: «وكانوا يستحسنون في الخطب يوم الحفل وفي الكلام يوم الجمع آياً من القرآن، فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء والرونق والرقة وسلس الموقع»[12].

الشعراء ينهلون من القرآن:

لم يكن القرآن مقياساً للمفاضلة بين لغات الأمصار، ولا للاحتجاج لفصاحة لفظ دون لفظ، ولا وسيلة لتزيين الخطب فحسب. وإنما كان فوق هذا كله منهلا زاخرلاً، ينهل الأدباء من ألفاظه ومعانيه. وتتبع مظاهر التأثر بالقرآن في مختلف فنون الأدب العربي موضوع واسع عريض ليس هنا مجال التوسع فيه، ولذلك اخترنا في هذا المقال أن نقف عند بعض مظاهر التأثر بالقرآن لدى شاعر واحد، هو أبو تمام حبيب بن أوس الطائي، من شعراء القرن الهجري الثاني.

يمثل القرآن العنصر البارز في ثقافة أبي تمام، شأنه في ذلك شأن سائر أدباء العربية إلى حدود العصر الحديث. ومن الأمر البدهي أن يكون هذا العنصر من أبرز المؤثرات في أدبهم شكلا ومضمونا، وقد اخترنا أن نبدأ هذه الدراسة بأبي تمام لأنه ـ كما لاحظ بحق الدكتور محمد نجيب البهبيتي أكثر شعراء العربية تأثراً بالقرآن[13]. والحق أن قارئ شعر أبي تمام لا يكاد يمضي في القراءة حتى تطالعه معاني القرآن وألفاظه، فيخيل إليه وكأن الشاعر يضع القرآن بين عينيه يستمد منه متى شاء. ففي القصيدة المشهورة التي مدح بها المعتصم وذكر إحراق الأفشين وصلبه أمثلة كثيرة توضح هذا التأثر، وتظهر الشاعر وكأنما أخذ القرآن بلبه، واستأثر بخياله، ففي هذه القصيدة يقول متحدثاً عن الأفشين:

مَكْراً بَنَى رُكْنَيْه إلا أنه
وَطَدَ الأساس **على شفير هار**

«**على شفا جرف هار**» من قوله تعالى: ﴿**أم من أسس بنيانه على شفا جُرف هار فانهار به في نار جهنم**﴾[14] ويقول فيها يصف ما فعلت النار بجسم الأفشين:

طارت لها شعل يهدم لفحها
أركانه هدما بغير غبار
ففصلن منه كل مجمع مَفصِل
وفعلن فاقرة بكل فقار

قال أبو بكر الصولي: إنما قال: «وفعلن» فخص هذه اللفظة لقوله تعالى: ﴿**تظن أن يفعل بها فاقرة**﴾[15].

---

10) البيان والتبيين 19/1.
11) المزهر في اللغة 14/1.
12) البيان والتبيين 118/1.
13) أبو تمام الطائي حياته وشعره ص 67. البهبيتي ـ دار الفكر ط/2.
14) سورة التوبة: 109.
15) سورة القيامة: 25.

ويقول فيها :

لـو لم يكـنْ للسـامري قبيلـه

ما خار عجلهم بغير خُوار

وثمـود لـو لم يُدهنـوا في ربهم

لم ترم نـاقتـه بسهم قُدار

وفي هـذين البيتين ألم الشـاعر بقـولـه تعـالى : ﴿..**فكذلك ألقى السامري فأخرج لهم عجلا جهدا له خوار**﴾[15] ويقوله تعالى : ﴿**كذبت ثمود بطغواها. إذ انبعث أشقاها. فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها. فكذبوه فعقروها**﴾[17].

ويقول فيها :

ثـانيـه في كبـد السمـاء ولم يكن

لاثنين ثـان إذ همـا في الغـار

وقد ألم فيه بقوله تعالى : ﴿**إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار**﴾[18].

فهذه ستة مواضع من قصيدة واحدة اقتبس فيها الشاعر من القرآن لفظا ومعنى.

وأورد الصولي في أخبار أبي تمام قطعة قالها الشاعر في عبد الله بن طاهر في خراسان لما حجزه ببابه هو وجماعة زمانا. فكتبها في ورقة وأرسلها إليه. قال فيها :

أيهـذا العـزيـز قـد مسنـا الضُّـ

ـرُّ جميعـاً وأهلنـا أشتـات

ولنـا في الرجـال شيـخ كبير

ولـدينـا بضـاعـة مـزجـاة

قـل طـلابهـا فـأضحت خـاراً

فتجـاراتنـا بهـا ترهـات

فـاحتسب أجرنـا وأوف لنـا الكيـ

ـلَ وصـدق فـإننـا أمـوات

وواضح أن الشاعر استلهم في هذه المقطوعة ما جاء في قصة يوسف عليه السلام على لسان إخوته. قال الله تعالى : ﴿**قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين**﴾[19].

وقال تعالى : ﴿**قالوا يا أيها العزيز إن له شيخنا كبيراً فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين**﴾[20].

وفي ديـوان أبي تمـام أمثلـة أخرى كثيرة لتـأثره بالقرآن، ينهل فيها الشاعر من معاني القرآن وألفاظه. يقول في الغزل :

قـد أوتيتِ من كـل شيء نعمـةً

وَدَداً وحسنـاً في الصبـا مغمـوسـاً

لـولا حـداثتُهـا وأني لا أرى

عرشـاً لهـا لحسبتهـا بلقيسـاً

فقد ألم في هـذين البيتين بقـولـه تعـالى : ﴿**إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم**﴾[21]. ويقول في الغزل أيضا :

من كـل سـابغـة الشبـاب إذا بـدت

تركت عميـد القريتين عميـدا

يقول التبريزي في شرحه : «وإنما بني هذا الكلام على الآية الكريمة : ﴿**وقالوا لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم**﴾[22].

ويقول في وصف المطر مستلهما سورة الإخلاص :

هـديـة من صمـد جـواد

ليس بمـولـود ولا ولاد

ومما يوضح عمق تأثر أبي تمام بالثقافة القرآنية ما نراه في شعره من استلهام القرآن في ابتكار المعاني والصور الفنية. فمن ذلك قوله :

مثّلت لـه تحت الظـلام بصـورةٍ

على البعـد أقنتـه الحيـاء مُصمّمـا

---

16) سورة الأعراف : 148.
17) سورة الشمس : 11 ـ 14.
18) سورة التوبة : 40.
19) سورة يوسف : 88.
20) سورة يوسف : 78.
21) سورة النمل : 23.
22) سورة الزخرف : 31.

كيوسف لما راء برهان ربّه
وقد همّ أن يعروري الذنب أحجما

فهذا التشبيه مستلهم من موقف يوسف عليه السلام الذي وصفه القرآن في قوله تعالى : ﴿**ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه**﴾[23].

ومن هذا القبيل أو مما هو قريب منه قوله :

لمّا وردْن حياض شيبك طُلَّحاً
خيّمْن ثم شرِبن شُرْب الهيم

والتشبيه بشرب الهيم مأخوذ من قوله تعالى : ﴿**ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم فمالئون منها البطون فشاربون عليه من الحميم فشاربون شرب الهيم**﴾[24].

ويقول الشاعر أيضا :

أخرجتَهم بل أخرجتْهُم فتنة
سَلَبَتْهم من نضرة ونعيم
نُقِلُوا من الماء النمير وجنة
رَغَدٍ إلى الغِسْلِين والزقوم

وهذا المعنى مستلهم من آيات متعددة. قال الله تعالى عن فرعون وقومه : ﴿**فأخرجناهم من جنات وعيون، وكنوز ومقام كريم**﴾[25]، وقال تعالى : ﴿**فليس له اليوم هاهنا حميم، ولا طعام إلا من غسلين**﴾[26] (الحاقة : 36) وقال تعالى : ﴿**إن شجرة الزقوم طعام الأثيم**﴾[27] (الدخان : 43).

وفي بعض الحالات يعمد الشاعر إلى الاقتباس المباشر كما في قوله :

وبيّن الله هذا من بريته
في قوله : ﴿**خلق الإنسان من عجل**﴾[28]

وكما وجد أبو تمام في القرآن الكريم معينا غزيرا، يمده بفيض من المعاني، وألوان بديعة من فنون البيان، فإنه وجد فيه أيضاً مصدراً يمده بالدليل الفني القاطع الذي يرد به على النقاد، حين يأخذون عليه بعض المآخذ.

ولبيان اعتماد أبي تمام على القرآن في الدفاع عن شعره نسوق الخبر المشهور الذي ذكر فيه القدماء أن أبا تمام لما مدح أحمد بن المعتصم بقصيدته السينية، قام ينشدها بين يديه في مجلسه، فلما بلغ إلى قوله :

إقدام عمرو في سماحة حاتم
في حلم أحنف في ذكاء إياس

قال له الكندي الفيلسوف، وكان حاضراً : الأمير فوق من وصفت، فأطرق الشاعر قليلا ثم رفع رأسه وأنشد :

لا تُنكروا ضربي لَه من دونه
مثلا شَرودا في النّدى والباس
فالله قد ضرب الأقلّ لنوره
مَثَلاً من المِشكاة والنبْرَاس

فعجبوا من سرعة فطنته».[29] (أخبار أبي تمام للصولي : 231).

ويستنبط من هذا الخبر، إضافة إلى ما ذكره القدماء من سرعة الفطنة أن الشاعر هضم وتمثل بعمق القرآن الكريم، في معانيه وأساليبه ومسالك البلاغة فيه. وهذا التمثل هو الذي أعانه، في اللحظة الحرجة، على أن يستحضر الجواب القاطع. وإلا فالفطنة وحدها لا تكفي في مثل هذا. وردُّ أبي تمام على النقد الموجه إليه مأخوذ من قوله تعالى في سورة النور : ﴿**الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دُرّي يوقد من شجرة مباركة**﴾[30]. مثل الله تعالى نوره بمثال نور مصباح قوي الضياء، في زجاجة شديد الصفاء، والمصباح في مشكاة تجعل أشعة النور مجتمعة فيزداد قوة. وهذا كله ما هو إلا تمثيل يقرب نور الله إلى الأفهام. وكان أبا تمام

23) سورة يوسف : 24.
24) سورة الواقعة : 55.
25) سورة الشعراء : 57.
26) سورة الحاقة : 36.
27) سورة الدخان : 43.
28) سورة الأنبياء : 37.
29) أخبار أبي تمام للصولي ص 231.
30) سورة النور : 35.

يقول : إن تمثيل ممدوحه بمن ذكرهم إنما هو تمثيل يقرب حقيقته من أفهام المستمعين. وفي ذلك مدح، أي مدح.

فهذه جملة من الأمثلة، ملتقطة من ديوان شاعر واحد، توضح التأثر العميق الواسع بالقرآن، وتبين أن القرآن كان معيناً فياضاً ينهل منه الشاعر، ويستمد منه غرر الألفاظ وبديع المعاني.

وليس هذا التأثر مقصوراً على أبي تمام وحده، بل لو بحثنا عن مظاهره لدى غير أبي تمام من الشعراء لوجدنا منها ما يشفي ويغني. ولو تجاوزنا الشعراء إلى غيرهم من الكتاب والخطباء وغيرهم من أهل البيان لوجدنا عندهم كذلك هذا التأثر بالقرآن بارزاً.

وليس في هذا الرأي ما يدعو إلى التأكيد بالإكثار من الأدلة، فتأثر الأدباء المسلمين عامة بالقرآن أمر جلي لا خفاء فيه، ومرده إلى أن القرآن كان العنصر البارز في التكوين الثقافي للمسلمين عامة، يحفظونه أول ما يحفظون، ويقطعون الليل والنهار بتلاوته ودراسته. فلا غرو أن يتأثروا به، ويغرفوا من معانيه وألفاظه وأساليبه. وما أبو تمام في هذا إلا مثال سقناه لتوضيح هذا الرأي.

وبالله التوفيق



كتاب علم الاجتماع الخلدوني

عرض وتقديم : الأستاذ زين العابدين الكتاني

أزاحت تونس الشقيقة مؤخرا الستار عن تمثال للعلامة عبد الرحمن ابن خلدون، وتقول الأخبار والصور الصحفية أن فكرة إنتاج التمثال جاءت ذات طابع مغربي، يجمع بين الأصالة والخصائص المغربية التي طبعت هذه الدول، مما سيعطي أيضا للتمثال جانبا آخر في تعريف الجيل الصاعد بأصالته ومميزاته التي استطاع العلامة ابن خلدون أن يقدمها في إنتاجه، وفيما خَلَّفَه من نظريات وإنتاج فكري خالد.

وحتى نكون منطقيين مع فكرة إقامة هذا التمثال، وأهم ما ارتكز عليه من خصائص فقد اخترت أن أقدم كتاب : (علم الاجتماع الخلدوني) لمؤلفه الدكتور حسن الساعاتي، رئيس قسم الفلسفة والاجتماع، وعميد كلية الآداب بجامعة بيروت بهذه المناسبة.

☆ ☆ ☆

والكتاب الذي نحن بصدد الحديث عنه في هذه المناسبة من الحجم المتوسط، يقع في أكثر من مائتي صفحة، في تبويب مفصل، وإخراج علمي دقيق وجميل، يشتمل على أربعة فصول تتناول بالدرس لمحة عن حياة ابن خلدون، ومراحل حياته، ومقدمة ابن خلدون، ومقدمات بعض المؤلفين لمؤلفاتهم، والمنهج العلمي في مقدمات كتب كبار المؤرخين المسلمين القدامى، والتعريف بكتاب العبر ومقدمته وما احتوت عليها من المسائل العشر الأساسية، وقواعد المنهج في علم الاجتماع الخلدوني، وهذا الفصل يعتبر من أهم فصول الكتاب لأنه أصل الكتاب، حيث يتناول ستة أبواب هي الشك، والتمحيص، والواقعية الاجتماعية المتشخصة بموادها، وتحكيم أصول العادة، وطبيعة العمران، والقياس بالشاهد والغائب، والسير والتقسيم والحيطة عند التعميم.

وإذا ما انتقلنا لتصدير الكتاب فإننا نجد أن الدكتور الساعاتي يوضح الأسباب والطريقة التي عمل بها في إنجاز هذا البحث فيقول : بأن من الأمور اللافتة للنظر أنه على الرغم من أهمية مقدمة ابن خلدون أهمية علمية بالغة، فإنها لم تحظ بالعناية الكافية والمناسبة لما حوته من أفكار جديدة وآراء مبتكرة، تكون موضوع علم الاجتماع ووسائله كما تصورها واقع هذا العلم. ولذلك لم يكن غريبا ما يتردد في كتابات بعض الباحثين، وبخاصة الغربيين منهم، من أن المقدمة، على الرغم من بالغ أهميتها، لم تكن بداية خط علمي يسير فيه أتباع مدرسة فكرية اجتماعية عربية،

يمكن أن يطلق عليها اسم (المدرسة الخلدونية) ويقول المؤلف : أن هذه المقدمة قد استرعت اهتمامه بحكم تخصصه واشتغاله بتدريس علم الاجتماع في الجامعة، فصار بين الفينة والفينة، وكلما سنح له وقته المشحون يقرأ بعض فصول منها، فلاحظ أنها تتطلب قراءات كثيرة متكررة ومتلاحقة، لأنها مفعمة بشتى الآراء والأفكار في كل المسائل الأساسية التي يحتوي عليها علم الاجتماع المعاصر خصوصا وأن تأليف كتاب يحتوي على علم الاجتماع الخلدوني ليس بالعمل الهين، ولكنني (يقول المؤلف) قد وضعت مشروعا له، بدأته بهذا الجزء الذي تضمن قواعد المنهج في هذا العلم المبتكر، تلك القواعد التي ظن كثير من الباحثين أنها محصورة في صفحات معدودة كتبها ابن خلدون بعد فاتحة قصيرة في أول المقدمة، وجعل عنوانها : **«المقدمة في فضل علم التاريخ، وتحقيق مذاهبه والإلماع بما يعرض للمؤرخين من المغالط والأوهام وذكر شيء من أسبابها».**

وقد كان واجب البحث العلمي يحتم عليهم قراءة المقدمة كلها بروية وإمعان، وتفطن، حتى يمكنهم الغوص من تلك القواعد على كل ما كتبه عنها....

☆ ☆ ☆

ولما كان الكتاب كما أسلفت له أهميته البالغة والتي تلفت النظر، فقد كان علينا أن نقف مع الدكتور الساعاتي في الخصائص الخمسة التي اجتهد في بحثه الهام هذا إلى تحديدها، ومحاولة تبسيطها في هذا الحديث وهي :

أولا : أن ابن خلدون هو المؤسس الأول لعلم الاجتماع في العالم أجمع، شرقيه وغربيه، وقد سبق في ذلك «أوجست كونت» الذي يعده الغربيون أول «مؤسس لعلم الاجتماع في الغرب، وذلك بحوالي خمسة قرون ونصف».

ثانيا : أنه أول من تكلم عن علم الاجتماع بوصفه علما مستقلا، أي له موضوع، ومسائل، ومنهج وأسلوب علمي يتميز به.

ثالثا : أنه لم يكن كسابقيه، من المفكرين الاجتماعيين مثل أفلاطون مثلا، يتحدث دائما عما ينبغي أن يكون في جمهوريته الفاضلة، أو عن مجتمع مثالي تخيله، وتخيل له تنظيما معينا، كذلك لم يكن من أولائك الأخلاقيين الذين سلكوا طريقة الدعوة إلى المبادئ التي تقررها الظواهر الاجتماعية وتقرها قيم الأمة ونظمها ويرتضيها عرفها الخلقي، وذلك ببيان محاسنها، وترغيب الناس فيها، وتثبيتها في أنفسهم، وحثهم على الاستمساك بها، وبتبصيرهم بما يجب أن يتبعوه في تطبيقها لكي يضمنوا حسن الأداء، ويتجنبوا الوقوع في الأخطاء، وتشمل الدعوة أيضا تحذير الناس من سوء المصير، إذا خرجوا على هذه المبادئ الأخلاقية، والحدود السلوكية، وتلك هي الطريقة التي اتبعها علماء الدين والأخلاق والخطابة، وبعض الباحثين في شؤون الملك والسياسة، كابن مسكويه في كتابه «تهذيب الأخلاق» والغزالي في مؤلفه «إحياء علوم الدين» والماوردي في كتابه «الأحكام السلطانية».

رابعا : أن علم الاجتماع، أو العمران البشري، الذي وضعه، هو علم الاجتماع في شكله الأول الأصيل البكر، ومن المهم لدارسي علم الاجتماع الحديث أن يتعرفوا على علم الاجتماع في أول صورة له، أي كما وضعه أول مبتكر له، ليروا إلى أي حد كانت أصالته، وإلى أي مدى كان ابتكاره، ثم لينظروا في علم الاجتماع، أو العمران الذي ابتدعه ابن خلدون في أوائل الربع الأخير من القرن الرابع عشر الميلادي، وموضوعه ومسائله، ويقارنوا بينه وبين علم الاجتماع المعاصر، وموضوعه ومسائله، ويحكموا فيما إذا كانت أفكاره وآراؤه ونظرياته خاطئة أو قديمة لا توافق العصر الحديث، أي أنها صارت كعملة بطل العمل بها، أو أن أغلبها لايزال رصينا سليما، وأن العلماء المحدثين والمعاصرين - يقول المؤلف - على الرغم من مرور مثل هذه السنين، والإغراق في العلم والتيكنولوجيا، والتغييرات العميقة التي حدثت في شتى الميادين لم يزيدوا الكثير على النظريات العامة، التي كان ابن خلدون قد وضعها وانتهى إليها من تأملاته المنهجية في مجتمعات العرب والعجم والبربر، سواء

منها ما كتب له العيش فيها، أو ما وصلته أخبارها بالقراءة في بطون الكتب، أو بالاستماع إلى أقوال ذوي الخبرة والمعرفة، ونود أن ننبه بكل وضوح وتأكيد، إلى أننا لا نقول بأن أحدا من علماء الاجتماع المحدثين سواء في الغرب أو في الشرق، قد أفاد في علمه من مقدمة ابن خلدون، لأنها لم تكن معروفة لديهم حقبا طوالا، ولأن من كان قد عرفها قد أساء فهم كثير مما ورد فيها، سواء عن حسن نية، أو عن سوئها، بقصد صرف الباحثين من العرب عما بها من علم ذي قيمة خالدة، ومن سوء الحظ أن كثيرا ممن كتبوا منهم عن ابن خلدون ومقدمته، قد رددواهذه النغمة نفسها إما لأنهم قلدوا الغربيين، وفقا لنظرية ابن خلدون نفسه، وهي أن المغلوب مولع دائما بتقليد الغالب، أو لأنهم لم يكونوا من المتخصصين المهرة في علم الاجتماع، فلم يستطيعوا الاهتداء إلى ما فيها من نظريات مبتكرة أصيلة، ومن منهج ذي قواعد وبحث ذي طرائق اهتدى إليها ابن خلدون وبلورها وعرضها في وضوح وبساطة.

خامسا : أن الأفكار الواردة في الكتاب هي أفكار توفي بالغرض، الذي ينحصر في تحديد علم اجتماع ابن خلدون، وتقدم للدارس قواعد المنهج الذي اتبعها، وطرائق البحث التي استخدمها للوصول إلى الكشف عن عمله الجديد، ولكي يتبين لهم كيفية تناوله للموضوعات التي طرقها، وجعل منها مادة لهذا العلم الذي ابتدعه وكذلك إتجاهاته في البرهنة على الوقائع، سواء أكانت ذوات للناس، ورحلاتهم من قرى ومدن، أم أحداثا أو أفعالا كالوفاقات والخلافات، وما ينجم عنها من تعامل وتعاون، أو قطيعة وتنابذ.

وبعد، فإن كتاب (علم الاجتماع الخلدوني) لمؤلفه الدكتور حسن الساعاتي كتاب يعتبر بالنسبة للفكر العربي من الأهمية بمكان، خصوصا وأن مؤلفه اجتهد فأصاب، بل وأدى بعض الواجب الذي كان على علمائنا أن يقوموا به ما دام الذين اهتموا بهذا النوع من الدراسات استفادوا منه، وحاصروه بنوع من الغموض، وهذه أيضا خطوة مباركة للفكر العربي أيضا يفرض علينا أن ننوه بالمؤلف بكل تقدير وتنويه في هذه المناسبة المباركة.

☆ ☆ ☆





عرض الأستاذ عبد القادر العافية

الأستاذ التهامي الوزاني ـ رحمه الله ـ في هذا الكتاب يتحدث عن طفولته وشبابه بكثير من الصراحة، ويتحدث عن أصدقائه وعن الجو الذي كان يعيش فيه مع أسرته، ومع أساتذته، ويصور فيه جانبا من المجتمع على عهد طفولته أصدق تمثيل، ويعبر عن كثير من آراء وأفكار الناس بتطوان في هذه المرحلة من حياة الكاتب، وكيف كانوا ينظرون إلى الأولياء والصالحين، وإلى الأسر التي تتوارث الصلاح والعلم والتصوف... ويتحدث عن بعض الأسر التي كانت تحرص على تربية أبنائها تربية تكون على نفس المنهاج الذي انتهجه الأجداد والأسلاف... وكيف كان الطلبة يتلقون العلم عن شيوخهم، ويتحدث عن بعض الحوافز والنوازع والبواعث في هذا الوقت من حياة الناس.

ويصور أسلوب التعليم التقليدي، وكيف كان يعامل الطفل في الكتاب القرآني، وكيف يتعلم القراءة والكتابة... ويصور مبلغ المعاناة الشديدة التي يعانيها الأطفال أثناء تعلمهم، ويذكر تأثير بعض القصّاصين على الناس وعلى الأطفال بصفة خاصة، ومنهم الكاتب نفسه، حيث كانوا يؤثرون عليهم بحكاياتهم الغريبة وقصصهم المختلفة أو المقروءة من كتب القصاصين المغرقين في الخيال...

ويرسم الكاتب بعض الملامح للمجتمع التطواني وكيف كان يعيش الناس في هذه الفترة، وكيف كانوا موزعين على الزوايا الصوفية : فكل يذهب إلى (زاويته)، أو شيخ طريقته وبخاصة يوم الجمعة.

ويتحدث الكاتب عن أسرته، عن جدته، عن أمه، وعن تأثيرهما في مجرى حياته، ويتحدث عن والده الذي لا يعرفه إلا من خلال حكايات أمه عنه، وقصص جدته عن الأسرة.

ويصنف الكاتب مراتب أصدقائه في صداقتهم ويصور نفسياتهم وأخلاقهم، ومداركهم ومقدار وعيهم وفهمهم للحياة.

ولا ينسى الكاتب أن يشير إلى بعض الأحداث التاريخية الهامة في حياة مجتمعه الذي يتحدث عنه، كتصويره لحالة الناس عند احتلال تطوان من قبل الإسبان سنة 1913، وكيف قارنوا بين هذا الاحتلال وبين الاحتلال الذي كان قبله سنة : 1860، وكان عدد منهم عاصر الأحداث الأليمة للاحتلال الأول الذي لم تمض على أحداثه إلا ثلاث وخمسون سنة فقط، ومن هؤلاء الذين عاصروا تلك الأحدث : جدة الكاتب التي أصابها اضطراب شديد بسبب احتلال النصارى لبلدتها، وتذكُّر الناس ماذاقوه من الحرارة من الاحتلال الأول، وكذلك فكر كثير منهم في الهجرة من تطوان إلى جهات أخرى لا يحكمها النصارى ومن بين هؤلاء جدة الكاتب التي تخشى على أحفادها أن يتعرضوا للتكفير والخروج عن الدين، فعزمت على الهجرة إلى طنجة، وكانت جدته هي القائمة على شؤون الأسرة بعد موت أبيه، وصح عزمها على الرحيل لولا موانع وتطمينات من قبل أقاربها...

ويتحدث عن بعض العادات في تطوان، كعادة الاستجمام على ساحل البحر في مرتيل إبان الخريف، ويعلل أسباب ذلك، ويصف المضارب والخيام التي كانت تنصب بعناية على ساحل البحر، وهي أشبه ما تكون بخيام عكاظ أو موسم من مواسم العرب المتحدث عنها في كتب الأدب.

وبرع الكاتب في التحدث عن خلجات النفس ونوازعها ووصف شوقها واضطرابها، ورضاها وسخطها، وما

يعتريها من قلق وضيق وما تخوض فيه، وتطمح إليه... وعن معركتها الدائمة مع العقل والتبصر، وذلك شيء ركز عليه المؤلف في كتابه، وكان بحق بارعا في تصوير هذا الجانب، ودقيقا في رسم نفس الشباب الطموح الذي تتجاذبه عوامل مختلفة متضاربة، وبواعث متنوعة... فهو من جهة ابن أسرة شهيرة بالشرف والصلاح والتدين، والبعد عن سفاسف الأمور، ومن جهة ثانية هو شاب يافع في ريعان صباه يتمتع بقوة جسمانية كاملة ونشاط دائم، وملامح جذابة، بل في غاية الجاذبية.

تطغى أحيانا نفسه الأمارة، وتردعها نفسه اللوامة، فيعيش الصراع العنيف ويكتوي بناره في صبر وتجلد، صراعاً بين نفسه وعقله وخواطره وهواجسه...

وفي آخر الأمر، يصمم الشاب المراهق التواق إلى عالم الروح أن يقتفي طريق أسلافه في إيثار الصلاح وطرق باب التصوف قصد ولوجه من أبوابه، وهنا يحتار الشاب ويبحث عن المربي الروحي، ويطول به البحث عن ضالته المنشودة، وهو في تلهف دائم إلى من يأخذ بيده ويدله على الهدف المطلوب، وتأبى عليه عزة نفسه أن يبوح بأسراره حتى لأعز أصدقائه، أو أن يبدي مكنونات نفسه لأحد، وأخيرا يلتجيء إلى بعض من يثق بهم فيكشف له عن مقصوده وما هو عازم عليه ويشير عليه النصوح الأمين فتطمئنّ نفسه بعض الاطمئنان ويعمل على تنفيذ ما أشار به عليه المشير المخلص، لكن الأقدار تجري مجرى آخر، وبذلك يتخذ لنفسه سبيلا غير الذي أشار به الناصح الأمين.

وهنا يبدأ الكاتب مرحلة جديدة من حياته، وينغمس بكليته في طقوس (الزاوية) وينبهر بالجو الجديد المحيط به : ذكر، عبادة. موسيقى، مذاكرة، قراءة كتب التصوف : كالفتوحات المكية لابن عربي والفهرس لابن عجيبة، وغيرهما من كتب القوم، وكان قبل ذلك قد قرأ «شرح الأجرومية» بالإشارة لابن عجيبة، فنقله ذلك إلى عالم التصوف اللامحدود..

وهكذا ينغمس الشاب في الجو الصوفي مستعدا تنفيذ وتلبية أية رغبة يمليها عليه الشيخ، فهو بعد أن عثر عليه، باعه نفسه وسلمها له تسليم العبد المطيع لمولاه، فينقطع عن الدراسة ويحاول جذب بعض أصدقائه إلى (الزاوية) وفعلا يتأثر به بعضهم وينجذب، لأن (الزاوية) زاوية جمالية تمع فيها الموسيقى العذبة والأنغام الشجية، والأصوات الشحرورية الدافئة، وتدار على الحضور كؤوس الشاي أكواب من البلور، وصواني معدنية لماعة، والمكان مزين بالشمعدانات، وأقفاص الطيور الملونة والمغردة والتي يهيجها سماع الموسيقى، فتنافس آلاتها وتتبارى مع العود الكمان والرباب... في هذا الجو كان الانبهار الكلي للشاب الصغير الذي عمل بصدق على جعل أصدقائه يشاطرونه ما هو فيه.

وكان بعض الفقهاء يندددون (بالزاوية) في دروسهم واجتماعاتهم مع الناس، ويصل صدى ذلك إلى الشيخ فيتألم الشاب المريد، الصغير، ويحذره شيخه من ارتياد حلقات المنددين، وبذلك ينقطع الكاتب عن الدراسة، جملة وتفصيلا، إلا ما كان يقرؤه من كتب (الزاوية)...

والأستاذ التهامي الوزاني بارع في تصوير هذه المرحلة من حياته، وهو يتحدث بصدق كبير، ويتعرض لكثير من الجزئيات التي كان لها تأثير على مجرى حياته، وهو لا ينسى أن يمزج كلامه عن نفسه بأحداث تاريخية : حالة العالم العربي إبان الحرب العالمية الأولى، وموقف العرب من الخلافة العثمانية وحالتهم أثناء هذه الفترة وما بعدها ويتحدث عن (لورانس العرب)، وكيف أثر على أمراء البلاد العربية بدهائه وذهبه.

ويتحدث عن أحوال الدراسة بالقرويين بفاس، وعن الحركة السلفية التي بدأت تغزو الأفكار في هذه الحقبة، وعن الصراع الذي كان بين الداعين لها وبين بعض الفقهاء ورجال التصوف... لا يغفل الكاتب ذكر مثل هذه الأحداث لما لها من تأثير على مجريات الأمور في عصره.

وبرع الكاتب في تصوير عقلية ونفسية بعض الأسر في تطوان ووصف تشبثها بمعتقداتها الصوفية وتقديسها لبعض رجال الصلاح من أسر معينة، كم حاول ـ وهو الشاب الحسيب النسيب ـ وأحد كبار العلماء معه أن يرخص أحد الآباء لولده في حضور طقوس (الزاوية) فامتنع الأب امتناعا كليا بالرغم من علمه وتفتحه... وسبب ذلك أن أسرة

صـديـق الكـاتب تنتمي إلى طريقـة أخرى، وزاويـة أخرى...!! ولذا كان المستحيل أن يسمح والد صديق صاحبنا بمرافقته إلى (زاويته) لقد أسلم الكاتب نفسه لشيخه في سن مبكرة فأمره الشيخ بإدخال بعض التغييرات على هندامه، فوضع الشاب على رأسه (شاشية) حمراء، وارتدى جلبابا واسعا أبيض، وعلق في عنقه سبحة غليظة واتخذ عصا طويلة وأصبح يتجول مع شيخه على هذه الحال، عندما يقصد الشيخ والمريدون أحد المساجد أو أحد المنازل أو ما إلى ذلك، وأخذ ينظر إليه بعض أصدقائه من الطلبة وبعض أساتذته فيأسفون لحاله، بينما هو في منتهى النشوة والاغتباط والسرور بوجوده مع شيخ (الزاوية)، بل ذهب في هذا المجال بعيدا إلى درجة أنه كان يغيظ أحد أساتذته فيتعرض له في طريق عودته إلى منزله وهو بهندامه ذلك : شاشية طويلة وسبحة غليظة وعصا يتكئ عليها فيحملق فيه الأُستاذ مشفقا من حاله فينظر إليه الشاب نظرة شزراء ولا يكلمه ولا يسلم عليه، مع أن هذا الأُستاذ كان من الذين يعطفون عليه ويحسنون إليه... وذنبه في نظر الشاب هو أنه كان ينتقد شيخ (الزاوية) ويقول : أنه يغرر بالأحداث فيصرفهم عن دروسهم ويقف لهم، في طريق مستقبلهم الثقافي... لكن الشاب كان لا يهمه هذا كله، المهم عنده أنه من أجل شيخه يفعل كل شيء !!

فتصرفات الشاب صارت منه انتصارا لشيخه، ودفاعا عنه وحبا فيه،. وفي الفصل الذي خصصه الكاتب للشيخ العلامة الأُديب سيدي محمد الحراق يأتي بقصص طريفة، وبحكايات ممتعة، ومن ذلك ما حكاه عن صديق الشيخ ـ محمد بن الحسن ـ وعن غريب تصرفاته التي من جملتها أنه كان يعز عليه أن يزعج كلبا كان يجده نائما بباب دكانه، فكان ينتظره طويلا إلى أن ينهض عن طيب خاطره مهما طال الانتظار، وكان جيرانه يتعجبون من صبره وتحمله، وفي يوم من الأيام استغفله أحدهم وجعل أحد مصراعي الباب يسقط على الكلب فتألم الكلب وعوى... فما كان من (ابن الحسن) إلا أن عمد إلى الكلب وأخذ يضمد جراحه وعصب الأُماكن المتضررة من جسمه...!!

وكانت له مصيدة للفيران داخل دكانه في شكل سلة يدخلها الفأر من بابها الضيق فتنغلق عليه، وبذلك يتجمع بداخل (السلة المصيدة) عدد من الفيران. فيجد ابن الحسن الفيران واقعة بها، فبدلا من قتلها يأخذ في تأنيبها برفق ولين، ويخاطبها : أن السكر ما زلت لم أود ثمنه، وأن الزيت إذا وقعتن فيه فسد...!! عليكن ألا تعدن لمثل هذا، ثم يطلق سراحهن !!

فالكاتب بارع في تصيد الحكايات الطريفة التي يجد القارئ فيها متعة وطرافة.

وكتاب (الزاوية) يعطي نظرة طيبة عن الحركة الطرقية منذ بداية القرن الثالث عشر، حيث يتحدث عن الشيخ مولاي العربي الدرقاوي بشيء من التفصيل، وعن تلامذته :

(البوزيدي) (الحراق) وعن ابن عجيبة وعبد المومن الغماري، وغيرهم من كبار رجال التصوف بشمال المغرب، ويتحدث عن بعض الشخصيات التي دخلت الطريقة الدرقاوية، مثل شيخ الجماعة بفاس سيدي أحمد بلخيّاط، والسلطان عبد الحميد العثماني، ويذكر أن السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن كان من المعجبين بشعر سيدي محمد الحراق.

ويتحدث الكاتب عن الشعر الصوفي للشيخ الحراق وعن شاعريته الفذة ويذكر أنه كان فحلا من فحول القريض لا يجارى، وكان علماء فاس يستهويهم شعره، ويتلهفون لسماع قصائده، وبخاصة عندما ينشد على لسان المنشدين، وفي جمع من العلماء جرى الكلام عن درجة شعر الحراق، فقال أحدهم : إنه ابن الفارض الصغير، فرد عليه شيخ الجماعة سيدي أحمد بلخياط : بل هو ابن الفارض الكبير، ومن اين لابن الفارض أن يصل درجة الحراق علما، ونسبا، وسجيّة...؟؟!

ويتعرض كاتب (الزاوية) لأحداث تاريخية هامة يفرضها سياق الحديث كما لاحظنا ذلك من قبل، منها :

الخلاف الذي كان بين مولاي سليمان وبين أولاد أخيه المولى اليزيد، وكان العلميون بجبل العلم وشمال المغرب يناصرون أولاد مولاي اليزيد، احتفاظا بالولاء لأبيهم الذي حط رحاله عندهم، واعتمد عليهم فيما كان يهدف إليه من تحرير سبتة... فبقي ولاؤهم لأبنائه...

وفي هذه الأثناء، بايع بعض الناس مولاي إبراهيم بن مولاي اليزيد بفاس، وكان ممن بايعه مولاي العربي الدرقاوي...

وكان الشيخ محمد الحراق من أنصار مولاي سليمان الذي عينه خطيبا وواعظا بتطوان، وخالف في انتصاره للمولى سليمان شيخه مولاي العربي الدرقاوي، وبنو عمه العلميون، وتعرض من أجل ذلك لمضايقتهم... مما جعله يحتمي بأنصاره ومريديه ببني سالم من أحواز تطوان، وقدر له المولى سليمان هذا الموقف.

ويتحدث كاتب (الزاوية) عن نماذج من أصحاب الشيخ سيدي محمد الحراق كالسيد محمد بن الحسن السالف الذكر، وقد أطال الحديث عنه وعن إعجابه بأخلاقه وخلاله، كما تحدث بإعجاب عن السيد عبد السلام أكزول الشاب النشيط الذكي الواعي... الذي كانت له مواقف حكيمة تدل على رجاحة عقله وسداد فكره... مع اطلاعه الواسع على كتب التصوف.

كتاب «الزاوية» للأستاذ التهامي الوزاني يجد فيه القارئ متعة وفائدة، لأن الكاتب مزج بين التصوف والتاريخ والتحليل النفسي، والحكايات والقصص الطريفة... وبين تصوير لقطات اجتماعية معبرة...

وهذه الملامح المسجلة على هذه الصفحات عبارة عن أفكار احتفظت بها الذاكرة بعد قراءة الكتاب، وليست تلخيصا لجميع موضوعاته وأبرز عناصره، فقراءتها لا تغني عن قراءة كتاب (الزاوية).

وفي نهاية هذه الجولة برحاب (زاوية) سيدي التهامي الوزاني أذكر أن الكتاب طبع على ورق رديء جدا... ولعل التقشف الذي عانى الناس منه خلال الحرب العالمية الثانية كان له دور في ذلك، فالكتاب طبع بمطبعة الريف بتطوان سنة 1361 / 1942 وبه أخطأ مطبعية عديدة، لم يخفف من حدتها جدول (الخطأ والصواب) الذي لا يمثل عشر ما في الكتاب من أخطاء مطبعية. والكتاب جدير بأن يطبع مرة ثانية، إذ هو قد أصبح نادر الوجود، وفي حكم المخطوط.

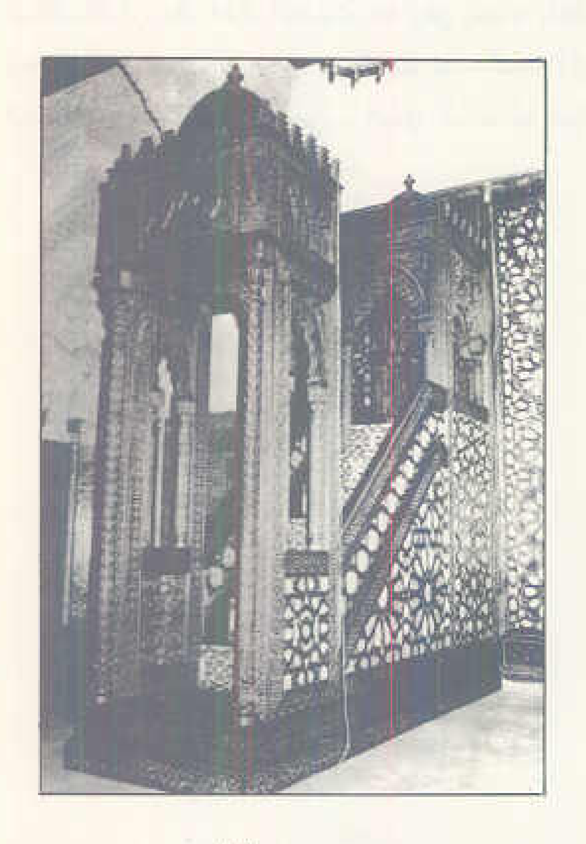


فنون الصناعات التقليدية

بمسجد ضريح محمد الخامس

(5)

للدكتور عثمان إسماعيل



منبر ضريح محمد الخامس

3 ـ المنبر :

1) تاريخ صنع المنبر والشروع في استخدامه :

تبعا للمعلومات الصحيحة التي استقيتها من المرحوم المعلم محمد بن عبد الكريم الفنان المغربي الفذ المشرف الفني العام على أشغال المشروع، فإن المعلم محمد بن عبد الكريم نفسه هو الذي كلف المعلم (الخضري) معلم فن النجارة بتنفيذ صناعة المنبر، وقد استمر هذا الأخير مدة عامين كاملين يعاونه خمسة من مهرة الصناع وحذاق الفن يعكفون على صنع المنبر في معمل المعلم (الخضري) بحي مرس السلطان بالدار البيضاء بميزانية تكاليف إجمالية بلغت مائة وعشرة ألف درهما.

وبعد انتهاء أشغال المنبر وتمام صناعته تم حمل جميع أجزائه وأطرافه المفصلة إلى موقع المسجد بالمجموعة

المعمارية بالرباط، وحفظت جميع عناصر المنبر داخل مبنى المتحف الوطني لصق المسجد بإشراف المعلم (الخضري) الوافد معها من الدار البيضاء يوم السبت العاشر من شهر مايو عام خمس وسبعين وتسعمائة وألف (1975/5/10م) موافق 28 ربيع الثاني عام 1395 هجرية.

ثم بعين المكان تم تركيب المنبر جزءا جزءا تمهيدا لتثبيته بإزاء المحراب لصق جدار القبلة في الموقع الذي لازال يشغله إلى اليوم.

وقد وقف المنبر في مكانه هذا بعد تمام صنعه بالدار البيضاء ووصوله إلى المسجد وتمام تركيبه وجمع أجزائه في هيئته الراهنة يوم الخميس 29 مايو عام 1975 موافق 18 جمادى الأولى عام 1395 هجرية.

هذا، وكانت أول خطبة شرفت المنبر يوم الجمعة التالي مباشرة 30 مايو 1975 موافق 19 جمادى الأولى 1395 هجرية ألقاها الخطيب المعين بأمر أمير المؤمنين الحسن الثاني وهو فضيلة الأستاذ العالم الجليل، الشيخ محمد المكي الناصري.

2) تصميم وتنفيذ المنبر :

على إثر نتائج البحث خلال لقاءات عديدة مع المرحوم المعلم محمد بن عبد الكريم المشرف الفني العام أوضح لي أنه قام شخصيا بوضع تخطيط المنبر وتصميم هيئته وعرضه على المعلم الخضري صاحب فن النجارة مرسوما على الورق بتفاصيل المقاييس الكاملة وتفاصيل أنواع الخشب لكل جزء من الأجزاء كما سلمه رسما على الخشب بتخطيط المنبر وأوصاف مراحل صنعه ثم ترك له حرية عمل (الرشم والنقش وكل شيء يتعلق بالزخرفة).

وهكذا وضع المعلم المرحوم محمد بن عبد الكريم التصميم العام لهيكل وهيئة المنبر وترك تنفيذ بنائه وتفاصيل زخرفته لعبقرية المعلم الخضري ومعاونيه بمعمله بمدينة الدار البيضاء.

3) دراسة المنبر :

أبعاد المنبر ووزنه : يبلغ طول المنبر ابتداء من المدخل إلى الظهر الخلفي ثلاثة أمتار وعشرة سنتيمترات (3.10م) ويبلغ أقصى ارتفاع له بين القاعدة ورأس القبة الخلفية مقدار ثلاثة أمتار وستين سنتيمترا (3.60م). وبالنسبة لعرض المنبر أي اتساعه فنجده من الخارج إلى الخارج يبلغ تسعين سنتيمترا (90 سم)، وأخيرا يبلغ وزنه الإجمالي طنين كاملين.

مراحل وعناصر تركيب المنبر : تبدأ مراحل تركيب المنبر، تبعا لما أفادني به صانعه المباشر والنجار الفنان المنفذ المعلم الخضري، تبدأ بالأساس وفوقه الجوانب والدروج ثم الباب والتربيعة والشواف. ولا بأس من القيام الآن بالتعرف على خلاصة تلك العناصر.

1 ـ **أساس المنبر :** أساس المنبر هو الإطار الأول السفلي الحامل لمجموع الهيكل فهو إذن القاعدة الأولى لحمل الوزن الإجمالي. وقد صنع أساس منبر مسجد محمد الخامس من خشب الأرز المغربي لأنه (يصبر ويصمد ضد آفات التسويس). ويبلغ سمك هذا الأساس ثمانية سنتيمترات (8 سم) ويصل ارتفاعه إلى ما يقرب من ثلاثة أضعاف السمك وبالتحقيق عشرين سنتيمتراً (20 سم)، وهذه الأبعاد أذكرها اعتمادا على الدراسة الميدانية التي قمت بها بنفسي بعين المكان، وكل تلك العناصر منقوشة بالوحدات الزخرفية النباتية المعروفة بالفن المغربي.

2 ـ **باب المنبر :** وباب المنبر هو مدخله بما في ذلك السواري (الأعمدة الخشبية المحيطة به)، ومن فوقها التربيعة ثم قبة المدخل.

ويفتح مدخل المنبر بين ساريتين يبلغ طول الواحدة منهما قدر مترين ويحملان (تربيعة) نقش بها (قوس رخوى مطعم (بالتوريق)، وبنفس التربيعة خيطان من (النقرة) يعني الفضة، والنقرة اصطلاح مغربي شائع غير معروف بالمشرق.

3 ـ **قبة المدخل :** وقبة مدخل المنبر تعرف في الصنعة باسم (ست عشرية) أي أنها تتكون من ستة عشر ضلعا، وقد نقشت بالداخل والخارج بزخرفة تعرف في الصنعة التقليدية باصطلاح (حكة بالكوفي)، و(الحكة) عبارة عن ورقة نباتية (مشرشرة) تعرف بهذا الاسم، أما (الكوفي) فهو النقش الزخرفي الشبيه بالكتابة الكوفية، هذا وجدير بالذكر أن نشير إلىأن جميع النقش المعروف باسم (حكة بالكوفي) قد تم تطعيمه بخشب الليمون الأبيض.

4ـدروج المنبر:(الدروج في عرف المغاربة هي (السلالم) في المشرق فهي درجات ارتقاء المنبر التي يصعدها الخطيب. وعندما نتعرف عليها هنا بمنبر مسجد محمد الخامس نجد أن الدرجة الأولى التي يصعدها الخطيب عبارة عن تربيعة عريضة أي فسيحة وهي هنا مربعة المساحة يبلغ طول ضلعها ستة وسبعين سنتيمترا (76 × 76 سم)، يلي ذلك مباشرة ثماني درجات يبلغ عمق الدرجة منها وهو ما يعرف في فن العمارة باسم (الراقد) وهو النائم (الذي يطؤه قدم الصاعد) خمسة وعشرين سنتيمترا (25 سم) في حين يبلغ (الواقف) وهو الجانب القائم اثنين وعشرين سنتيمترا (22 سم) وهو يمثل ارتفاع الدرجة.

وفي الختام توجد (تربيعة علوية) بنفس اتساع (تربيعة المدخل) غير أنها أكثر عمقا إذ جاءت مستطيلة الشكل يبلغ قياسها (76 × 90 سم) فعرضها يبلغ ستة وسبعين سنتيمترا ويصل عمقها إلى تسعين سنتيمترا، وقد زخرفت درجات المنبر (الراقد) و(الواقف) بتسطير بدون نقش محكوك مثل شغل الزليج.

5 ـ **جانبا المنبر :** يمكن للملاحظ أن يميز بالنظرة الأولى لأحد جانب المنبر ثلاثة أقسام متميزة أولها مجموعة المدخل فوق التربيعة السفلى التي ينتصب فوقها ساريتان تحملان عقدا يحمل تربيعة المدخل العليا التي تجلس عليه قبة المدخل.

وفي مؤخر المنبر (والمشاهد مقابلا لجانبه) توجد مجموعة أخرى متميزة تقوم فوق (الأساس) بمساحة مستطيلة قائمة على جانبها الضيق فوقها ساريتان تحملان قوس (الشواق) العلوي، وبين الكتلتين الأولى بالمقدمة والثانية بالمؤخرة يمتد جانب المنبر في تقسيم هندسي منطقي يتناسب مع طبيعة بناء المنبر ونظام دروجه الصاعدة، وهكذا نراه عبارة عن مثلث كبير المساحة قائم الزاوية ضلعه الطولي إلى أعلى ليكون متكأ الصاعد على الدروج فإذا ما اكتمل عدد الدروج يستقيم الخط مع التربيعة العليا التي يجلس فوقها الخطيب ويكون على هيئة (دربوز) يتكئ عليه الخطيب عند الصعود أو الهبوط.

وهذا القسم الثالث من جانب المنبر عبارة عن خشب أحمر يشتمل على (تربيعة) و(جوز انصاف)، والتربيعة هنا تعني زخرفة هندسية عبارة عن (اثنا عشري بالقطيب)، والقطيب مطعم وسطه بالخشب الأسود، وبنفس الجانب خيطان (نقرة) أي فضة. ويتكرر هذا النظام المنفذ في التربيعة الرئيسية في كل من نصفي (التربيعة) الموزعين على الجانب العلوي للمثلث. هذا، وقد صنعت (الفرم) وهي جمع كلمة (فرمة) من (العود) يعني الخشب الأبيض بنقش دقيق من التوريق والحفر العميق، ثم يرتقى هذا التصميم كله بأعلى الجانب (دربوز) من نفس نوع الخشب الأحمر مزين بالنقرة ومنقوش بالداخل والخارج.

وفيما يتعلق بالتربيعة المستطيلة خلف المثلث وهي نهاية جانب المنبر أسفل قبته الخلفية، فقد صنعت من نفس نوع الخشب وبها تربيعتان (جوز ديال ناعورات) يعني (ناعورتان)، والناعورة هنا معشرة (بالمخمسات)، وداخل تلك المخمسات توجد (الفرمات) مطعمه (بعود أكحل) وهو الخشب الأسود اللون.

وتعرف (التربيعة) وهي (الحشوة) في مصطلح الفنون الإسلامية المعروفة بالفرنسية باسم (PANNEAU) والموجودة هنا على شكل مثلث وكذلك جارتها المستطيلة في الصنعة المغربية بمصطلح (العمل)، وحول (العمل) يدور إطار (ساير داير) منقوش (بحكة ضفيرة) ومطعم بقطيب الليمون الكوفي.

6 ـ الشواف : والشواف اصطلاح مغربي معناه الجزء الأعلى من جسم المنبر، وينتصب الشواف فعلا فوق التربيعة المخصصة لجلوس الخطيب بنهاية درجات المنبر، وهو في الواقع عبارة عن أربعة (شوافات) منها ثلاثة مفتوحة بقوس وهي بالجوانب الثلاثة، بينما (شواف) واحد مسدود يقوم بدور ظهر المنبر العلوي الذي يستند إليه الخطيب عند الجلوس.

ويبدأ مجموع ذلك القسم اعتبارا من مستوى الدربوز وقمة المستطيل الجانبي القائم على رأسه حيث تنتصب السواري المنقوشة ومن فوقها الأقواس التي استفرغت الصنعة القرصية فيها جهدها، ثم التربيعة العلوية الحاملة للقبة التي يقف أمامها الخطيب ويكون تحتها أثناء الجلوس.

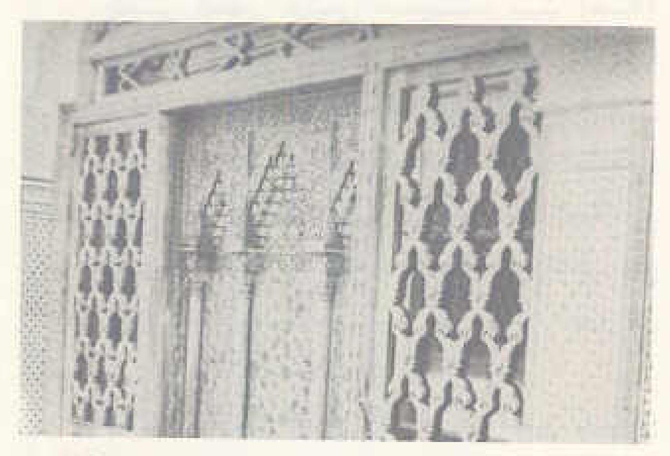
7 ـ القبة العلوية : والقبة العلوية غير قبة المدخل وقد حددنا موقعها من المنبر، وتتميز هذه القبة بالنقوش المحفورة حفرا عميقا بالصنعة المسماة (حككة بالكوفي) التي تعني شكل أقواس نباتية تتخللها زخرفة تقليدية تقلد هيئة الكتابة الكوفية، وبهذا الأسلوب الزخرفي تبدو القبة مغشاة من الداخل والخارج.

وتتعلق الملاحظة الأخيرة بخلو المنبر (على كثرة زخارفه ونقوشه وتنوعها) من أي نقش عربي كتابي قرآني أو دعائي أو تأسيسي، وذلك بالإضافة إلى إغفال ذكر اسم الصانع المبدع، حيث اقتصرت الزخارف الخطية والكتابية على عبارة واحدة فقط نقشها النجار نفسه، ودون معرفة مسبقة بطراز وأسلوب الخط المراد تنفيذه حسبما علمت من أبحاثي المباشرة معه، وتوجد هذه العبارة بواجهة الشواف العلوي أسفل القبة مباشرة وهي كلمات البسملة (بسم الله الرحمن الرحيم).

4 ـ العنزة :

العنزة هي المحراب الصيفي الذي يشغل فتحة بلاط المحراب على صحن المسجد، ونراها بمسجد محمد الخامس منقوشة الوجهين على الخشب من الداخل والخارج.

ويشتمل الوجه الخارجي المطل على الصحن على ثلاث وحدات كل منها عبارة عن قوس مقربص فوق السواري المزخرفة بالخطوط الحلزونية. ونلاحظ أن لكل



6) عنزة مسجد محمد الخامس، منظر عام لعمارتها وزخارفها.

من سواري العنزة بهذا الوجه قاعدة تسمى (كرسي السارية) كما نجد بأعلى بدن العمود تاجا مزخرفا بنوع من زخرفة (التعريج النهري) سألت عن إسمها في الصنعة المغربية فأفادني المعلم اليازغي فنان ومبدع صنعة الخشب بمدينة مكناس بأنه لا يوجد لديه اصطلاح لها وإنما يقدم التصميم مرسوما إلى الصانع لتنفيذه.

وينفرد القسم الأوسط برسم محارة كبيرة منقوشة أسفل القوس بينما نقرأ في المكان المناظر بكل من القوسين الجانبيين كلمة (الله) منقوشة بالخط الكوفي البسيط.

كما نرى أسفل المحارة بالقسم الأوسط (زواقة) تعرف في الصنعة باسم (مثمن تدريسية) بنقوش دقيقة.

وتتوسط الوجه الداخلي ثلاث وحدات رئيسية تتوجها أقواس (مخرصة) فهي (مسننة ـ فستون ـ FESTON) منقوشة بنقوش أندلسية أسفلها حشوة كبيرة مستعرضة داخل إطار هندسي يتوسطها رسم وردة.

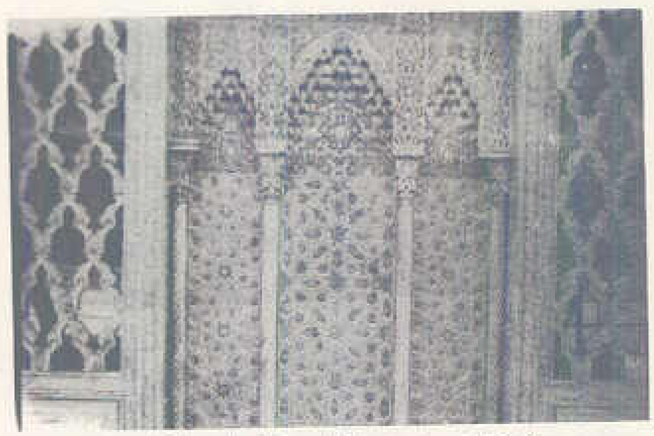
ويشغل محيط أو جوانب العنزة زخرفة (بالطبيع) تسمى (عُقَيدة ومُخبّرة معصرة)، ويعلو بدن العنزة إطار خشبي ترتقي فوقه الشرفات العليا وكل منها يتكون من أربع درجات.

5 - أبواب بيت الصلاة على الصحن وأبواب المسجد الداخلية :

يتصل الصحن الرئيسي للمسجد ببيت الصلاة والمجنبات عن طريق فتحات وضعت بها أبواب خشبية يبلغ عددها في الناحية الشمالية (جهة المجنبة الشمالية أي تجاه صحن مسجد حسان) أي بالجانب الطويل لمستطيل الصحن تسع فتحات يقابلها نظير لها جهة بيت الصلاة مع ملاحظة وجود العنزة بالفتحة المتوسطة التي تشغل موقع اتصال بلاط المحراب بالصحن، بينما في الجانب الضيق من المستطيل توجد ثلاث فتحات بأبوابها الخشبية.

وينقسم تخطيط كل من الأبواب إلى قسمين متميزين الأعلى منهما على هيئة نصف دائرة والأسفل مستطيل الشكل منتظم التخطيط من أربع وحدات طولية.

ويشغل جميع تلك الأقسام والوحدات زخرفة واحدة متكررة بانتظام وعلى نسق واحد وهي عبارة عن تقسيم زخرفي يعرف باسم (حَكّة) سبق شرحه في الأبحاث السابقة وهذا التقسيم الزخرفي المعروف باصطلاح (حكة) عبارة عن وحدة متكررة من أوراق نباتية تشكل هيئة معينات هندسية



2) عنزة مسجد محمد الخامس، تفصيل عمارتها.

يتكون كل منها من أربعة أجزاء تجمع إلى بعضها عند التركيب في الإطار العام مع وضع وحدة من (كوز الصنوبر) تعرف في الصنعة المغربية باسم (صنوبرية) وذلك في موضع التقاء أطراف المعين (الشكل الهندسي المذكور) بقصد تغطية موضع (اللحام).

ثم يلي ذلك أسفل تلك المجموعات بالقسم الأدنى من الباب حشوة مستقلة من (التسطير العربي).

أما داخل المسجد فيوجد باب بكل من جانبي دخلة المحراب كمدخل للخطيب وهو من صناعة المعلم اليازغي فنان مكناس. ويشرح لي المعلم اليازغي عمله هنا بأنه جاء صنعة وزخرفة من النوع المسمى (تدريسية) مثل صنعة زخارف العنزة من الخارج.

ويقول المعلم اليازغي أن فروق الصنعة تبدو من الفارق بين دقة هذا الباب وباب خزانة الكتب المجاورة وباب مقصورة النساء وكلاهما من صنعة المرحوم المعلم الغوات.

الجص :

لازال الجص في طليعة المواد التي تحظى بزخارف فنية شديدة التنوع بمسجد محمد الخامس. وقد درسنا سابقا زخارف العقود المتنوعة، وهذه الأنواع قد رسمت بالفعل وتنوعت عن طريق أشغال الجص التي غطت نماذج متساوية من الأقواس المصمتة بالملاط المسلح على هيئة النوع المتجاوز المنكسر الذي اختاره مهندس الضريح.

وهكذا وجدنا القوس الرخوي بواجهة المسجد المطلة على الصحن الرئيسي بزخارف تقليدية تعرف في الصنعة المغربية باسم (كتف ودرج بالقوقابة)، والعقد الرخوي المقربص ببلاط المحراب والعقد المفصص (بالهمز والبوجا

والعنقود)، وقوس يعرف بالقوس (الرخوي بعنق مشقوق) بالبلاطات الجانبية، والقوس الرخوي (بالنصاص) بالعقود الموازية للقبلة بالمجنبات، وقوس رخوي (ومعكوف وخرسة) بالمؤخر أو الزيادة الشمالية، وقوس (كتف ودرج) وجميعها أنواع تميزت عن بعضها البعض بكسوة الجص التي

3) عنزة مسجد محمد الخامس، تفصيل زخارفها.

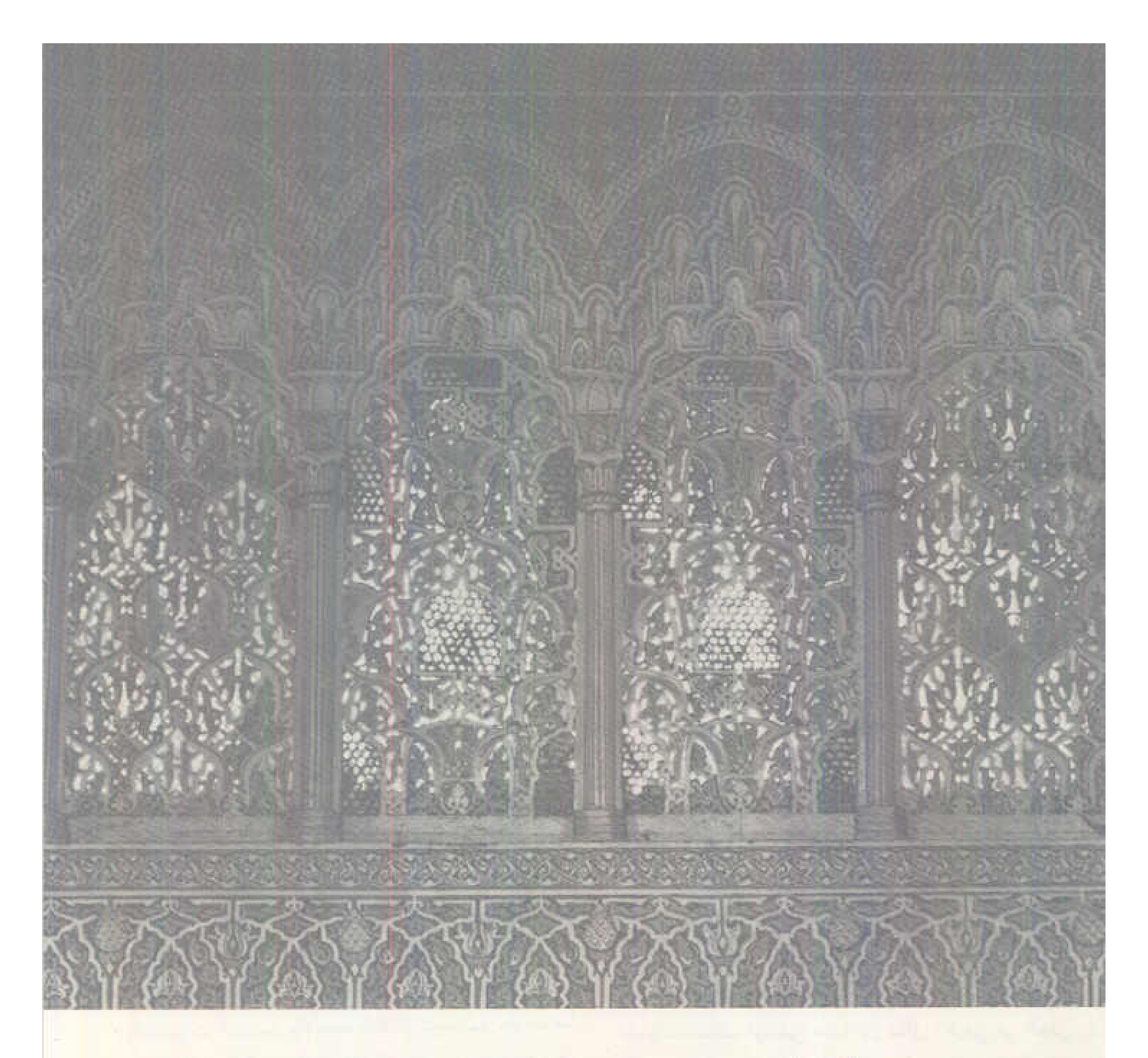
ركبت فوق جسم متشابه من الملاط المسلح (1)، وإن نظرة متأنية إلى عقود أسطوانة المحراب وواجهته لتعكس بكل يقين منظر لوحات رائعة لإشغال الجص وتفاصيل زخارف الدلايات الدقيقة أعلى فتحة المحراب وبالأفاريز والأرضيات النباتية والبنيقات ذات الكتابة العربية والتضفيرات الهندسية والأعمدة الدقيقة بتيجانها وقواعدها بجانبي الفتحة العليا لعقد (2) المحراب، وتفصح زخارف طاقية المحراب عن تنوع العناصر الزخرفية ودقتها فنرى المقرنصات المعمارية الزخرفية وانقسامها وسقوط الدلايات الجصية الدقيقة أسفلها والقواقع الهندسية (3) الاشعاعية في

أركان متناظرة عند تقابل أرجل العقود التي انقسمت إليها جوفة المحراب العليا، ثم زخرفة التوريق المعروفة عند الأوروبيين باسم (أرابسك) نراها تملأ المساحات المعقود أعلاها بأقواس تنقسم بدورها إلى دلايات هندسية.

ويعلو القسم الأسفل من جدار القبلة المغطى بالزليج شريط من الكتابة بالخط النسخي عبارة عن نص قرآني يشتمل على جزء من سورة الإخلاص : ﴿**قل هو الله أحد**﴾ والنقش الكتابي محفور في الجص يتكرر تسع مرات بكل من جانبي المحراب ابتداء من المحراب إلى نهاية حائط القبلة شرقا وغربا، لقد جاء كل ذلك بالجص الذي يسير أعلاه شريط من تقليد الكتابة الكوفية المضفرة في الجص، ثم تنقسم الواجهة أعلى ذلك بكل من الجانبين ابتداء من المحراب إلى نهاية الجدار شرقا وغربا إلى سبع حشوات زخرفية مخرمة في الجص : أولها : حشوة جهة المحراب بزخارف مخرمة في الجص يتخللها الزجاج الملون، تليها حشوة جص مخرم دون زجاج، ثم حشوة صماء تماما دون حفر أو نقش، والرابعة جص مخرم بزجاج ملون، والخامسة حفر مخرم دون زجاج، والسادسة صماء دون حفر والسابعة جص مخرم دون زجاج.

ومن جهة أخرى نلاحظ بنفس واجهة محراب المسجد فيما بين المحراب وبين المجموعات الزخرفية المذكورة وبالتحديد فوق جدران المحراب بكل من الأسطوانتين المجاورتين للمحراب شرقا والمناظرتان غربا عدد سبع حشوات تتألف الوسطى منها من شكل زخرفي في الجص الملون داخل مساحة زخرفية مضفرة، وحول هذه الحشوة من كل جانب حشوة من زخارف الجص الملون في شكل ترصيع هندسي على غرار نماذج الزليج، ويلي ذلك حشوتان من كل جانب بالجص المخرم المطلوق (السادة)

1) كتاب فوطوان : ضريح محمد الخامس اللوحات ص 127، 128، 133.
2) نفس المصدر لوحات ص 124، 125.
3) نفس المصدر لوحات ص 125.



4) أشغال الجص والزجاج الملون بحائط القبلة أعلى محراب مسجد محمد الخامس.

دون ألوان، أما الألوان المستعملة فهي الأزرق والأخضر والأحمر. وداخل بيت الصلاة تعلو السواري المغطاة بالزليج تيجان من الجص المنقوش بالعناصر النباتية، وبالصحن الرئيسي رممت السواري بالجص بين كل قوسين من أقواس الصحن ونقشت بها زخرفة تعرف باسم (توريق لحكة) وهي ورقة نباتية كبيرة مزدوجة كانت معروفة أيام المرينيين ومن قبلهم الموحدين.

طبع بأمر من صاحب الجلالة أمير المؤمنين الحسن الثاني نصره الله

المملكة المغربية
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

دليل مخطوطات دار الكتب الناصرية بتمكروت

إعداد:
الأستاذ محمد المنوني

1405 هـ - 1985 م

